تراث مصر القديمة

مقتطف سبتمبر ١٩٣٦



تراث مصر القديمة

مقتطف سبتمبر ١٩٣٦

مقدمة

يسرّ ادارة المقتطف ان تشترك مع قسم الخدمة العامة في جامعة القاهرة الاميركية وجماعة البردي ، في اصدار هذا السفر النفيس المحتوي على بيان لذخائر الحضارة المصرية القديمة في العلم والادب والفن والفلسفة ، وتوجه الشكر الخاص الى الاعلام الذين اشتركوا في وضعه ، والثناء العطر على ادارة قسم الخدمة العامة في الجامعة الاميركية ومجلس ادارة جماعة البردي وتخص بالذكر منهما الاستاذ حنا رزق والاستاذ حسين مؤنس

وبعد فعسى ان يكون في هذا الكتاب لورثة أمجاد المصريين القدماء ذكرى وعبرة

« المقتطف »

مصر وماضيها

للاستاذ حسين مؤنس
ليسانسيه في التاريخ من الجامعة المصرية

كنا نظن، يوم بدأنا العمل لاقامة اسبوع مصر القديمة اننا وحدنا نفكر هذا التفكير، وكنا قد قدّرنا ان لا غنى لنا عن دعاية واسعة النطاق، حتى يقدّر الناس فكرتنا قدرها الصحيح، ويولوها ما هي جديرة به من عناية، ولكننا لم نكد نمضي في التنفيذ، حتى عرفنا ان الوهم كان قد أضاف الى تفكيرنا شيئاً كثيراً، وان ما فكرنا فيه كان يدور في كل فكر ويجري على كل خاطر، كأنما لم يكن ينقصنا كلنا الا أن يبدأ أحدنا المسير فيتبعهُ الآخرون خفافاً سراعاً. بل ما كادت المحاضرات تبدأ، حتى تقاطر الناس يستمعون اليها في شوق وشغف، كأنما تبدّل الناس، فلم يعودوا يكتفون بان يكون علمهم بقدماء المصريين قاصراً على انهم بناة الهرم واصحاب الهول، ولم تعد الغالبية منهم ترضى لمصر القديمة ان يكون ذكرها حديث الشبان المتحمسين وحدهم أو أنشودة الاطفال في حفلات المدارس، ولم تعد دراستها قصراً على العالم المتخصص، الذي ينظر الى دراسته كنوع من الهواية اللذيذة، او طوائف الاجانب الذين يفدون للمتعة وازجاء الفراغ، وأصبح التفكير في هذا الامر جدّاً خالصاً ولوناً من الوطنية يشعر به المصري دون الحاجة الى التنبيه أو التوجيه، ولم يعد هنالك شك في ان الشخصية المصرية لا تستقيم كاملة الا اذا ساهمت مصر القديمة في تكوينها، وان مصر الحديثة لا تزال تستبقي روح أمها القديمة، وان المصريين اليوم — والفلاحين منهم بوجه خاص — يمتون الى اجدادهم من اهل مصر القديمة وفلاحيها بأوثق الاسباب

***

وعلى الذين يشكون في هذه الحقيقة، ويجادلون في قيمة هذه الدراسات وجدواها على هذا البلد، ان يذكروا أننا نعيش الى اليوم في رعاية مصر القديمة وبذكرها، وان الناس — إن كانوا يحترموننا ويذكروننا — فبهؤلاء الفراعين لا بأنفسنا ولا بماضينا القريب، فلا زال نصيب المصريين في بناء مصر الاسلامية موضع الشك عند الغالبية من المؤرخين، ولا زال مجد مصر الاسلامية قسمة بين الغفاة والطارئين من مشارق الارض ومغاربها، لم يقيض الله لهُ بعدُ من يدرسهُ على ضوء الحق، فيبيّن النصيب الذي ساهمنا به في بناء الحضارة الاسلامية. اما مجد مصر القديمة فلا خلاف بين المؤرخين على انهُ مجدنا وحدنا، وانا أقمنا صرحهُ بجهدنا وعبقرياتنا لا بجهد الاجانب الطارئين، فلا أقل من ان يذكرنا بالخير من يعجب بهم ويسبح بحمدهم، فنحن بهم لا نزال ولن نزال، حتى يجيء الله لنا الاسباب فتشتد سواعدنا ونقوى، ويكون لنا من القوّة ما يقيمنا على أقدامنا بغير حاجة الى رعاية او رفادة. فاذا هان هذا الماضي في حساب نفر من الناس فقد هانت عليهم مصر كلها، وأقروا صراحةً انهم اغراب لا نصيب لهم في هـذا البلد، وجاز ان تقوم علينا البينة بفراق هذا الوادي اذا غلبنا عليه غازٍ آخر لهُ من القوة فوق ما لنا

ولعلَّ أصحاب هذه الدعوى ينسون ان حقنا في هذه البلاد مكسوبٌ من انتسابنا الى الفراعين ، وانهُ اذا ثبت اننا لسنا أبناءهم فقد سقط حقنا في المطالبة بهذه البلاد كحق لنا ، وهاهي الخمسون السنة الماضية تؤيد هذا الرأي وتؤكد للمكابر ان حقنا في هذه الارضين انما بدأ يتضح ويعترف بهِ الناس من يوم ان تكشفت الاستار عن مصر القديمة وأهلها . ففي اوائل القرن السابع عشر كان المصري لا يرى نفسه صاحب هذه البلاد ولا أولى الناس بالمقام فيها ، وانما كان قصارى ما يطمع فيهِ ان يسمح لهُ الحكام بالمقام الى جانبهم والعمل في أرضهم والسهر على راحتهم ، وكان هذا اكبر العلل في ضعفهِ وسوء حاله في هذه الايام ، لان استبداد الاتراك والمماليك بالامر من دونهِ لم يكن ليهبط بهِ الى هذا الدرك لو لم يكن هو نفسه موقناً بأنهُ متطفلٌ على موائدهم سائلٌ ما ليس لهُ فيهِ حق . ولو قد عرف انهُ صاحب هذه البلاد وأول من سكنها ، لكان موقفه من المماليك موقف صاحب الحق المهضوم الذي لا ينى مطالباً ملحفاً ، ولا يعدم في يوم من الايام منصفاً يقر لهُ بهِ ولو بمجرد الاقرار . وأولئك هم المؤرخون الاسلاميون بل المصريون ، لا نكاد نلمح في كتاباتهم ما ينم عن الشعور بحق في أرض مصر ، بل لا يكادون يرون انفسهم سواء مع المماليك والاتراك ، وانما هم مساكين يتسترون من المصرية ويتحاشون الاتصاف بها ، خشية ان تضرب عليهم الذلة والمسكنة التي حقت على مصر من يوم مست ارضها خيل عمرو الغازية ، فلما ان نزل الفرنسيون مصر وبدأوا يتأملون آثارها ورسومها ، ويتبينون أنها تتحدث عن ماض مجيد في السياسة والحضارة ، بدأ المصريون يرتفعون في أعينهم ، وبدأ حقهم في هذا البلد يتضح ويتجلى ، ولم يلبث نابليون أن أهاب بهم « وأي شيء في المماليك يميزهم عن غيرهم، ويستوجب ان يتملكوا مصر وحدهم ، فحيثما تكون أرض مخصبة فهي للمماليك ، ومثل ذلك أحسن الجواري وأكرم الخيل وأجمل المنازل ، فان كانت الارض المصرية التزاماً للمماليك ، فليظهروا لنا الحجة التي كتبها الله لهم »(١)

وكان هذا أول البشرى، اذ لاشك أن نفراً من المصريين قد تفطن الى ما وراء هذه الصرخة من معنى عظيم ، فقفزت الحقيقة أمام أعينهم وبدأت تستقر في نفوسهم رويداً رويداً ، وكلما قدم العهد بالفرنسيين في مصر ، كلما تكشفت الاستار عن حجج جديدة وبينات لا يرقى اليها الشك بأن هؤلاء المماليك والاتراك ما هم إلاَّ طغاة مستبدون، وان المصريين الضعاف المساكين هم أصحاب الحق الذي لا ينازعهم فيه أحد إلاَّ بالباطل ، فما هي إلاَّ سنوات حتى تجد الدعوة من أهل مصر أنصاراً ومؤمنين ، وحتى تبدأ فكرة « الاستقلال » تخامر النفوس وتتردد على الألسن ، ويتوافق الناس على الايمان بها ، ولا تكاد بضعة أعوام تنقضي حتى يجتمع نفرٌ من

(١) من منشور نابليون للمصريين

المصريين ويكتبون التماساً يطالبون فيه باستقلال مصر ، وردها إلى اصحابها المصريين

***

وكان الفتح العربي قد أقام حداً سميكاً لا ينفذ منهُ النور بين مصر وماضيها البعيد ، اذ كانت الجنود الاسلامية الاولى قد أقبلت على ما فتحت من البلاد ، في عصر أظلمت فيه الاحوال وبلغت الانسانية فيه من الهوان دركاً سحيقاً ، فما عتم الناس ان توافقوا على الترحيب بها والايمان بما تحمل من عقيدة ، وزادهم إيماناً بها ما كانت عليه أجيال العرب الاولى من الصلاح والاقتدار وحسن السياسة ، فما هو الا قرن من الزمان حتى كان دين العرب وأبطالهم محل اعجاب العالم كله ، وانصرف الناس نحو هذه الوجهة ، واتخذوا منها مادة للحياة ، ومن ثم بدأ يضعف في حسابهم شأن أجدادهم وبلادهم ، فنسي المصريون فراعنتهم ونسي الفرس أكاسرتهم ، وأخذوا ينتسبون بالباطل الى العرب وأبطالهم ، ليكونوا « مواطنين » في الدولة الاسلامية القوية الكبرى ، وأخذ هذا الرأي يتغلغل في نفوسهم حتى اضحى ايماناً لا يكادون يعدلون به غيره ، لا يقلل من تعلقهم به ضعف الدولة الاسلامية وتدهورها ، بل كلما اشتد الضعف بها ، كلما زاد تعلقهم بالجيل الاسلامي الاول ، الذي سمى في احلامهم حتى أصبح مثلاً أعلى يخلب الألباب ويستهوي الافئدة ، وتعددت الاستار والحواجز بينهم وبين مواضيهم ، حتى لم يعد لها وجود حتى في احلامهم ، وزادهم انصرافاً عن هؤلاء الأجداد ، ان الدعوة الاسلامية لم تكف ساخطة عليهم متنقصة اياهم بحجة أنهم كفار عبدة أوثان ، « وليس بعد الكفر ذنب » كما يقولون ، فهان فرعون على أهل مصر ، وهان كسرى على أهل فارس ، وأصبح كلاهما رمزاً للاستبداد والظلم والجبروت

لهذا كان طبيعياً ان يكون يأس الناس من الدولة الاسلامية وشعورهم بانها لم تعد قادرة على حمايتهم ، دافعاً لهم الى البحث عن حمى جديد ، فاذا لم يظفروا به لم يكن لهم بد من الاعتماد على انفسهم . ومن ثم اخذ تألق الاجيال الاسلامية الاولى يخبو في نفوسهم رويداً رويداً ، وبدأوا يتلفتون باحثين عن حضاراتهم القديمة ، فكان هذا بدء لعصر جديد في حياتهم ، عصر اول ما فيه الشعور بالشخصية والاعتماد عليها . بدأ هذا منذ اواخر العصور الوسطى واستمر حتى مطالع العصر الحديث ، حين تكشفت الأستار عن ماضي مصر القديمة . وكان من سعيد المصادفة ان توافق ظهور الدعوتين على زمان واحد : دعوة اليأس من الدولة الاسلامية وضرورة اعتماد المصريين على أنفسهم ، ودعوى الاشادة بمجد مصر وتكشف الأستار عن مجدها ، ولم تبق الا حلقة صغيرة تصل الدعوتين ببعضهما فتستقيم السلسلة ويتضح الحق ويبدأ العصر الجديد

***

على ان هذه الحلقة المفقودة لم تكن قريبة المتناول كما يتبادر الى الذهن من هذا العرض الذي

بسطناه ، كانت مغيبة وراء آكام متراكمة من الزمان والرمال ، وكان الايمان بها يتطلب العمل على اخراجها للنور والتفطن الى ما تضم من معنى وما تحوي من سر عظيم ، اذ كانت آثار مصر القديمة، -- على رغم ما تتحدث به من عظمة -- صامتة صمتاً لا تكاد تنبس عن شيء ، حتى قيض للهيروغليفية بطلها الشاب شامبوليون ، الذي أنفق حياته حتى كشف امرها وحل سرها ، فبدأت البينات تترى والانوار تتوالى والبراهين تترافق على مصر ومجدها ، حتى اصبح الايمان بها علماً قائماً بذاته ، لا دعاية وطنية تقوم على الحماس والاعلان ، وصاحب هذا الوضوح في ماضي مصر واهلها الاقدمين ، ارتفاع لشأن حاضر مصر وأهلها المحدثين ، فكلما كشف العلم والبحث أثراً من آثار مصر المطمورة في رمالها ، كان هذا الكشف وثيقة جديدة تؤيد حق المصريين المحدثين في هذا الوادي ، وتشفع لهم عند أمم الغرب القوية المتجبرة

وكان عسيراً علينا -- نحن المصريين -- ان نساهم في هذا الميدان ، ميدان البحث العلمي عن ماضي مصر ، لانهُ علم خالص له اساليبه ومقوماته ، فأين نحن من العلم بلغة هذه الآثار والمخلفات ، وأين نحن من الفنون الكثيرة التي تحتاج اليها أعمال الحفر والتنقيب ؟ لم يكن لنا بدٌّ من الاكتفاء ، بادىء الرأي ، بأن نتسامع عن مجد مصر القديمة من هؤلاء العلماء الاوروبيين الذين كثر اقبالهم على بلادنا للبحث والتنقيب ، وكانت صلتنا بهذا الماضي -- في أول الأمر -- لا تزيد على صلة الفرنسي أو الانجليزي به . كنا ندرسهُ للعلم به فقط لا نكاد نحس ان بيننا وبينهُ سبباً -- وأين نحن من فرعون وآله -- وأين مصر الحديثة بما تعاني من ألوان الشقاء والمتاعب من هذه المصر القديمة بما لها من مجد سامق وعزّ وارف ؟ ومن ثمَّ اكتفى « العقلاء » منا بمذاكرة هذا الماضي على انهُ علم مقرر في بعض فترات الدراسة لا غنى عن دراسته للفوز في الامتحان ، فاذا انقضت فترة الدراسة فلا معنى لهذا الذكر ولا سبب يربطنا به ، فلندع العلم به لاصحابه يعنون به ويتفنون في الاعجاب به والتأليف فيه ، ويبذلون الاموال في العثور على مخلفات أجدادنا ، وينفقون الايام في دراستها والتفقه فيها ، ومال المتحمسون منا الى الاشادة بعض الشيء بهذا الماضي ، اشادة كنا لا نشك -- فيما بيننا وبين انفسنا -- ان فيها كثيراً من المصانعة والادعاء

على هذه الحال ظلّت العلاقة بيننا وبين مصر القديمة زماناً طويلاً ، كانت مصلحة الآثار ومتحفنا المصري « امتيازاً » للفرنسيين لا نكاد نحفل بالنظر نحوها ، وظلّت الأقصر عشرات السنوات محط أنظار الاوربيين يقصدونها وحدهم للتسري والتفكه والتأمل ، حتى المتحف المصري كان مماداً على الاجانب والسائحين ، لا نكاد نحن ندخلهُ الاّ اذا بلغنا من التعالي في الترف مبلغاً كبيراً ، وكأيّن من رجل منا عاش ومات ولم يزر المتحف المصري ، بل لم يخطر بباله ان يزوره أبداً بل عملت الحكومة على تيسير زيارته لنا وخفضت أجر الدخول ، ومع هذا أبت الطرابيش ان

تخطر في ساحاته، او تحيي فراعنه الامجاد وهم في جلالهم يئسهم طول الانتظار من لقائنا .

وكان أهل الادب منا — بحكم استعمال العربية — منصرفين الى العرب وأدبهم ينفقون الوقت في تحليله ودراسته ، فلا يكادون يذكرون مصر القديمة الا لماماً . اذ كانت الثقافة العربية قد غرست في أذهانهم ان فرعون والنمرود صنوان في الشر والبغي . فلما تأذن الله بالكشف عن مجد مصر القديمة وأقبل العلم بالبيّنات على ذلك بدأ الأمر يتبدّل ، وأنشأ الناس يميلون بالحب نحو هذا المجد السامق البعيد . وهذا اسماعيل باشا صبري يريد ان يلوم المصريين على تقصيرهم وهوان أمرهم ، فلا يجد الا فرعون المجيد يسوق الكلام على لسانه ، فيصوّره يائساً من أهل مصر المحدثين ساخطاً بهم يتبرّم منهم ، ويؤكد ان هؤلاء الكسالى ليسوا قومه ولا أعوانه

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني ... اذا ونى يوم تحصيل العلا واني

ولست — إن لم تؤيدني فراعنة ... منكم — بفرعون عالي البأس والشان

لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملاً ... فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

***

ثم كانت الأحداث السياسية دافعاً بالناس الى ذكر مصر القديمة وتأكيد الاسباب بينها وبينهم ، وما من ثورة وطنية في مصر الا انصرف الناس بالغريزة الى التفكير في الماضي القديم ، كأنما أحسّ الناس بالفطرة الهادية ان الأمرين قريب من قريب ، وان الاشادة بعصر القدمة ومجدها لون من الوطنية ، فهذا هو البارودي لسان الثورة العرابية الناطق ، وشاعرها العظيم تلاحظ عنده شيئاً يشبه الميل الى هؤلاء الاجداد والعطف عليهم والتقدير لماضيهم ، فتجده يبكي مصر القديمة وآثارها الاولى وينعي على الذين عدوا على هذه الآثار فسلبوها كثيراً مما بها :

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر ... لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري

بناءآن ردّا صولة الدهر عنهما ... ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر

أقاما على رغم الخطوب ليشهدا ... لبانيهما بين البرية بالفخر

ثم يهيب بسامعه الى الاعجاب بعلوم مصر القديمة ومجدها :

فقم نغترف خمر النهى من جفانها ... ونجني بأيدي الجد ريحانة العمر

فثمّ علوم لم تفتّق كمامها ... وثمّ رموز وحيها غامض السر

ثم يأخذ يرثي معالمها ويحن اليها حنيناً شديداً ويلعن من أساءوا اليها وعبثوا بآثارها ومخلفاتها :

وما ساءني الا صنيع معاشر ألحوا عليها بالخيانة والغدر
أبادوا بها شمل العلوم وشوهوا محاسن كانت زينة البر والبحر

***

ثم أقبلت الحركات الوطنية واستقام في الناس دعاة الحرية والاستقلال ، وأعوزتهم الحوافز التي تثير الهمم والحجج التي تثير في النفوس الحماس وتستفزها للجهاد . . وهنا أبدت الايام ما كان خافياً . . فاذا الخطيب لا يجد الا مصر القديمة يذكر الناس بمجدها ويعيد الى اذهانهم ذكرها . . واذا الشاعر لا يجد غير الهرم وأبي الهول ينظم فيهما قريضه ليستثير العزمات ويوقظ النفوس . . وكم سمعنا في ثمرات الثورة بمصر وماضيها . . وكم تغلغل هذا الايمان في النفوس فنطق به الطفل اللاعب والحدث الناشيء . . واستبان الناس في غير حاجة الى البرهان أن العلاقة بين مصر القديمة والحديثة أمر يتصل أوثق الاتصال بقضية الوطن . وهذا سعد يقول خاطباً المصريين : « أنتم أنبل الوارثين لأعظم المدنيات » وما سعد الا لسان هذه الايام وقلبها الخفاق . . يعبر عن شعور الشعب أصدق تعبير . . وفي خاطبته للمصريين بهذه العبارة معنى لا يكاد يخفى على لبيب . .

وها هم اعلام الفكر في هذه الايام يكاد الاعتراف بمصر القديمة وماضيها ان يكون ايماناً عندهم ، يذكرونها بالتجلة والتقدير والاحترام العميق ، فهذا هو العقاد يقف بباب هيكل ادفو خاشع القلب اجلالا واعظاماً :

دار البطالسة الكرام جلالا زالوا وهذا مجدهم ما زالا
هاك امنحينا من خلودك نفحة فنقول فيك من الخلود مثالا
واستفتحي باب الرموز عدنا بالسحر لفظاً صادقاً وخيالا
إني وقفت لديك أرفع ناظري حذراً وأخفض ناظري اجلالا
لخنيت رأساً في وصيدك ما انحنى من قبل الا للاله تعالى

بلى .. وهذا شوقي يهبط عليه السحر من مصر القديمة ووحيها فلا يلبث ان ينطقه آية من أبلغ آيات فنه وبيانه في قصيدته التي مطلعها :

قفي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

ويفخر بملوك مصر القديمة ويساويهم بأعظم ملوك الاسلام :

أأم المالكين بني أمون ليهنك انهم نزعوا أمونا
ولدت له المآمين الدواهي ولم تلدي له قط الامينا

ثم يؤكد ان مصر اصل الحضارات :

مشت بمنارهم في الارض روما ومن أنوارهم قبست أثينا

ثم يدعو الصحب الى الحج الى آثار مصر القديمة ، والخشوع ببابها والاعتراف بماضيها في أبيات من أصدق وأجمل ما جادت به عبقريته :

خليلي اهبطا الوادي وميلا الى غرف الشموس الغاربينا
وسيرا في محاجرهم رويداً وطوفا بالمضاجع خاشعينا
وخصا بالعمار وبالتحايا رفاق المجد من تو تنخمينا
وقبراً كاد من حسن وطيب يضيء حجارة ويضوع طينا

الى آخر هذه القصيدة العامرة بالآيات البينات عن مصر ومجدها وماضيها والفخر بها والاعتراف بفضلها علينا وعلى الدنيا كلها

***

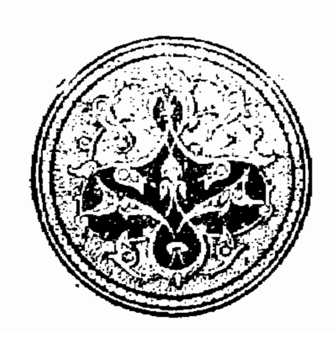
ولكن ذلك لم يكن كافياً ، اذ لا زالت صلة المصريين باجدادهم غامضة لا تقوم على اقتناع ثابت دقيق ، يشك فيها البعض ويستهين بها البعض الآخر ، وعلة ذلك ان مجد مصر القديم ليس سهلاً مباحاً لكل من أحب الاتصال به ومعرفته ، انهُ محجب خلف الرموز وفي باطن الارض وفي اطواء متراكمة من الاسرار والادهار، التي لا يصل اليها الانسان الا عن سبيل العلم والدراسة ، وأين للمصريين العلم بهذه الآثار وطلاسمها وعن البحث عنها ، وقد سار الاوربيون فيه شوطاً بعيداً ، وتوفروا على درسه توفراً انتهى به الى ان يكون سلسلة طويلة من العلوم والدراسات كلها صعب ثقيل ، بعضها اللغات الحية والقديمة ، وبعضها العمارة وبعضها الطب ، وبعضها التاريخ والفلك وما الى هذه من العلوم ، أين للمصريين الالمام بهذا كله والانقطاع له والتوفر عليه ؟

هنالك أقبلت جماعة من بني مصر الابرار وعقدوا العزم على رياضة النفس على ما يتطلب بلوغ هذه الغاية من صبر ، واحتمال ما تتكلف من مال ، ومضوا في سبيلهم لا يصدهم أمر ولا تحول عقبة بينهم وبين ما يريدون. وكان الطريق وعراً شديداً ، كان عليهم ان يدرسوا لغات اليوم وعلمهُ وفنهُ ليتصلوا بلغات الامس وعلومه وفنونه ، وكان عليهم ان يكونوا مخلصين في هذه السبيل مستعينين بالصبر الطويل الذي لا ينفد .. وكم كان الجهد شاقاً والطريق صعبة . وكم ليلة تقضت عنهم وهم في غمرات الدرس وأوصاب البحث وآلام الكشف . . وهم مغتربون عن الديار نازحون عن الأهل ، لا يحفزهم غير هذا الحب القوي الذي حفظوهُ لبلادهم ، ولعل منهم من ثارت الحرب وهو في غربته وفصلت بينهُ وبين آله ، فلم يحزن ولم يطر قلبه شعاعاً . ولعل فيهم من تحمل في ذلك من النفقة ما تعاظمهُ وآورثهُ الدين العظيم ، ولعل فيهم من كان يقعد به الجسد الضعيف

او العلة الطارئة عن المضي في هذه السبيل، فلم ينقطع لهُ عزم ولم يتبدَّد لهُ أمل ، وانما مضى في سبيله كريماً عزيزاً

واليوم يتردد ذكر مصر القديمة على كل لسان ويجري مع كل خاطر ، ويستقر حبها في النفوس ويأخذ مكانه في حيث ينبغي ان يأخذه من نفس كل مصري . . وأولئك نحن يجمعنا حب مصر القديمة واعزازها في هذه السلسلة القصيرة من المحاضرات ، وأولئك هم صبية المدارس يتغنون بذلك المجد لا يكادون يعدلون به شيئاً . أأكون مخطئاً اذا قلت ان هذه الفئة الصالحة التي انصرفت الى مصر وتاريخها قد أحيت مصر من جديد ؟ وانهم أولى الناس بالشكر والتقدير من كل فرد في كل زمان ، أجل وها نحن نجني ثمرات ما غرسوا ونسعى لنقيم بناء الغد قويًّا عزيزاً ، ونحن أوثق ما نكون من ان هذا البنيان ثابت على هذه الأُسس القوية التي لا يدركها وهن . .

لقد أثبتوا حقنا في بلادنا ، وجعلوا بيننا وبين المجد سبباً ، ومهدوا بيننا وبين العزة سبيلاً ، ونثروا في طريق الاجيال المقبلة الزهور والرياحين



جيمز هنري برستد

والبحث عن آثار الانسان الاول في مصر

للاستاذ مصطفى عامر
استاذ الجغرافية بكلية الآداب في الجامعة المصرية

فكرة نبيلة تلك التي دعت اليها جماعة البرديّ ، اذ شاءت ان تعيد الحياة ، خلال أسبوع من الزمن ، الى مصر القديمة ، وان تحيي في نفس الوقت ذكرى عالم من اكبر علماء الآثار المصرية وهو الاستاذ جيمس هنري برستد ، الذي وافته المنية قرب نهاية العام الماضي. وما أحوج مصر الى احياء تاريخها القديم ، ففيه صفحات مجد وفخار ، وفيه دروس في الوطنية والعظمة القومية ، مما لا نعرف له مثيلاً في تاريخ اي شعب من الشعوب . ولا ريب ان تخليد ذكرى العلماء الذين ساهموا في ازاحة الستار عن تلك الفترة من تاريخ مصر القومي بعد ان بقيت مدة طويلة سرّاً من الاسرار التي لا يُعرف كنهها ، لمن الامور التي تستحق منا كمصريين كل عناية وكل اهتمام

لذلك كان من دواعي سروري ان دُعيت الى الاشتراك في احياء هذا الاسبوع ، وكان سروري اعظم اذ رأيت الفرصة قد سَنَحَتْ لدفع قسط صغير مما في عنقنا من دين كبير للراحل العظيم الاستاذ برستد فقد أنفق من حياته ، زهاء اربعين سنة ، في البحث والتنقيب عن آثار أجدادنا العظام ، وعكف على بحث نواحي التاريخ الفرعوني ، وكتب فيه ، بحماسة لا نعرفها عند المؤرخين من أبناء البلاد ، وأقام الادلة وجمع الحجج ليظهر فضل مصر ، وفضل المصريين ، على العالم أجمع ، فوادي النيل عنده مهد الحضارة البشرية الاولى ، ومنه انتشرت ، حتى عمّ أثرها في النهاية بلاد الشرق وبلاد الغرب على السواء

وسوف يحاضركم زملائي الافاضل في مظاهر تلك الحضارة العظيمة ومدى انتشارها ، وأما أنا فسأقصر كلمتي على ناحية هامة من نواحي نشاط برستد ، وهي من ناحية ربما كانت غير معروفة تماماً للكثيرين ، وان كان قد خصها في السنوات الاخيرة من حياته بقسط كبير من عنايته

فقد كان برستد من المؤرخين القلائل ذوي الادراك الواسع الذين يدرسون تاريخ المجموعة البشرية كوحدة كاملة غير مجزأة . وقد رأى منذ زمن بعيد ، ان فهم التاريخ الاوربي يرتبط الى حدّ كبير ، بدرس تاريخ الشرق القديم ، وان تاريخ الشرق لا يكون واضحاً تماماً ، الاّ اذا عرفنا أدوار التطور التي مرّ فيها الانسان الاول منذ ظهوره ، في وادي النيل وفي غرب آسيا. ففي تلك الجهات ، قامت من قديم الزمان ، دول لها حضارات ، وعلى حدودها بقيت اوربا الهمجية لمدة ألفي سنة ، دون ان تتأثر بها الاّ من الجهة الجنوبية الشرقية منها ، حيث كان اتصال اليونان بوادي النيل من جهة ، وبساحل الاناضول ، موطن الحيثيين من جهة أخرى . ومن اليونان

انتشرت ثمرة عقول سكان البحر الابيض الى ذلك العالم الاوربي المتأخر ، على انه كان انتشاراً بطيئاً للغاية ، ولم يصل اليه ، الا بعد وقت طويل من بزوغ شمس التاريخ

وقد أصبح التاريخ القديم لاقطار الشرق الادنى ، بعد أن تمكن العلماء من حل رموز اللغة الهيروغليفية واللغة المسمارية ، حلقة عظيمة الاهمية ، من حلقات التاريخ البشري العام . فمنه تنتهي الأدوار ، المختلفة التي مر فيها الانسان خلال عصر ما قبل التاريخ ، ومنهُ تبدأ الحوادث العظيمة التي انتهت بظهور الحضارة الاوربية الحديثة

عرف برستد كل هذا وقدّر ما لتاريخ مصر وجيرانها من قيمة علمية لا تقدّر ، وعرف أن بحثاً شاملاً لتاريخ تلك الاقطار يتطلب مجهودَ جماعة ، لا مجهود فرد ، وتمكّن في النهاية ، على الرغم مما أحاط بهِ من صعوبات ، من انشاء هيئة علمية ، تقوم بتنظيم نواحي الدراسة المختلفة وتعمل على إنقاذ تراث الشرق القديم من الضياع والاندثار . هذه هي الامنية ، التي طالما كانت حلماً من أحلامهِ ، تحققت في سنة ١٩١٩ ، اذ تمّ تأسيس «المعهد الشرقي» (Oriental Institute) بجامعة شيكاجو ، بمعونة مستر روكفلر الصغير . وقد وضع برستد برنامجاً جامعاً للمعهد ، وجعل لهُ اغراضاً ثلاثة :

(١) انشاء البعثات الاثرية للبحث عن الآثار من الجهات الهامة في الشرق الادنى ، وهي الجهات التي قامت فيها الحضارات القديمة

(٢) جمع المعلومات من كل تلك الجهات على ان تشمل النواحي الجنسية والثقافية والانثربوجغرافية (الجغرافية البشرية)

(٣) درس تلك المعلومات في المركز الرئيسي للمعهد ، وتحليلها وربط بعضها ببعض ، حتى تكون الصورة النهائية للنشاط البشري في تلك الجهات كاملة لا نقص فيها

وقد جهّز برستد هذا المعهد بكل ما يمكن ان يكون لدى معهد علمي حديث من معدات للبحث والدرس ، وأنشأ لهُ فروعاً في الاماكن الاثرية الهامة في الشرق الادنى ، وجذب اليهِ عدداً كبيراً من الباحثين والاخصائيين من كل أمة ومن كل قطر ، حتى أصبح لدى المعهد عدد كبير من اصحاب الكفايات في كل علم من العلوم التي تتصل بدراسة آثار الشرق وتاريخه ، كاللغات الشرقية القديمة ، والانثربولوجيا ، والنبات ، والحيوان ، والجيولوجيا والجغرافيا البشرية

وكان طبيعياً إن يشمل هذا البرنامج الواسع ، دراسة عصر ما قبل التاريخ في مصر وفي غرب آسيا ، على النمط العلمي الذي دُرست بهِ آثار ذلك العصر في اوربا . على ان ذلك لم يأت الاّ بعد سبع سنوات من تاريخ انشاء المعهد ، عكف برستد في أثنائها على تنظيم تلك الناحية الجديدة من نواحي البحث ، وأنشأ لها هيئة خاصة بدأت عملها في مصر في شتاء سنة ١٩٢٦ —

سنة ١٩٢٧ . وقد حدد اغراض تلك الهيئة بجمع كل انواع الأدلة الخاصة بمراحل تقدم الانسان خلال العصور الحجرية ، مع بحث الظروف الطبيعية المرتبطة بظهور الانسان الاول ، ودراسة ما هنالك من علاقة بين آثار الانسان الاول في الشرق الادنى ، وآثاره المعروفة في اوربا

وقد كان واضحاً كل الوضوح منذ البداية ، أن مثل تلك الدراسة ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدراسة الاحوال الجيولوجية والمناخية في زمن البليوسين وزمن البليوستوسين ، وان فحص الأدلة الكثيرة يحتاج الى اخصائيين في الجيولوجيا الحديثة وفي التكوينات السطحية المتأخرة ، على ان يكون هؤلاء في نفس الوقت من ذوي الخبرة بآثار الانسان الاول ومسائله المختلفة . فالبحث كما نرى بحث جيولوجي في بعض نواحيه ، وبحث اركيولوجي في النواحي الاخرى . ويتضح ما لذلك من الشأن الكبير اذا عرفنا ، ان معلوماتنا عن التاريخ الجيولوجي لنهر النيل كانت الى عهد قريب ، ناقصة نقصاً كبيراً ، حتى في بعض المسائل الهامة كطريقة تكوين الوادي . أما الآن فقد اصبح الجيولوجي يعرف ان الوادي تكوَّن بفعل النحت النهري ، كما يعرف الاركيولوجي ان الانسان ظهر في الوادي في دور معين من الادوار التي مرَّ فيها الوادي في اثناء تكوينه

على ان الابحاث الخارجية بالعصور الحجرية في مصر لم تكن مجهولة تماماً قبل اليوم ، ولكنها لم تكن ابحاثاً منظَّمة ، بل كانت مقصورة على بعض المناطق دون الاخرى ، كما ان الجيولوجيين كانوا يوجّهون كل عنايتهم الى الناحية الاقتصادية من الجيولوجيا ، وهي الناحية التي تعنى بالبحث عن المعادن في مرتفعات البحر الاحمر

لذلك كانت أبحاث المعهد الشرقي فريدة في بابها وكانت نتائجها ذات أهمية علمية كبيرة ، إذ أضافت الكثير الى معلوماتنا ، ووضعت أساساً علميًّا صحيحاً للدراسات التكميلية التي يمكن ان يقوم بها الباحثون في المستقبل . وقد وضع برستد بعثة ما قبل التاريخ تحت اشراف الدكتور ساندفورد (K. S. Sandford) يساعده الدكتور أركل (W. G. Arkell) وهما من الجيولوجيين البريطانيين وأتمّت البعثة عملها بعد ست سنوات من البدء به ، تمكّنت في خلالها من بحث فزيوغرافية النهر والاراضي التي على جانبيه ، المسافة طولها ١٠٠٠ ميل من الشلال الثامن حتى البحر الابيض المتوسط. وقد جمعت في أثناء رحلاتها أدلة كثيرة عن تاريخ الوادي واحوال سكانه منذ ظهور الانسان لأول مرة ، وامتدَّ البحث في منطقة قنا الى داخل الصحراء والى ساحل البحر الاحمر ، حيث وُجدت أدلة جديدة تثبت وجود انسان العصر الحجري القديم

كذلك تمكنت البعثة في عام ١٩٣٢ من فحص منطقة وادي النيل ، بين الشلال الثاني ونهر عطبرة ، وعلى ذلك تكون قد اجتمعت لديها الأدلة المختلفة ، على سكنى الانسان الاول في الوادي من شمال السودان حتى مصر السفلى . ومن تلك الادلة ، ومما جمعهُ الباحثون الكثيرون في

جهات الصحراء المختلفة من آثار ، سوف يمكننا في النهاية تكوين صورة واضحة عن حياة الانسان الاول في الركن الشمالي الشرقي من افريقية

وقد درست البعثة المصاطب التي توجد على جانبي النيل وروافده ، والتي تكونت في الماضي عند ما كان النهر يقوم بنحت مجراه ، في وقت كان نزول المطر اكثر مما هو الآن ، وعرفت ان الانسان ظهر في الوادي بعد زمن طويل منذ ان بدأ النهر في تكوين تلك المصاطب ، بدليل ما تركه عليها من اسلحة صوانية هي في جملتها شبيهة بانواع اسلحة العصر الحجري القديم في اوربا. وقد تتبعت البعثة تلك المصاطب حتى ساحل البحر الابيض ، وعثرت فيها على مقادير كبيرة من الاسلحة ، وتمكنت من تحديد تاريخها وتتبع تطورها ، بفحص التكوينات ودرس الاصداف التي وجدت معها

وليس من شك في ان هذا النوع من الادلة له أهميته العلمية الكبيرة ، وهو يضع دراسة العصر الحجري القديم في وادي النيل على اساس سوف يساعد على حل الكثير من المسائل الخاصة بثقافات الانسان الاول في مصر . واذا كانت الدراسة الطباقية للاسلحة ، معروفة من قبل في بعض جهات مصر ، كدراسة Pitt Rivers في وادي الملوك ، و Vignard في كوم امبو و Bovier-Lapierre في سهل العباسية ، الا انها كانت امثلة قليلة ، من اماكن متباعدة ، لا رابطة بينها . واما معظم الاسلحة التي جمعت منذ القرن الماضي ، فقد وجد على سطح الارض الصحراوية ، ولذلك كانت قيمتها العلمية محدودة ، لعدم تحديد تاريخها الجيولوجي. وقد عثر الهواة على الكثير منها ، وقام الاهالي بجمعها والمتاجرة فيها ، وهي ان كانت تساعد على ايضاح شيء ، فهو ان الصحراء كانت في العصر الحجري القديم آهلة بالسكان في معظم جهاتها

وقد أضافت البعثة الى أبحاثها في وادي النيل ، ابحاثاً تكميلية قامت بها في الصحراء الغربية في سنة ١٩٣٢ بالاشتراك مع الجمعية الجغرافية الملكية بلندن . والرحلات في الصحراوات البعيدة تحتاج كما نعلم الى تنظيم خاص ، وهي من أشق الرحلات وأصعبها . وقد زارت البعثة « الواحات الخارجة » وجبل عوينات والفاشر وواحة سليمة ووادي حلفا ، وقطعت منذ قيامها حتى عودتها الى القاهرة حول ٥٠٠٠ ميل ، معظمها في جهات غير مطروقة. وجمعت في اثناء تلك الرحلة ، الكثير من الادلة على سكنى الانسان لتلك الجهات في العصور القديمة ، وذلك على الرغم من انها تخلو من الانسان في الوقت الحاضر ، كما عثرت في الجهة الجنوبية الغربية من الواحات الخارجة على قيعان بحيرات قديمة ، جف ماؤها منذ زمن بعيد ، وقد كان الانسان الاول يعيش على شواطئها كما تدل على ذلك آثاره . تلك هي المرة الاولى التي بحثت فيها الصحراء الواسعة في الجهة الجنوبية الغربية من مصر ، بحثاً اركيولوجياً منظماً

وقد حصلت البعثة من الابحاث التي قامت بها في اقليم الفيوم على نتائج لها خطرها . وهي وان كانت لا تتفق في بعض نواحيها مع النتائج التي وصل اليها بعض الباحثين الآخرين ، الا انها في مجموعها تدل على مجهود كبير لا يمكننا تجاهله . فقد درست البعثة طبوغرافية منخفض الفيوم ، وبحثت في طريقة تكوينه وفي علاقته بوادي النيل ، وحصلت على أدلة كثيرة عن حياة الانسان الاول في هذا الاقليم ، وعن الاحوال المناخية التي كانت تسود قديماً في الصحراء . أما الدراسة الاركيولوجية البحتة، فقد ساعدت على تتبع ثقافات الانسان الاول منذ العصر الحجري القديم الى العصر الحجري الحديث ، عندما ابتكر الانسان صناعة الفخار، وزراعة الارض ، ونجح في استئناس الحيوان واخضاعه لاغراضه . والأدلة التي لدينا عن تلك الفترة الاخيرة الهامة من حياة الانسان ، قليلة للغاية في وادي النيل نفسه ، فقد اخفى الغرين ، الذي يملأ الوادي منذ ذلك العصر ، في جوفه معالم تلك الحضارة ، التي ربما كانت اقدم حضارة زراعية معروفة . ولنذكر هنا ان قطعاً من الشقف ، وأشياء اخرى تدل على وجود هذا الانسان الزارع في الوادي منذ القدم ، حصل عليها المعهد الشرقي من بئر عميقة حفرها في مركزه الجديد في الاقصر ، وبلغ عمقها اكثر من ٨٠ قدم . ومن المحتمل ان يكون هذا الشقف اقدم الانواع التي نعرفها في اية جهة من جهات العالم . اما سكان الوادي في ذلك الوقت فقد سكنوه قبل ان يتراكم فيه الغرين الى حدّ كبير

من هنا كانت اهمية الفيوم في دراسة حياة الانسان في العصر الحجري الحديث ، فقد بقيت آثاره ظاهرة فيها (وفي مرمده من غرب الدلتا) دون ان يغطيها الغرين ، كما حدث في الوادي لان الفيوميين القدماء سكنوا قرب شواطىء بحيرة عظيمة ملأت معظم نواحي المنخفض ، وقد وصل مستوى الماء فيها الى ارتفاع كبير . ومنذ اواخر العصر الحجري القديم اخذت الامطار تقل ومورد الماء ينضب ، وسطح الماء في البحيرة ينخفض . وقد حدث هذا بالتدريج وببطء تدل عليه الشواطىء المتعددة الجافة التي تركتها البحيرة القديمة وراءها بعد انكماشها والتي وجدت بين حصبائها آثار الانسان الاول التي يسهل تتبعها من اواسط العصر الحجري الحديث

وقد أدى هذا البحث الى معرفة الشيء الكثير عن الاحوال المناخية القديمة ، فقد كانت الامطار غزيرة حتى وسط العصر الحجري القديم (الزمن الالموستيري) ، وكان العشب يكسو معظم جهات الصحراء ، والماء يملأ معظم منخفض الفيوم ، غير انه في اواخر ذلك العصر ، اخذ شبح الجفاف يظهر بالتدريج ، ونقصان ماء البحيرة القديمة لأبلغ دليل على ذلك ، فقلّ الماء وشحّ ، وجفّ العشب ويبس ، وأصبحت حياة الصائد في هذا الجزء من قارة افريقية ، صعبة للغاية . وقد اضطر ، بسبب ذلك في النهاية ، الى الالتجاء الى وادي النيل ، كما لجأ اليه الحيوان

الذي يصيده ، وهنا في تلك البقعة المختارة ، توصل الانسان ، بعد كدٍّ وجهد ، الى حل مشكلة الحياة الجديدة ، التي كان الجفاف اهم عامل في ايجادها . فابتكر الزراعة واستأنس الحيوان ، وبنى المسكن ، وعاش عيشة استقرار ، وكوّن الجماعة ونظمها على اساس جديد ، ومهد الطريق امام قيام حضارات ما قبل الاسرات ، وأمام اختراع الكتابة وبدء التاريخ

أما أقدم الادلة على وجود الانسان في مصر ، فقد وجدتها البعثة في الجهة الغربية من وادي النيل ، وبين الفيوم واهرام الجيزة ، اذ عثرت على مجرى ماء قديم ، امكن تتبعه لمسافة ٥٠ ميلا ، وفيه تكوينات عميقة من الحصباء ، تختلط معها الاسلحة الصوانية للانسان الاول ولما كان المعتقد ان هذا المجرى يرجع الى اواخر البليوسين واوائل البليوستوسين ، كانت تلك الاسلحة لأقدم انسان عرفهُ العلم للآن في جهات الشرق الادنى

هذا مجمل للجهود العظيمة التي قام بها المعهد الشرقي ، وعلى رأسه برستد ، للبحث عن السكان الاوّل في وادي النيل . وقد عرفنا هؤلاء في ادوار الوحشية الاولى ، يعيشون على الصيد ، في العصر الحجري القديم ، وتتبعنا حياتهم خلال عصر زاد فيه الجفاف ، وساءت معيشة الحيوان والانسان ، ثم رأيناهم ينتقلون من دور الصيد الى فجر نهضة جديدة ، اساسها زرع الارض واستئناس الحيوان في العصر الحجري الحديث . اما ذروة هذا الانقلاب الخطير ، ونتائج ادخال تلك الأسس الجديدة في نظام الحياة ، فنصها في عصر الدولة القديمة ، وفيما تركتهُ لنا من آثار توضح ما وصل اليه المصري الاول من تقدم في أول دور من أدواره التاريخية .



التراث العلمي لمصر القديمة

للدكتور حسن كمال

مقدمة

(١) — لنهر النيل تأثير كبير في تاريخ العلوم المصرية فضرورة المحافظة على مجراه واستعمال مياهه علمت المصريين هندسة الانهر وما يتبعها من مساحة الاراضي . ولما تفقدوا السماء وجدوا في حركات نجومها واسطة للاستدلال بها على ميعاد فيضان ذلك النهر العظيم . ومن ثم بدأ اهتمامهم بالفلك واتسعت دراستهم له . ولما كان الفيضان اذا طغى على الاراضي محا معالم الحقول تفنن القوم في ابداع المقاييس ومعرفة المساحة . ولما زاد اهتمامهم بالفلاحة أقنع الفراعنة رعاياهم بان المحافظة على الحدود والاملاك الشخصية أمر مقدس تجب مراعاته و يتحتم احترامه . وهذه العوامل بالذات أحدثت نفس النتائج في بلاد بابل . وبديهي ان كل زوال للفيضان كانت تعقبه مشاحنات ومضاربات ومن هنا نشأت ضرورة سن القوانين وتوقيع العقوبات . هكذا أجبر النيل سكان واديه على ان يضعوا لانفسهم أسس العلوم والقوانين والنظم السياسية

ثم بدأ القوم يشيدون العمارات الضخمة لدور الحكومة أو التعبد . فعمدوا الى النيل لينقلوا بواسطته تلك الكتل الضخمة التي شادوا بها آثارهم الباذخة . وبهذه الطريقة وحدها تمكنوا من تشييد الاهرام ونقل الجرانيت من اصوان الى انحاء القطر مثل منف وتنيس الواقعة بالقرب من البحر الابيض المتوسط . وهكذا اصبح النيل الشريان الرئيسي للتجارة الداخلية . ومن ثم برع قدماء المصريين منذ أقدم العصور في صناعة السفن فابتكروا المجاذيف والقلاع و « القمرات » وغير ذلك من وسائل الراحة في السفر

ومساحة الاراضي وكيل المحاصيل وتوزيعها اضطرتهم لمعرفة أصول الحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة . كذلك فن المعمار اجبرهم على معرفة الهندسة الفراغية . والى النيل ايضاً وتطوراته الطبيعية يرجع الفضل في معرفة المصريين لطريقة قياس الزمن . فقد تنبهوا في القرن الثالث والاربعين قبل الميلاد الى ان السنة الشمسية تتكون من ٣٦٥ يوماً . ويعتبر هذا الاكتشاف الهام واستعماله في الشؤون الدنيوية (وأهمها الزراعة وقتئذ) خطوة كبيرة نحو الرقي وشرفاً عظيماً للوطن الذي اكتشف فيه . وقسم المصريون سنتهم الى اثني عشر شهراً وجزأوا كل شهر ثلاثين يوماً حفظاً للنظام وتسهيلاً للمداولات . وهكذا اثبت سكان وادي النيل ان التوقيت شيء عرفي يصطلح عليه القوم

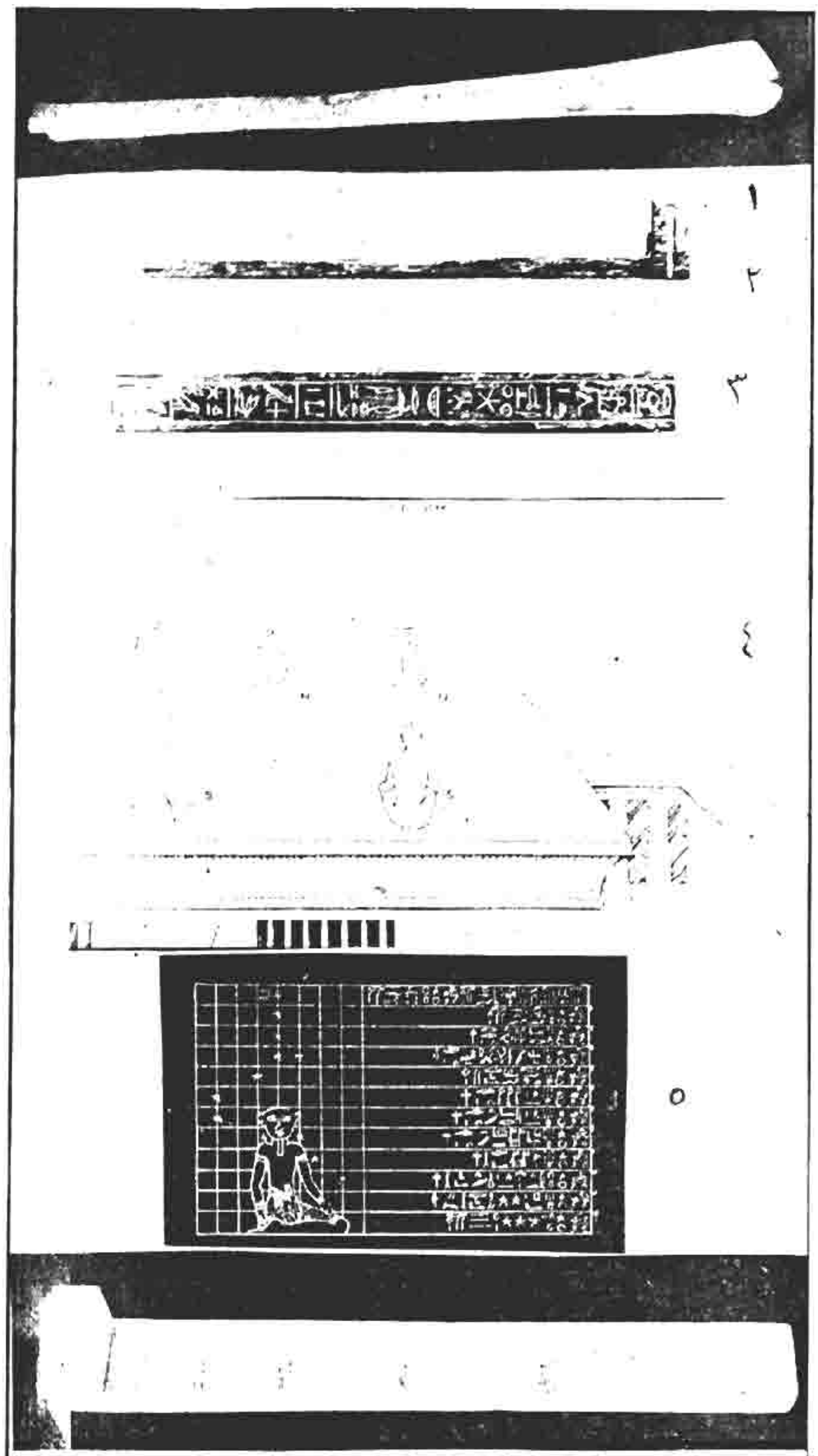
وللزراعة فضل كبير في ابتكار العلوم والفنون في مصر . فالخط الهيرغليفي مكون من عدة رسوم لنباتات وحيوانات واشخاص وادوات زراعية وصناعية ومنزلية وحربية وعلمية وخلافها. لذا وجب التنويه عن تاريخ هذا الخط باختصار. ولا يخفى ان قدماء المصريين استعملوا الكتابة

منذ نحو خمسة آلاف سنة . وان كتاب الاسرة الخامسة الذين اتوا بعد ذلك بألف سنة دوّنوا طائفة كبيرة من اسماء ملوك الوجه البحري وبعض ملوك الوجه القبلي من الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل حكم الأسر كما نسخوا ايضاً عدة نصوص دينية من كتاب الموتى يُرجح انها نُقلت سابقاً مراراً . ومن هذه النصوص استنتجنا معلومات كثيرة عن علومهم الدنيوية والاخروية وقتئذٍ. والخط الهيرغليفي الذي استعمل في الوجه البحري لاجراءات الملك والحكومة والخزانة لم يكتشف فجأة وقت اعتلاء الملك (مينا) كما سبق أن ألمعنا بل كان مستعملاً في مبدأ الاسرة الاولى وهو كما لا يخفى اختزال للخط الهيرغليفي . فلا بدّ اذن ان يكون هذا الاخير قد استعمل قبل عهد الأسر بزمن طويل لكن لم تصل الينا معلومات تاريخية عن مآثر ملوك الوجه البحري والقبلي الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد

وبعد هذه المقدمة الوجيزة واستعراض اساس التراث العلمي لمصر الفرعونية نتناول الوجهات العلمية الهامة على انفراد حسبما يقتضيه المقام والزمان

(٢) — ﴿تقسيم الزمن﴾ يرجع تقسيم الزمن الى اصول فلسفية متعددة . منها ان الانسان منذ نشأته في هذا العالم وشعوره بالوجود وتقدّمه في السن ووفاته وميراثه بدأ يفكر في الوقت ويتكهن بحقيقة الزمن ويشحذ قريحته في خفايا الكون حوله . فوجّه عنايته اولاً الى المكان ومساحة الاراضي وتجزئتها ثم تعدّى ذلك الى الزمن وأجهد قريحته في ايجاد وسيلة لقياس هذا الشيء المعنويّ فوجد ان اسهل وسيلة لذلك هو قياسه بحادث منتظم التكرار وعثر على ضالّته في الليل والنهار . ثم في تغيُّر اوجه القمر ثم في علاقة الشمس بالارض من حيث قربها وبعدها ثم في تغير مواضع النجوم وغير ذلك

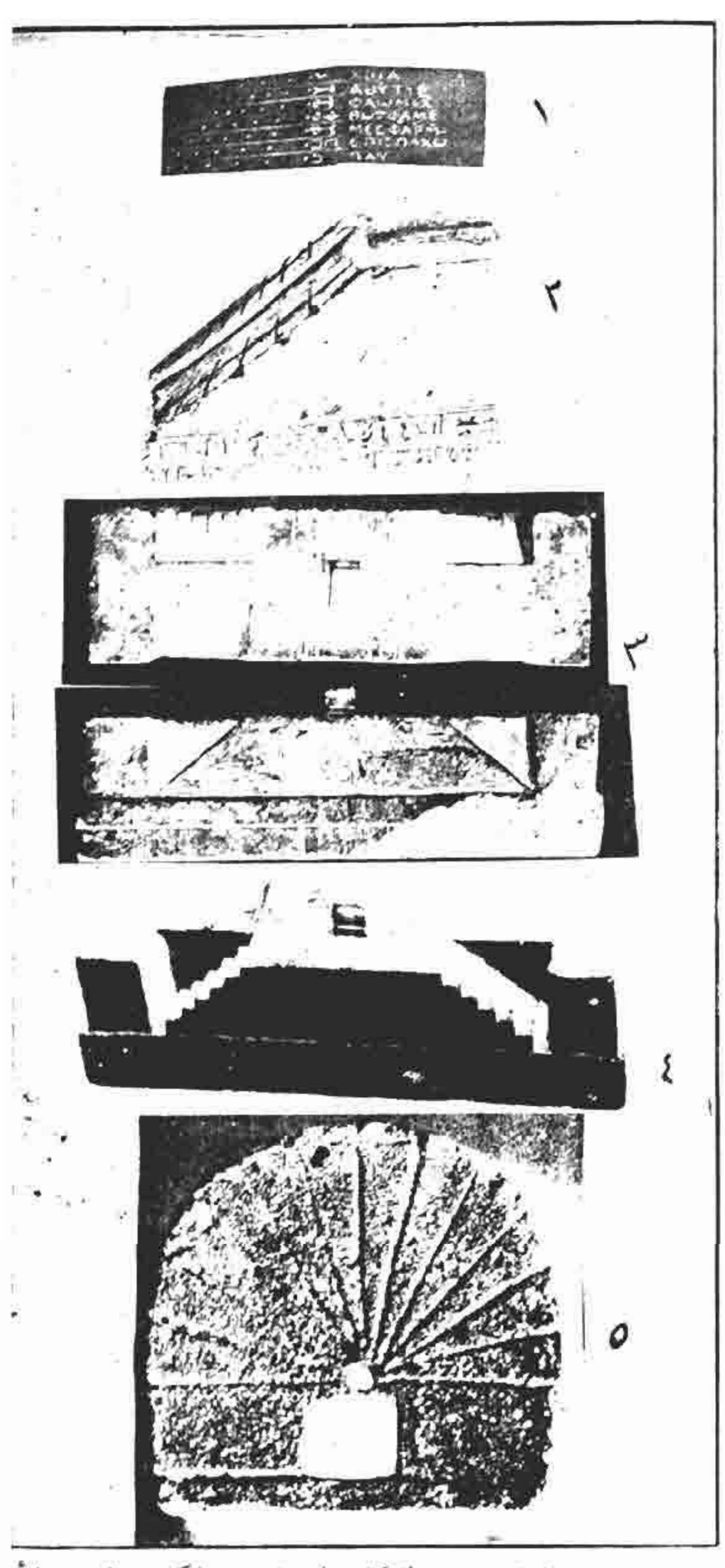
ويرجع كثير من الفضل في معرفة قياس الزمن الى جهود قدماء المصريين واهتمامهم بالكائنات وشغفهم بالفلاحة . ففي سنة ٤٢٤١ ق.م استعمل المصريون السنة الشمسية وحدةً في توقيتهم وقسّموها الى ٣٦٥ يوماً لكنهم لم يتمكنوا من معرفة ان هذا العدد ينقصهُ ربع يوم . اوبعبارة اخرى انهُ يجب اضافة يوم لكل سنةٍ رابعةٍ كي تصير ٣٦٦ يوماً وهي المعروفة عندنا بالسنة الكبيسة. وهذا التقصير في الادراك مكّن المؤرخين كثيراً من معرفة عدة عصور هامة في العهد الفرعوني كانت معرفتها متعذرة من دونه . وهذا الخطأ الصغير يصبح بتكرار السنين سنة شمسية كل ١٤٦٠ سنة . لذلك يتضح انهُ لو ذكرت عصور توافق فيها شروق نجم الشعرى اليمانية مع شروق الشمس أمكننا معرفة تاريخ تلك العصور بالرجوع الى الطرق الفلكية بدقة لا يتعدى خطؤها الاربع سنوات . ويجدر بنا في هذا المقام ان نذكر ان يوليوس قيصر هو اول من ادخل التوقيت المصري في الامبراطورية الرومانية



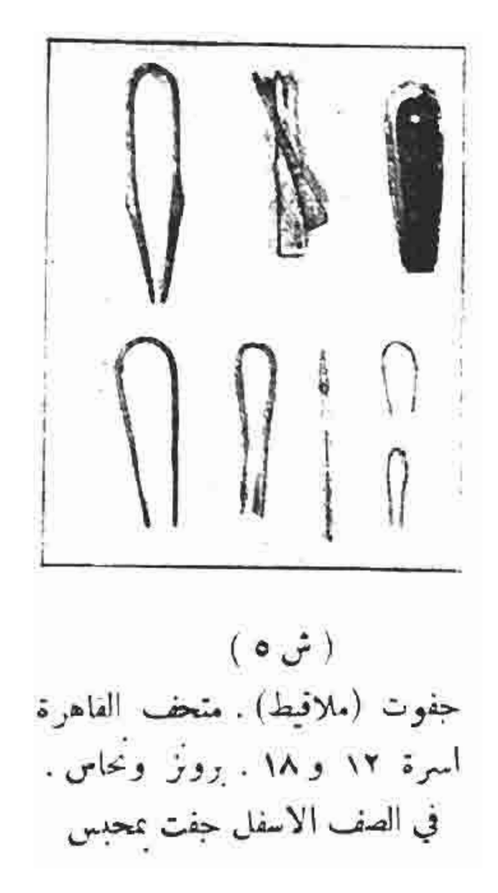
(ش١) رقم ١–٣ آلات رصد النجوم . الاول منظار يقال له (مرخت) . اسرة ٢٨ . برلين . قضيب خشبي من سعف النخل مشقوق في الوسط عند طرفه المستعرض ومنقوش عليه ما معناه «آلة لمعرفة مبدأ العيد وحساب مواعيد اشغال العمال وجعل كل منهم يقوم بعمله في وقته» . والراصد يضع الشق الصغير نصب عينه محرراً اياه تجاه خيط مشدود شداً رأسياً بمثقال ومثبت في نهاية قضيب خشبي آخر محاذياً لخط رأسي فيه . وهذه الآلة الاخيرة هي المرقوم لها بالرقمين ٢ و٣ وعلى قضيبها نص هيروغليفي ترجمته «انا اعلم حركة الشمس والقمر والنجوم كلا بحسب موقعه»

رقم ٤ — يمثل الراصد لما ومعه المنظار وباله زميل له ومعه الآلة الخيطية في طرفي خط متجه شمالاً وجنوباً على سطح احد المعابد . ويعرفون ساعات الليل بتجاوز النجوم للخط الخيطي العمودي او بمركزها مماساً الى القلب والعين اليمنى واليسرى والكتف واجزاء الجسم الباقية في الشخص المقابل للراصد . وتكتب هذه الملاحظات في شكل مقسم الى مربعات صغيرة مرسوم فيها الشخص المساعد للراصد وحوله النجوم كما يتضح للراصد . خذ مثلاً ما جاء ببعض هذه الرسوم «النجم (سارت) يقع اعلا العين اليسرى اما النجم الذي يلي الشعرى اليمانية فيقع اعلا المرفق الايسر . اما نجوم المساء فمركزها على القلب» الاسرة ٢٠

الرسم الاخير الساعة شمسية . طولها ٢٨ سنتمتراً . نوع اول : برلين . قضيب خشبي ينتهي في احد طرفيه بكتلة خشبية . ومدون على القضيب خطوط واسماء الساعات . توضع في خط شرقي — غربي بحيث تكون الكتلة الخشبية في الشرق صباحاً وفي الغرب مساء ، وتعرف الساعة بسقوط ظل الكتلة على تقاسيم القضيب



(ش٢) ١و٢ ساعتا ظل . منحنيتا السطح . ولما كان ظل الصباح المبكر والمساء المتأخر طويلين كثيراً ابتكر القوم في اواخر العهد الفرعوني السطح المائل امام الكتلة . والكتلة في الانموذجين فقدت . والتقاسيم المذكورة على السطح تساعد على معرفة الساعات في اشهر متعددة . (٣ و ٤) ساعة ظل بالمتحف المصري مكونة من ثلاث ساعات (١) كتلة صغيرة في الوسط يسقط ظلها على تقاسيم بجهتيها (ب) كيفية سقوط الظل على الدرجات (ج) سقوط الظل على سطح مائل او منحني . والرسم الاخير لمزولة . براين . عثر عليها بغزة (فلسطين) عهد يوناني تثبت على عمود او سطح وكان مثبتاً في تقويها تركيب يحوي خيطاً ينتهي بثقل هو الذي يسقط ظله على التقاسيم المرسومة
(ص ٢١)



(ش ٥)

جفوت (ملاقيط) . متحف القاهرة

اسرة ١٢ و ١٨ . برونز ونحاس .

في الصف الاسفل جفت بمجبس

(ش ٦)

مشارط برنزية .

متحف القاهرة . حوالي

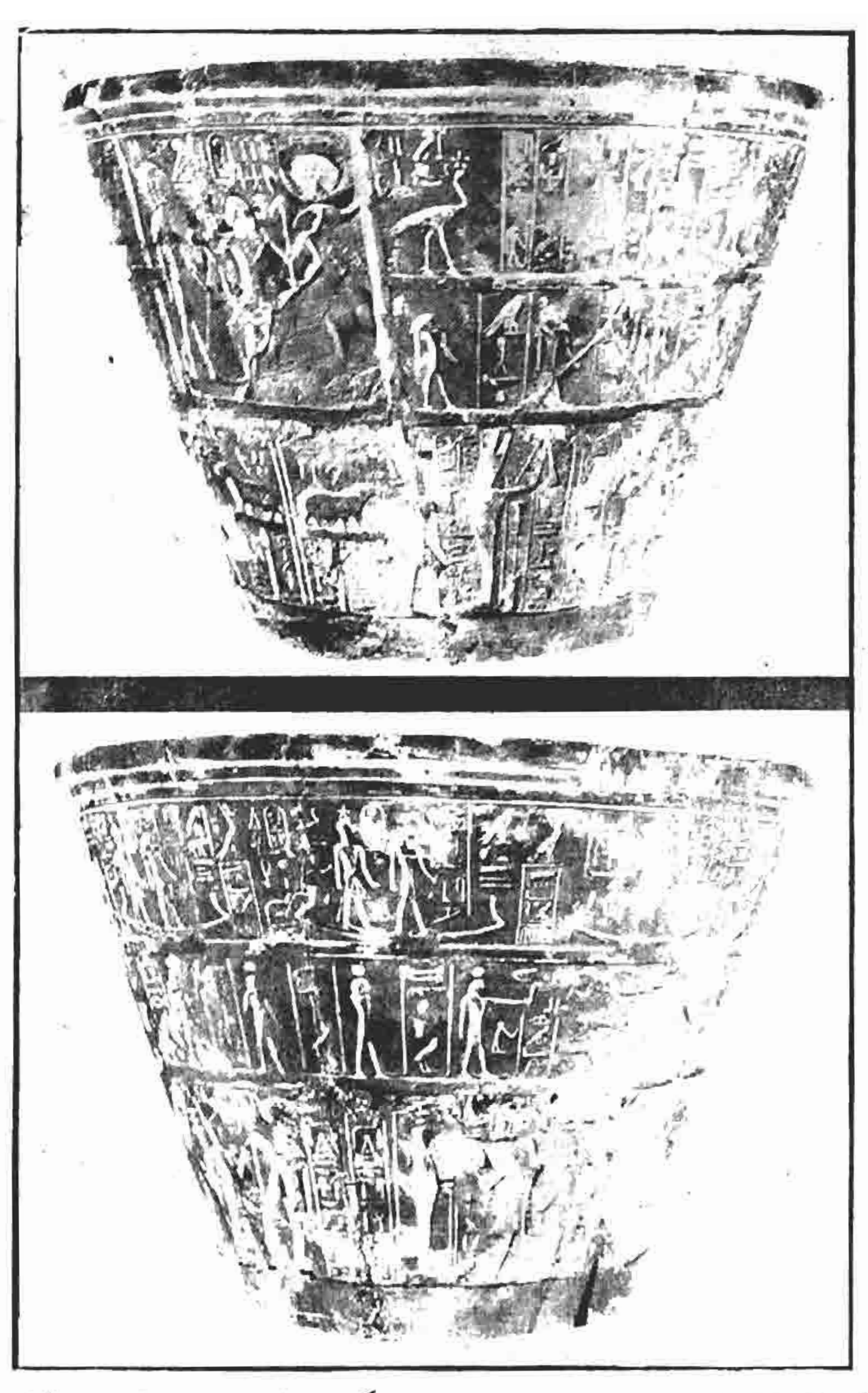
١٥٠٠ ق . م .

(ش ٧)

الدورة الدموية

عن الطبيب نترحوتب (قرطاس

برلين) ٤٠٠٠ ق . م



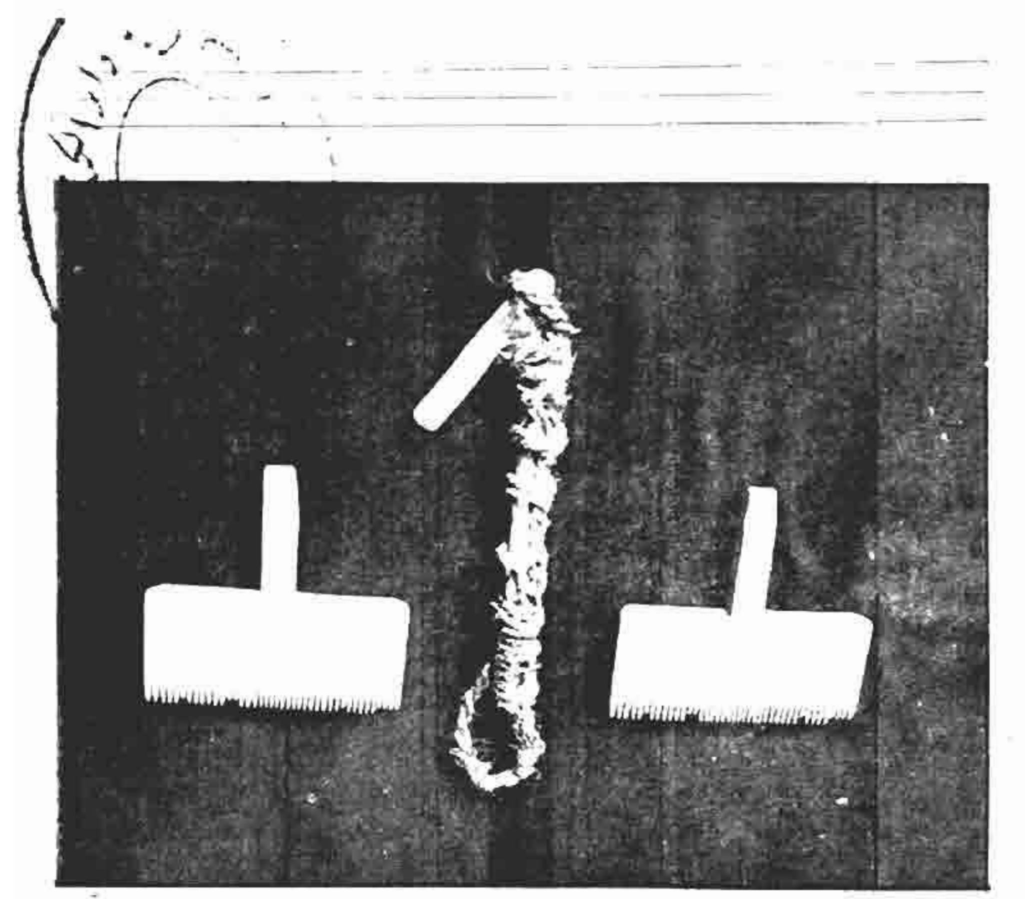
(ش ٣) ساعة مائية. قرن ١٣ ق م. مرمرية. وجد بالكرنك. شكل زهرة يانعة. متحف القاهرة مرسوم عليها من الخارج النجوم والبروج. كان هذا الاناء يملأ ماء الى حافته وبواسطة ثقب صغير في قعره كان الماء يتسرب تدريجاً منه فينخفض سطحه الى تقاسيم الساعات المنقوشة بالداخل

(ص ٢٢)



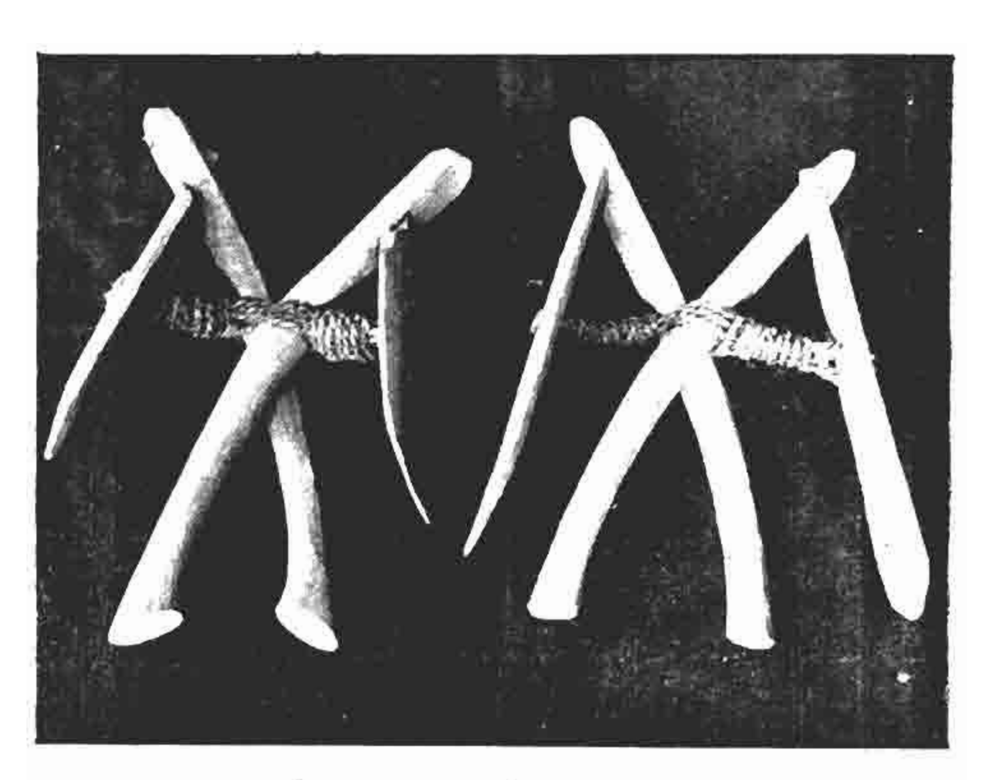
(ش ٨)

رئيس مصلحة المساحة (بنت ان حور) في عهد تحوتمس الرابع قابضاً على المقاس الملكي المطوي بهيئة عجلة

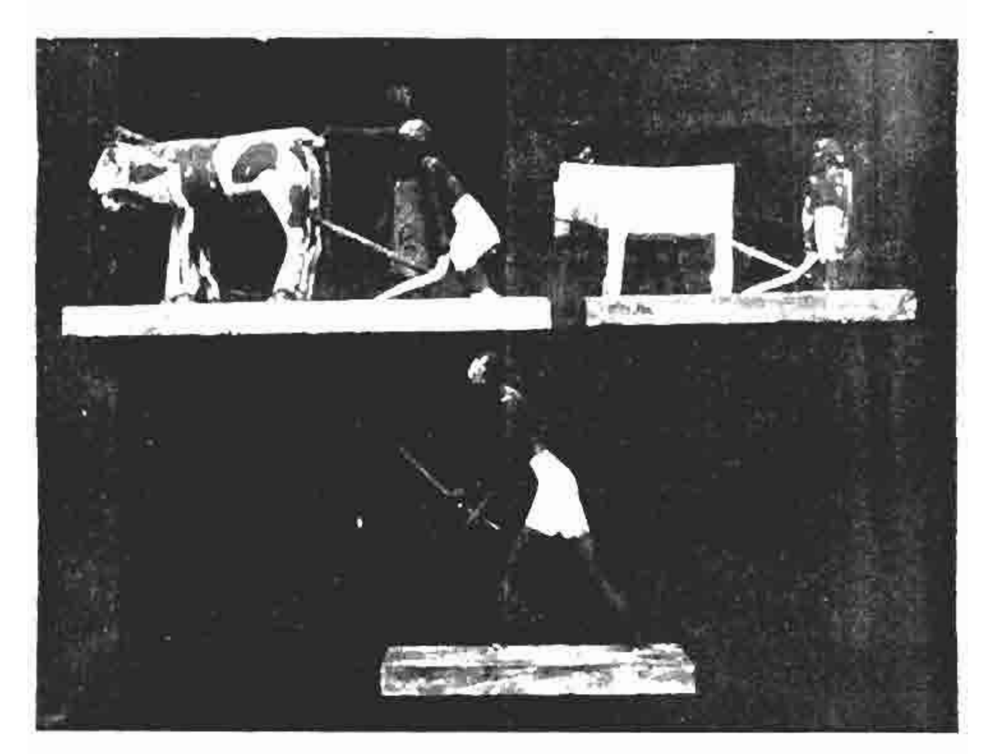


(ش ٩)

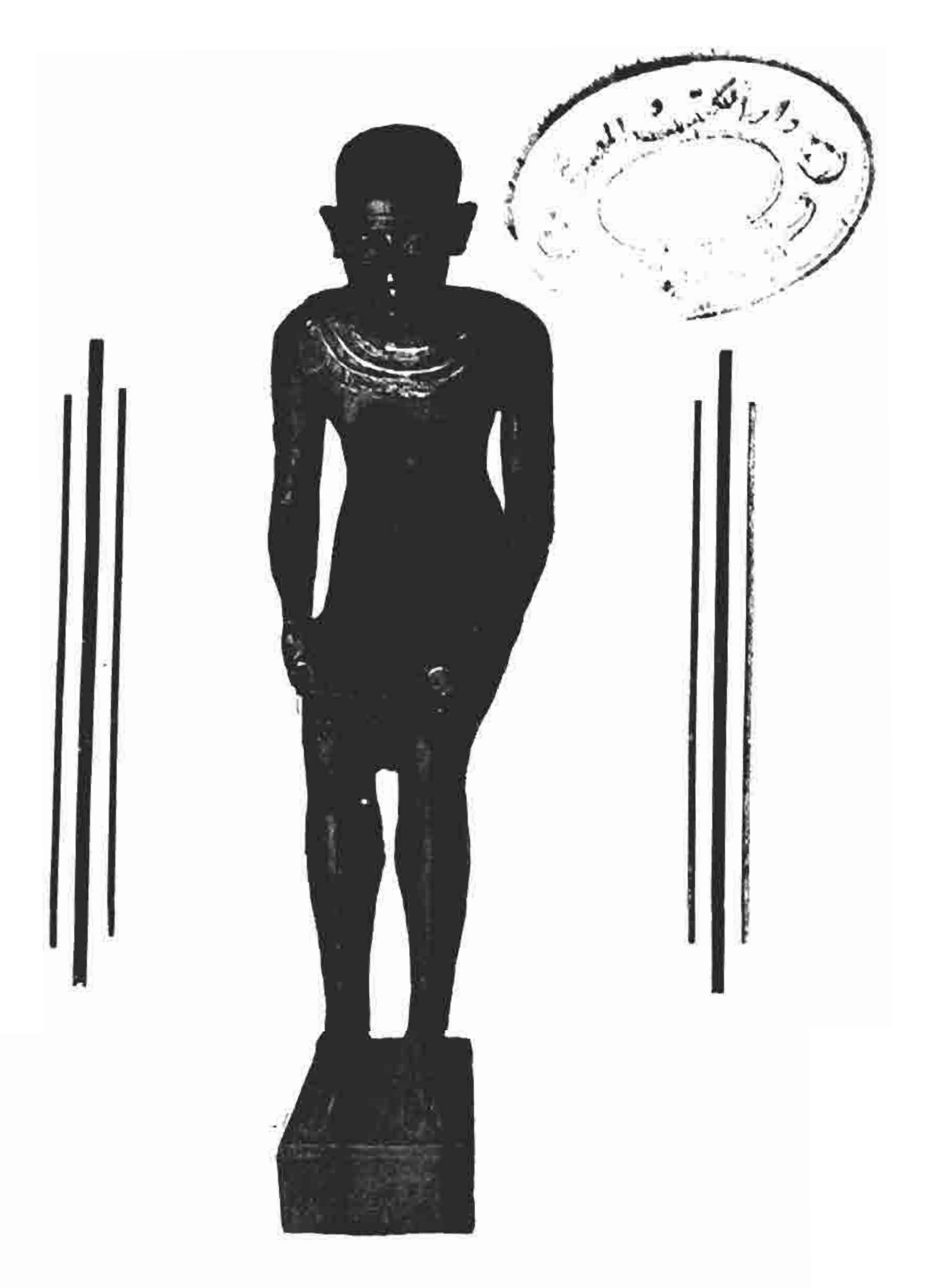
مشطان لفصل خيوط سيقان الكتان . وهلب الشادوف الذي كان يعلق به اناء الماء — دار تحف القاهرة



(ش ١٠) قؤوس خشبية — دار تحف القاهرة — أسلحتها متباينة الطول



(ش ١١) محراثان خشبيان . دار تحف القاهرة . الأيمن خفيف يقوده فلاح . والأيسر ثقيل يضغط عليه فلاح ويقود الأبقار فلاح ثان . أسفلهما فلاح مصري قديم . من مجموعة المرحوم كمال باشا . متحف القاهرة قدماه غائرتان في الطين وقابضاً على فأس مدببة الحد لفلق الأرض الصلبة



(ش ١٢) امحوتب اله الطب عند قدماء المصريين عاش في عصر الاسرة المصرية الثالثة بمنف
وكان الوزير الاكبر للملك زوسر باني الهرم المدرّج بسقارة . وكان كذلك مهندساً معمارياً بارعاً
و. جاء في النصوص القديمة ان هذا الاله هو ابن المعبود بتاح خالق الكون من سخت الاهة الجراحة

والمظنون ان سكان الوجه البحري الاقدمين هم الذين تنبهوا الى ان السنة الشمسية تكوّن من ٣٦٥ يوماً وبدأوا توقيتهم بالسنة المذكورة في الوقت الذي توافق فيه ظهور نجم الشعرى اليمانية في الافق مع الشمس . وللشعرى اليمانية شأنٌ خاصٌ عند المصريين عموماً لان ظهورها عندهم كان يدل على قرب فصل الفيضان النيلي . وعلى ذلك اعتبرت اساساً للتقويم . ولا بدع في ذلك فالنيل هو مصر ومصر هي النيل . ويقال لنجم الشعرى اليمانية بالمصرية القديمة (سبْت) وباليونانية Sothis ويعرف الآن باسم Sirius . ولما كان ظهور هذا النجم يشير الى قرب فيضان النيل وكانت مصر دائماً بلاداً زراعية عمدتها النيل كان لرصد هذا النجم في مرصد منفرشأن عظيم في البلاد كل سنة

واهتمام المصريين بالعلم كان لفائدته العملية فقط . ولم تتق انفسهم الى دراسة اصول الطبيعة والكون الاّ اذا اضطرتهم الضرورة لذلك . وهذا أمرٌ طبيعيٌ فيمن لا يميل الى البحث في الحقائق الغامضة . لذلك لم تتقدم علومهم الاّ فيما يتعلّق بمعيشتهم المتجددة كل يوم وكانت معلوماتهم الفلكية بالرغم من ذلك كثيرة تمكّن اجدادنا بها من توقيت زمنهم بالسنين قبل عهد المملكة القديمة بنحو ١٣٠٠ سنة . وقد رسموا السماء وعرفوا اهم نجومها وابتدعوا آلات تعرفهم أهم مراكز النجوم لكنهم لم يهتموا بالتفكير في اصل هذه النجوم لعدم فائدته في نظرهم . فلم يكلفوا انفسهم مؤونة الاجهاد . ومع ذلك فقد قسموا السماء الى عدة بروج ويكاد يكون مؤكداً أن رسوم النجوم الموضوعة بشكل مناظر منفردة حُليت بها سقوف قبريْ رمسيس السادس (١١٥٧ — ١١٥٢ ق.م.) ورمسيس التاسع . (١١٤٢ — ١١٢٣ ق . م .) كان المقصود بها الاستدلال على معرفة ساعات الليل . ويجدُ الباحث هناك مناظر لمواقع النجوم لكل خمسة عشر يوماً على طول السنة الشمسية . وكلُّ منظر يتلخص في رسم شخص جالسٍ وحوالهُ النجوم الهامة مرسومةً في مواقعها المناسبة . وهذا الشخص يمثل أحد شخصين يجلسان متقابلين على طرفي خطّ مستقيم متجهٍ شمالاً وجنوباً فوق سطح أحد المعابد . وأحد هذين الشخصين يقوم بعملية المراقب لحركات النجوم ومواقعها بالنسبة الى وضع الشخص المقابل لهُ . وبالرجوع الى مواضع هذه النجوم المدوّنة في رسوم مشابهةٍ للمرسومة على سقوف القبرين السالفين يمكن المراقب ان يعرف ساعات الليل وينادي بها ساعةً ساعةً وقت حلولها . وهذه الطريقة لقياس ساعات الليل أشبه كثيراً بطريقة قياس ساعات النهار بواسطة المزاول من حيث عدم الدقّة لأنّ الليل والنهار في اختلافٍ مستمر من حيث الزمن على طول السنة فكأنّ القوم كانوا يستعملون وحدات صغيرة متباينة لتجزئة وحدات كبيرة متغيّرة أيضاً . فينجُم عن ذلك ان تقسيم قدماء المصريين لليل والنهار الى ساعاتٍ متساويةٍ كان تقسيماً نسبيّاً . لذلك بقيتْ معضلة تقسيم الزمن الى ساعاتٍ متساويةٍ بلا حلّ على طول العهد الفرعوني .

وأهم مراصد العهد الفرعوني كان في طيبة (الأقصر) ودندرة ومنف (سقارة) وعين شمس

ولما رأى القوم ان الأشهر القمريه لا يمكن اتخاذها وحدة لتقسيم السنة الشمسية اتفقوا عرفيًا على ان يكون الشهر مكوّناً من ثلاثين يوماً . وان يضاف آخر كلّ اثني عشر شهراً خمسة ايام كي تكمل السنة — ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً . ثم قسموا السنة الى ثلاث فصول هي في الحقيقة زراعية اكثر منها ميقاتية وأطلقوا عليها الأوصاف الآتية « فصل الفيضان » و « فصل البذر » ويوافق فصل الشتاء و « فصل الحصاد » ويوافق فصل الصيف

ولم يستعمل المصريون وحدة اكبر من السنة الشمسية . وعلى ذلك فلم يكن في حسبانهم شيء مثل الجيل والقرن كما هي الحال في عصرنا هذا . اما الاسبوع واستعماله وحدة لقياس الزمن فلم يكن معروفاً البتة في العصور القديمة في العهد الفرعوني . وابتكر المصريون الساعات الشمسية والمزاول لقياس ساعات النهار والساعات المائية لقياس ساعات الليل

وأبسط ساعة شمسية مكوّنة من قضيب خشبيّ ينتهي في أحد طرفيه بكتلة خشبية ومدوّنٌ على القضيب خطوطٌ وأسماء الساعات . وتستعمل هذه الآلة بوضعها في خطّ شرقي وغربي بحيث تكون الكتلة الخشبية في الشرق صباحاً وفي الغرب مساء . وتعرف الساعة بسقوط ظلّ الكتلة على تقاسيم القضيب

اما المزاول فتشير الى تقدّمٍ كبيرٍ في الفكر والواسطة . وهي أسهل استعمالاً اذا وضعت في المواضع الموافقة لها لانها وقتئذٍ يمكن تقسيمها الى تقاسيم متساويةٍ خلافاً للنوع السابق . وأقدم مثالٍ للمزاول هو الذي عثر عليه بمدينة غزة بفلسطين ويحمل اسم فرعون منفتاح ويرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وبمتحف برلين مزولة كانت تثبت على حائطٍ او عمودٍ وكان مثبتٌ فيها تركيبٌ يحوي خيطاً ينتهي بثقلٍ وهذا الخيط هو الذي يسقط ظله على التقاسيم المرسومة ومنهُ يتضح ان ظلّ الخيط يسقط على الخط الأوسط وقت القيلولة . وهذا النوع من الساعات عمّ اوروبا الغربية بسرعة . وأقدم ساعةٍ مائيةٍ يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر ق . م . مصنوعةٌ من المرمر عثر عليها بالكرنك وهي الآن بدار تحف القاهرة وهي عبارة عن اناء كان يملأُ ماء الى حافتهِ وبواسطة ثقبٍ صغيرٍ في قعره كان الماء يتسرّب تدريجاً منهُ فينخفض سطحه الى تقاسيم الساعات المنقوشة بالداخل

(٣) ﴿ الزراعة ﴾ ولع المصريون بالزراعة وفروعها المتباينة حتى جرى ذلك في نفوسهم جريان الدم في الجسد وحصر القوم زراعتهم في حاجاتهم الاقتصادية فقسموا الزمن على الطريقة السابق ذكرها . ثم تغلبوا على صعوبة اختلاف ارتفاع الاراضي بأن قسّموها الى عدة حياضٍ وذلك باقامة الجسور وحفر الترع . ثم فرضوا الضرائب قياساً الى المساحة المزروعة وذلك بمعرفة

الحدّ الاقصى لفيضان النيل السنويّ وتفنّنوا في طرق الري فشادوا خزاناً بالفيوم وذلك في عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م .) وكان هذا الخزان يحجز مقداراً من الماء يكفي لري الدلتا بعد هبوط النيل

اما تقسيم الاراضي فيبدأ به بعد زوال الفيضان وتنقية الحقول من الاعشاب والاحجار المتخلفة من الفيضان النيلي . وكثيراً ما يرسم الفلاح منذ اقدم الأسر قائماً بهذا العمل الجليل الشاق كمقدمة لزراعة الاراضي . والمعروف ان هـذه العناية كانت محصورة بادىء ذي بدء في مساحات تكفي سكان القطر فقط . لكن لما زاد تعداد هؤلاء وبلغ السبعة ملايين نسمة ثم زادت أيضاً صادرات القمح المصري الى بلدان البحر الابيض المتوسط تحتم على اهالي القطر الانتفاع بكل بقعة تحقيقاً لهاتين الغايتين الساميتين وهذا هو سرّ استئصال الغابات في القطر المصري. بعد ذلك يأتي دور شقّ الارض بالفأس وهذا يشاهد في رسوم اثرية متعددة تمثل الفلاحين قابضين على الفؤوس الواحد تلو الآخر . ومنذ مبدأ التاريخ المصري القديم (٣٤٠٠ ق . م .) حتى العهد الصاويّ (٦٦٣ - ٥٢٥ ق . م)كانت الفأس تتركب من قطعتين خشبيتين غير متساويتي الطول وكانت احدى هاتين القطعتين تستعمل يداً وهي مستقيمة وأقصر من القطعة الاخرى المستعملة أداةً للحفر ويختلف طول القطعتين طبعاً باختلاف طول صاحبهما ويلاحظ في الحد انهُ مقوَّس قليلاً وانهُ تارةً مدببٌ واخرى مفرطحٌ وطوراً مفرطحٌ ومشعبٌ في آنٍ واحد. وذلك حسب معدن الارض ودرجـة رطوبتها . والفأس المدبّبة كانت تستعمل في فلق الاراضي الصلبة اما المفرطحة فكانت تستعمل في حفر الاراضي الرطبة وتنظيف الترع

ومن ابتكارات المصريين ايضاً المحراث وهو اصلاً فأسٌ كبيرةٌ وقد نسب المصريون الى معبودهم ازوريس طريقة استعمال المحراث في الفلاحة . ولا يبعد ان المحراث كان يجرّ في بادىء الامر بالعمال دون الثيران لبساطته وخفته وقتئذٍ . اما كيفية اشتقاق المحراث من الفأس فتتلخص فيما يلي : زيد في طول يدا الفأس حتى بلغت الثلاثة امتار تقريباً وصار (نافاً) . واستعيض من الوثائق تدريجاً بوصلاتٍ خشبية في نفس الموضع فنتج عن ذلك ان السلاح صار أقصر كثيراً من الناف وينتهي الناف أماماً بقضيبٍ خشبيٍ مستعرضٍ يثبّت في قرون الثيران بوثاق

ومن اختراع المصريين ايضاً المنجلُ وذلك منذ العهد الحجري وكذا المدراةُ والبلطة والمدية وغير ذلك . اما الشادوف فكثيراً ما يشاهد مرسوماً بالمقابر بقصد توزيع المياه على الحقول المرتفعة التي لاتصلها مياه النيل بسهولة. ويظن البعض ان الشادوف وجد مرسوماً على جدار بمقبرة بمدينة الكاب . وقدر بعضهم مقدار المياه الممكن رفعها بهذه الآلة في الساعة الواحدة بما يتراوح بين ١٦٥٠ و ٣٤٠٠ لتراً

هذا باختصار تاريخ الادوات الزراعية . وهي كما ترون لم تتغير كثيراً عما كانت عليه منذ آلاف السنين . وليس هذا مقام الافاضة في شرحها ولا طريقة استعمالها ولا كيفية انتشارها الى البلدان الاخرى . إنما يكفي ان نذكر هنا ان الاراضي التي كانت تزرع قمحاً مثلاً كان الفلاح يتبع ساعتئذ سلاح المحراث واضعاً الحبوب في مجراه كما هو واضح في قصة الاخوين . من ان « الارض حالما تخلصت من مياه الفيضان اخذ الاخ الاكبر قيادة المحراث وكلف اخاه الاصغر الاسراع في الحضور الى الحقل مصحوباً بالحبوب لبذرها » وتشير هذه القصة ايضاً الى طريقة توزيع اعمال الفلاحة بين افراد العائلة والى الاقتصاد في الحبوب وقت البذر حيث ورد فيها إن الكمية الاولى من الحبوب نفدت فأرسل الاخ الاكبر أخاه الاصغر مرة ثانية الى مخزن الحبوب حيث وجد زوجة اخيه فناداها قائلاً « هيا اسرعي واعطيني الحبوب لأن اخي طلب مني الاسراع في ذلك وقال لي لا تكن كسولاً » فاعتذرت اليه السيدة وقالت « يتعذر عليّ القيام الآن لأنني اسرّح شعري وأخشى ان يتلبك قبل الفراغ منهُ . فاذهب انت وخذ البذور المطلوبة » فدخل الصبي الاهراء وملأ زلعة كبيرة من الحبوب لأنه كان في نيته ذلك . وكانت الحبوب قمحاً وشعيراً . وحملها على كتفيه . فلما همَّ بالخروج بادرتهُ زوجة اخيه سائلة — ما هي كمية الحبوب التي تحملها على كتفك ؟ — فأجابها — ثلاثة مكاييل من الشعير ومكيالان من القمح فيكون الكل خمسة مكاييل . هذا هو ما أحمله على كتفي » ومنهُ يستدل على شدة حرص السيدة في معرفة الكميات المأخوذة من الشونة محافظة على المقادير اللازمة للمنزل

(٣) — ﴿الطب المصري القديم﴾ كان علم الطب منتشراً في القطر بانتظام وعناية وكانت وصفاته تحوي الآلاف من النباتات والعقاقير . وقد ثبتت الآن فائدة بعض هذه العقاقير وعم استعمالها وأضحى بعضها الآن بين العقاقير التي نصفها لمرضانا في تذاكرنا الطبية . والباحث النزيه في الادراج البردية يجد فيها بيانات هي في الحقيقة اساس الطب الحديث . فالقلب فيها معتبر مركز الاوعية . وهذه موصوفة بأنها منتشرة في سائر اجزاء الجسم . وان نبضها دليل عليها . لأن النبض هو كلام القلب الداخلي . هذا التعريف كافٍ لأن يظهر لكم انهُ كان لدى اسلافنا فكرة عن دورة دموية وان كانت غير تامة وعن ماهية النبض وعلاقتهِ بضربات القلب لأن وصفه بأنهُ « كلام القلب الداخلي » دليل قاطع على اتصاله بحركات العضلة القلبية

ويأبى التاريخ المصري ألاَّ يكون مثال العجب . وتأبى المدنية المصرية ألاَّ تكون انموذج العبر . لذلك نجد انهم في الوقت الذي نراهم يتكلمون عن وجود مياه ومواد اخرى بالاوعية يفسرون بعض الامراض بأسباب اقل ما يقال عنها إنها مطابقة لأحدث الآراء عندنا . فانهم يقولون

ان كثيراً من العلل ناجم من مرض الاوعية وعدم قيامها بوظائفها الطبيعية. وان العلاج حينذاك يجب ان يوجه الى تبريد الاوعية او تسكينها او تجديدها او ابطاء دورتها بالعقاقير الخاصة. وهذا من العجب العجاب

واكتشف منذ عشر سنوات تقريباً درج بردي يعرف باسم صاحبه (إدوين سميث) رفع منزلة الطب المصري القديم إلى ذروة المجد والفخار حيث اتضح بعد ترجمة نصوصه انهُ مثال الكتاب الطبي الحديث من حيث ترتيب موادّه التي تبدأ بالرأس اولاً ثم أعضاء الجسم التي تليهِ حتى القدمين واحتوائهِ أيضاً على كثير من أصول الجراحة وبالاخص جراحة العظام والاجزاء السطحية . اما شرح حالاتهِ فعلى غاية من الدقة والنظام . فكاتبه يبدأ بذكر اسم الداء . ثم طريقة فحصه ثم تشخيصه ثم علاجه وانذاره . وهو الاسلوب الذي يدرس الآن في كلياتنا الحديثة . وكثيراً ما يذكر الكاتب اسفل كل حالة ملاحظات تفسيرية تظهر مهارة عجيبة في معرفة المرض وطريقة فحصه والسبب الذي احدثهُ . واغرب من هذا وذاك ان الاساتذة الذين راعهم هذا المستوى الطبي العالي في هذا الدرج استرعت نظرهم عبارة واردة في ظهره خاصة بطريقة إرجاع الشيخ الى صباه . فقال بعضهم هذا دليل قاطع على مزج الطب بالشعوذة . لكن هل محاولة الرجوع الى الشباب ضرب من الشعوذة ؟ ان ابحاث الاستاذ فرنوف كفيلة بالاجابة على هذه التخرصات . وقد خلف لنا المصريون الاقدمون غير هذا القرطاس قراطيس اخرى طبية هامة، مثل قرطاس (ايبرس) و (برلين) و (لندن) وغيرها كما خلّفوا ايضاً النقوش الطبية المتعددة فأثبتوا لنا بذلك طول باعهم في هذا العلم . خذ مثلاً الرسوم الواضحة بمقبرة الطبيب (سما) بسقارة التي توضح عملية الختان والرسوم الاخرى لتجبير العظام . واوضح لنا القوم وجود مرض السل بالعمود الفقري ولين العظام وامراض العظام الاخرى وذلك في صور الاشخاص المنقوشة على جدران المعابد . اما معلوماتهم عن التحنيط فحدّث عنها ولا حرج . فهم اول من اوجد هذه الطريقة واتقنها واستعمل لذلك العقاقير المتباينة والاجراءات الجراحية الفنية المختلفة وقد أخذ الغير عنهم هذه الصناعة حتى انتقلت الى آسيا واميركا . واليهم يرجع الفضل في استعمال العقاقير الكثيرة في العلاج حتى عهدنا هذا . من ذلك زيت الخروع وقشر الرمان والحنظل وكبريتات النحاس والافيون وغير ذلك

(٤) — ﴿الهندسة والحساب﴾ اهم ما عثر عليه من هذين العلمين هو قرطاس رند (Rhind) المحفوظ بمتحف لندن ويرجع تاريخه الى حوالي ١٦٠٠ ق . م . وجميع المسائل التي فيه عملية . وتتطلب معرفة كبيرة في علمي الحساب والهندسة

مثال — ١ — (عملية ٣٩) مطلوب قسمة مائة رغيف على عشرة رجال بحيث يكون نصيب

ستة رجال خمسين رغيفاً ونصيب الاربعة الباقين الخمسين رغيفاً الباقية

تحل هذه المسألة بايجاد العدد الذي يضرب في ٦ كي يصير حاصل الضرب ٥٠ وهو في هذه الحالة ٨ $\frac{1}{3}$ ثم إيجاد العـدد الذي يضرب في ٤ كي يصير حاصل الضرب ٥٠ ويكون ١٢ $\frac{1}{2}$ رغيفاً

مثـال — ٢ — مطلوب معرفة مساحة مثلث ارتفـاعه ١٠ (خت) وقاعدته ٤ (خت) قسم ٤ على ٢ فتكون النتيجة ٢ — وهو طول ضلع المستطيل الذي مساحتـه تساوي مساحة المثلث . اضرب ١٠ (خت) (وهو ارتفاع المثلث) × ٢ فيسـاوي ٢٠ (خت) مربع . وهو المساحة المطلوبة

ولما كان المقام لا يحتمل التفصيل اكتفيت بذكر أبسط مثال حسابي وآخر هندسي مشفوعين بطريقة حلهما . لـكن زيادة في الايضاح سأورد بياناً ببعض الاسئلة التي كانت توضع للطلبة للاجابة عليها للاستئناس بها فقط

(١) ما هو الـكسر الذي يضاف الى $\frac{2}{3}$ + $\frac{1}{15}$ كي يصير المجموع ١ صحيح (عملية ٢١)

(٢) قسم ستة ارغفة على عشرة رجال (عملية ٣) : قسم تسعة ارغفة على عشرة رجال (عملية ٦)

(٣) ماهو العدد الذي اذا اضيف اليه ربعه يكون المجموع ١٥ — الجواب ١٢ (عملية ٢٦)

Eine Gleichung Die Geometrie

Noch weniger aber als in der Arithmetik leisteten die Aegypter merkwürdigerweise in der Geometrie, obwohl sie die Zerstörung so vieler Ackergrenzen durch die Ueberschwemmung alljährlich von neuem vor die gleiche Aufgaben stellte. Allen ihren Flächenberechnungen liegt die des Rechtecks zugrunde, dessen Inhalt sie richtig auf das Produkt der beiden Seiten bestimmt haben 9. Aber sie übersehen dabei seltsamerweise ganz, daß

Abb. 1?? Geometrische Aufgaben aus einem mathematischen Lehrbuch

nicht jedes Viereck, in dem die gegenüberliegenden Seiten gleiche Lange haben, ebenso behandelt werden darf. Und da sie nun jedes Dreieck einem Viereck gleichsetzen, in dem eine Seite identisch ist und die andere die halbe Große hat, so übertragen sie diesen Irrtum auch auf die Berechnung

(ش ٤)

صورة لبعض من قرطاس (رند) الهندسي والحسابي يحوي بعض مسائل هندسية لمستطيل ومثلث وشبه منحرف

(٤) ماهو العدد الذي اذا اضيف اليه نصفهُ وربعهُ يكون المجموع عشرة — الجواب ٥$\frac{5}{7}$ (عملية ٣٤)

(٥) ما حجم المكعب الذي يبلغ طول كل ضلع فيه ١٠ — الجواب ١٠ × ١٠ = ١٠٠ ١٠٠ × ١٠ = ١٠٠٠ (عملية ٤٤)

(٦) هرم طول ضلعه ١٤٠ ذراعاً ونسبة ميله ٥ $\frac{1}{4}$ قبضة فما ارتفاعه؟ الجواب ٩٣ $\frac{1}{3}$ (عملية ٥٧)

(٧) ما مساحة قطعة ارض دائرية قطرها ٩ (خت)؟ (عملية ٥٠)

(٨) هرمٌ طولُ ضلعه ٣٦ ذراعاً . وارتفاعه ٢٥٠ ذراعاً . والمطلوب معرفة نسبة ميله (عملية ٥٦)

(٥) — ﴿ التعاليم الدينية ﴾ ولا بد قبل الفراغ من هذه الكلمة ان نذكر شيئاً عن تعاليم القوم الدينية تاركين لفرصة اخرى الكلام على الشعر والقصص والعلوم الحربية والكيمائية وغيرها

اما التعاليم الدينية فهي اقدم ما عرف من علوم قدماء المصريين . وقد وجدت مدونةً بعدة جهات من اهرام ونوايت وصفائح قبور وادراج بردية وغير ذلك

ولكي اظهر ما تحويه تلك التعاليم من معانٍ سامية وآدابٍ راقية أُوردُ هنا بعض عبارات جاءت في كتاب الموتى يقولها المتوفى امام الآلهة في الآخرة : هذه ترجمتها : —

لم أستعمل القسوة مع انسان . لم أسرق لم أقتل رجلاً او امرأة لم أخسر الميزان لم أرتكب غشاً . لم آخذ لنفسي حاجات الآلهة لم اكذب ولم اهرب الغذاء ولم اتلفظ بألفاظ جارحة ولم اهجم على انسان ولم اقتل الوحوش الخاصة بالمعبودات ولم ارتكب رياء ولم اترك الاراضي الزراعية بوراً . ولم اوقظ فتنة . ولم اغتب احداً . ولم اترك نفسي ضحية الغضب . ولم اتعرض لزوجة بمكروه . ولم ارتكب ذنباً ضد العفة . ولم اسبب رعباً . ولم اتعد حدود الازمنة والامكنة المقدسة ولم أكن غليظ الخلق . ولم أتصنع الصمم وقت سماع الحق والعدل . ولم أشعل نار ثورة . ولم اسبب البكاء لانسان . ولم أرتكب الموبقات . ولم أكن أحمق . ولم أسيء الى انسان . ولم أتبع سبيل الرهبة . ولم أتسرع في اصدار حكم . ولم أنتقم لنفسي من معبود . ولم أزد في كلامي عن الحقيقة . ولم أخن احداً . ولم ألعن ملكاً . ولم ألوث ماء . ولم أتكبر . ولم أشتم معبوداً . ولم أكن سيء الخلق . ولم أسع لترقية ولم أزد في ثروتي الا بالحلال . ولم اقصر في احترام معبود مدينتي

ومنهُ يتضح ان هذه العبارات التي اطلق عليها القوم اسم « الاعتراف السلبيّ » لم تك في الحقيقة سوى تعريفٍ مطولٍ لما نسميه « مكارم الاخلاق »

الى هنا انتهى ما اردت ان أشرحهُ من تراث اجدادنا العلميّ وهو كما ترى فخرٌ لا يجاوزهُ فخرٌ وشرفٌ لا يعلوهُ شرفٌ هو تراثٌ لمدنيةٍ عاليةٍ وآدابٍ سامية وعلومٍ راقيةٍ . هو ظلٌ سرمديٌ لمهدٍ ذهبي لا يزال نجمهُ يتلألأ في سماء العز والجلال . فقد خلَّف لنا اجدادنا من الآثار افخمها ومن المعارف اعرقها . كم تركوا من تعاليمٍ وآدابٍ وفنون وآياتٍ بيِّنات . كم شادوا في شأن الوطن واعلوهُ ورفعوا منزلته وعظموهُ . قال تعالى (كم تركوا من جناتٍ وعيونٍ وزروع ومقامٍ كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين » صدق الله العظيم

رياضيات المصريين القدماء

وأثرها في تقدم العلم والعمران

للدكتور لويس كاربنسكي

استاذ الرياضيات في جامعة متشيغن

نقلها الى العربية قدري حافظ طوقان

لقد سبق لي ان القيت عدة محاضرات في اميركا في تاريخ الرياضيات عند قدماء المصريين[1] وانهُ لما يزيد في سروري ان تتاح لي الفرصة للبحث في هذا الموضوع امام جمهور مثقف كهذا الجمهور الكريم في القاهرة — مركز الثقافة المصرية الحديثة . وأود في هذه المحاضرة ان أوجّه النظر الى شيئين جديرين بالاعتناء : اولهما ان جهود الانسان الفكرية وغير الفكرية تتجه كلها الى غاية واحدة هي المساهمة في خدمة المدنية ورفع مستواها . وثانيهما ان الاشتغال بالعلوم الرياضية والفضل في تقدمها كانا (ولا يزالان) مشاعاً لم ينحصرا في أمة من الامم أو شعب من الشعوب

يميل علماء التاريخ الى نفي وجود أية علاقة او اتصال بين جهود المصريين والبابليين في الرياضيات من جهة وبين نتاج اليونان العجيب في الهندسة وبحوث ارخميدس في الميكانيكا والايدروستاتيكا وبحوث ابولونيوس في المخروطات من جهة أخرى ، وها نحن أولاء نرى أثراً من هذا في مجلة (ايسيس Isis) التي تبحث في تاريخ العلم . فلقد طلعت علينا بمقال يُفهم منهُ ان معرفة المصريين للهندسة بسيطة جداً لم ترتفع عن الهندسة التي يُنتجها الاطفال او المتوحشون وان هذه المعرفة لم يتصل بها علماء اليونان ولم تنتقل اليهم . والذي اراهُ انهُ لا يضير هؤلاء ولا ينقص من قدر مجهوداتهم الفكرية إذا أخذوا عن غيرهم او اعتمدوا على ما تركهُ المصريون والبابليون من المآثر في ميدان العلوم ،وانا نرى لهم اعترافات صريحة واضحة بالاخذ والاعتماد في كتاباتهم ومؤلفاتهم ، أضف الى ذلك أن هذا الاخذ وذاك الاعتماد هما عاملان طبيعيان ولازمان لسير العمران وتقدم المدنية ورفع مستوى التركيب البشري

لقد دلت التحريات الحديثة والمكتشفات الجديدة على ان أقدم الآثار الرياضية التي نعرفها قد وصلت الينا من بابل ومصر وانها انتقلت الى اليونان فأخذوها وزادوا عليها ، ومن هنا نشأ الاتصال بين جهود علماء بابل ومصر واليونان في الرياضيات . وأرجو ان لا يتبادر الى الذهن ان هذه الآثار وما ألقتهُ من ضوء جديد على معلوماتنا في هذه البحوث هي التي دفعتني الى القول بوجود اتصال او ارتباط بين رياضيات الأمم ، وبأن اليونان اعتمدوا في بحوثهم على مآثر من سبقهم . فلقد أبنت منذ عشرين سنة (أي في سنة ١٩١٥) ما دلت عليهِ هذه التحريات الحديثة التي سبق ذكرها فأشرت في ترجمتي لكتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة عن النسخة اللاتينية لروبرت شيستر الى ان المصريين عرفوا النظرية المعروفة باسم نظرية فيثاغورس والى انهم استعملوا هذه النظرية

---

(١) ألقى الاستاذ لويس كاربنسكي — استاذ الرياضيات في جامعة مشيغن — المحاضرة التالية في نادي العلم في الكلية الاميركية بالقاهرة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣٣ . ونقله الكاتب الرياضي الجيد قدري حافظ طوقان

في انشاء المثلثات القائمة الزاوية . وقد قال بهذا ايضاً كانتور (العالم الشهير في تاريخ الرياضيات)
لقد أشرت الى كل هذا بينما الاستاذ اريك بيت E. Eric Peet يقول في كتابه عن مخطوطة (احمس) المنسوخة على ورق البردي ان ليس في هذه (المخطوطة) ما يدل على ان المصريين عرفوا نظرية فيثاغورس . وعلى كل حال فهناك شيئان يدلان على صحة ما ذهبنا اليه من معرفتهم لهذه النظرية : الاول وجود مثلثات قائمة الزاوية بالمعنى الهندسي الدقيق في اشكال الاهرامات ، الثاني وجود المسألة الآتية في مخطوطة قديمة (منسوخة على ورق البردي من كاهون Kahun)

اقسم مربعاً مساحته ١٠٠ إلى مربعاً (وحدة قياس كان يستعملها المصريون القدماء) بحيث يكون ضلع احدهما يساوي $\frac{٣}{٤}$ ضلع الآخر

وقد كان الحل المتبع على هذه الكيفية : $٦^{٢} + ٨^{٢} = ١٠^{٢}$

او العلاقة $٣^{٢} + ٤^{٢} = ٥^{٢}$

اي العلاقة التي تبين خواص المثلث القائم الزاوية الذي أضلاعه ٣ ، ٤ ، ٥ — وعلى هذا الاساس لا أعتقد ان أحداً من المؤرخين يستطيع ان ينكر او ينفي معرفة المصريين لنظرية فيثاغورس . وليس المهم هنا معرفتهم لها ، بل سبقهم اليونان في معرفتها بزمن طويل . ولدينا الآن من الآثار ما يدل على ان البابليين عرفوا هذه النظرية في زمن يرجع عهده الى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

وهم لم يعرفوها فقط بل استعملوها في حساب اطوال الاوتار في الدائرة . وقد ثبت ايضاً انهم تطرقوا الى المبادىء الأولية في علم المثلثات . ومن الغريب ان نجد في مقال بمجلة ايسيس الذي نوّهنا به ان المصريين لم يعرفوا شيئاً عن المثلث المختلف الاضلاع . وهذا خلاف الواقع ، فقد دلت الحقائق التي لا سبيل الى دحضها على انهم عرفوا المثلثات واشباه المنحرف وانهُ كان لديهم معرفة بالاهرامات الناقصة وبقانون حجومها وبنصف الكرة وكيفية ايجاد مساحة سطحها [١] ومسائل اخرى دقيقة تتعلق بالمستطيلات وخواصها . وها هي ذي اهراماتهم وهياكلهم ومسلاتهم وآثار علمائهم الرياضية — دلائل على صحة ما قلنا وذكرناه

انهُ لمن الاجحاف حقاً ان يُنظر الى جهود المصريين في الرياضيات كجهود أمة ابتدائية غير متحضرة ليس فيها ما يدل على تقدم فكري او ارتقاء عقلي على حين تقوم امامنا شواهد كثيرة تنطق بفضلهم ونبوغهم . فهذه اهراماتهم ومبانيهم وما فيها من هندسة بالغة ، وهذه مهارتهم

(١) استعمل المصريون القاعدة التالية لايجاد مساحة الدائرة وقد وردت في مخطوطة (احمس) : لايجاد مساحة الدائرة اضرب سطح المركب المنشأ على نصف القطر في العدد $(\frac{١٦}{٩})^{٢}$ وهذه القاعدة تقرب من القاعدة التي نستعملها اليوم والفرق هو في قيمة ط ، فقد حسب (احمس) ط = ٣٫١٦٠٥ بينما هي ٣٫١٤١٦ (المترجم)

في صناعة الحلي وفي ابتكار الالعاب العقلية وبراعتهم في صناعة النحت وأثر ذلك في صناعة اليونان، وهذه أنظمتهم في النقد وفي الاوزان والقياسات — كل هذه تؤيد القول بأن المصريين قد ضربوا بسهم وافر في الحضارة وقطعوا شوطاً بعيداً في التقدم والرقي ؛ وهناك آثار اخرى غير هذه في مصر وبابل تدل على ارتقاء الفكر وسعة العلم عند سكان هذه البلاد. وان في هذا كله ما يدحض الرأي القائل بأن ليس في مآثرهم ما يدل على تقدم او ارتقاء فضلاً عن ان الاعتبارات النفسية التي تسري على الامم البدائية لا تسري على مصر القديمة من حيث التفكير وتقدم اسباب العمران. لقد وصل المصريون حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد الى درجة عالية في الرياضيات من الناحية التحليلية وكان الفضل في وصولهم الى هذه الدرجة يرجع الى كهنتهم الذين كانوا يجدون في دراسة الرياضيات والبحث في موضوعاتها لذةً ومتعة. ويزعم البعض ان اهتمام المصريين بالرياضيات لم يقتصر الا على الناحية العملية وانهم لم يبلغوا مبلغاً عظيماً في النظري منها. وقد أشار هيرودوتس الى ذلك فقال: ان الحاجة هي التي دعت المصريين الى استنباط طرق لمعرفة مساحات الأرض [١] التي كان يغمرها النيل بفيضانه السنوي وان ذلك قادهم الى الاعتناء بالنواحي العملية التي تتعلق بالهندسة. ولكن من دراسة بعض الآثار المصرية التي وصلت الينا عن طريق المخطوطات الرياضية تبين خطأ هذا الزعم، وهي توضح بجلاء ان الاهتمام لم يقتصر على الناحية العملية فحسب، بل تعداه الى النظري منها. فلقد دلت هذه الآثار على ان المصريين استعملوا معادلات الدرجة الاولى ذات المجهول الواحد [٢] وقد استعملوا في حلها طرقاً ذات خطوات متسلسلة صحيحة. ونجد في هذه الآثار مسائل هندسية تؤدي الى معادلات آنية من الدرجة الثانية كما نجد فيها انواعاً من الأعمال الرياضية تدل على انهم كانوا يعرفون المتواليات العددية والهندسية وكيفية ايجاد مجموع عدة حدود من كل منها وايجاد الوسط العددي بين كميتين معلومتين وفيها ايضاً قوانين لايجاد مساحات وحجوم بعض الاجسام الهندسية، وعلى العموم فان هذه البحوث تدل على تقدم مثير للدهش والاعجاب بالرياضيات عند المصريين وعلى ارتقاء تفكيرهم الرياضي ومقدرتهم على التحليل. ومما لا شكَّ فيه ان المصريين قطعوا شوطاً بعيداً في الرياضيات واستطاعوا بعد ان ارتقت وتقدمت ان يستعملوها في النواحي العملية فبلغوا في فن البناء والعمارة

(١) اشتهر المصريون في علم المساحة العملي فتمكنوا من مد الخطوط المستقيمة الى مسافات شاسعة وتمكنوا ايضاً من تعيين السطوح المستوية تعييناً فيه كل الدقة ويدل على مهارة بلغت الذروة، وذلك لمعرفة الارتفاع والانحدار. ويقول سمث في كتابه تاريخ الرياضيات في ص ٤٣ من الجزء الاول ان مقدار الخطأ في تعيين جوانب الهرم الكبير نحو ٠,٦٣ من البوصة وان الخطأ في تعيين الزوايا لا يزيد على ١٢ ثانية و ١/٢٧٠٠٠ من الزاوية القائمة (٢) كان المصريون يرمزون الى المجهول في المعادلة برمز يدل على كلمة كوم Heap « المترجم »

درجة لم يبلغها غيرهم . ونظرة إلى اهراماتهم ومبانيهم وقبورهم ومسلاتهم تؤيد رأينا وتشهد على صدق ما قلناه . وقد استعملوا الحساب في حلول مسائل حيوية تتعلق بعيشتهم الداخلية كإطعام الطيور وحمل الجعة والخبز وتكاليف صنع الحلي وامور اخرى تهمهم اقتصاديا ، وقد تحاشى علماء اليونان هذه الناحية — ناحية استعمال الرياضيات في الشؤون العملية الى هذه الدرجة — لأنهم كانوا يرون في الرياضيات قداسة تحول دون استعمالها في امور دنيوية مادية

واشتهر المصريون بطرقهم المشوقة في تقريب الرياضيات من اذهان الأطفال وذلك بربطها بأشياء محسوسة وبألعاب مختلفة من شأنها ان تحبب الأطفال اليها في (الرياضيات) وتزيد في شوقهم ورغبتهم وقد أثنى افلاطون على هذه الطرق وامتدح تلك الاساليب وأثرها في تسهيل تعليم العلوم العقلية للأطفال ، وأنا في هذا الوقت اوصي بها وباستعمالها وأهيب بالمعلمين ان يحذو حذو المصريين في هذه الناحية فيستعملوا هذه الطرق ويطبقوها في تدريس الحساب الابتدائي حتى يجعلوا منهُ درساً شيقاً فيه لذة

اسمحوا لي ان اقول شيئاً بخصوص الرياضيات وأثرها في تقدم العلم والحضارة . ان العلوم الرياضية هي نتاج أناس مفكرين وهي ثمرة من ثمار الاعمال الذهنية لا الاعمال الجسدية . وقد نشأت ونمت حينما حاول الانسان أن يتفهم العدد والشكل ، والزمان والمكان ، ويقف على العلاقات الموجودة بين هذه كلها . ولم يتقدم علم الرياضة العملي بل ولم يستطع الانسان ان يستفيد منهُ الا على اساس العلم النظري . لقد عرف الاقدمون (واعني اليونان) شيئاً عن قطوع المخروطات على انواعها من شكل اهليلجي الى قطع مكافىء الى قطع زائد ودرسوا بعض خواصها وبحثوا في خصائصها . ولم يكن الدافع لهذا الدرس والبحث سوى رغبتهم في معرفة منحنيات اخرى (غير الدائرة) التي تتكوّن من تقاطع المخروط الدائري بمستو . وكانت هذه القطوع او المنحنيات موضع اهتمام علماء اليونان امثال مينا كيموس Menaechmus واريستوس Aristaeus واقليدس وأرخميدس وأبولونيوس . ولهذا الاخير فضل كبير في تقدمها واتمام بحوثها . ثم اتى كيلر Kepler واخذ فكرة الشكل الاهليلجي وخواصه واثبت ان مدار الارض اهليلجي الشكل وان الشمس في احد بؤرتي هذا الشكل . لقد اخذ كيلر فكرة الشكل الاهليلجي وتعرف عليه بوساطة علماء العرب الرياضيين الذين اخذوا ما تركهُ من سبقهم من الامم في العلوم والفنون وبعثوا مآثر اليونان . لقد أخذوا ما خلفتهُ الهند من جبر وحساب ومثلثات وأضافوه الى ما خلفهُ علماء اليونان من هندسة وميكانيكيات وفلك . فالى العرب يرجع الفضل في إحياء مآثر اليونان وتعريف اوربا بها . وعلى كل حال فان المقصد من دراسة الرياضيات سواء أكان المشتغلون بها علماء مصر أو بابل أو اليونان أو الهند أو العرب أو أوربا — أقول ان المقصد نبيل وفيه سمو . اذ لم تكن فكرة المنافع والاستغلال المادي هي العامل الرئيسي الاول من دراستها والتعمق فيها

لقد دلت البحوث الاخيرة التي قام بها صديقي الدكتور أوتو نوجيبور Dr. Otto Neugebauer [illegible] في تاريخ الرياضيات على ان هناك اكتشافات وموضوعات جديدة لم تكن منسوبة إلى البابليين ولم يعرف انها من نتاجهم ثم ثبت انها لهم وانها من مآثرهم . ان في هذه المكتشفات وتلك الموضوعات ما يجعلنا نشير بضرورة اعادة دراسة تاريخ تقدم الرياضيات عند اليونان. لقد عرف البابليون شيئاً من معادلات الدرجة الثانية وطرق حلها والذي اراه ان هذا قد يدل على ان هناك حقائق اخرى مهمة تتعلق بالحضارة البابلية من حيث مآثرها في العلوم الرياضية غفل عنها الباحثون وسها عنها المنقبون . ولعلَّ أقدم أثر رياضي وصل الينا هو من بابل عن طريق لوحات خزفية[١] محفوظة في باريس يستدل منها على ان البابليين عرفوا المعادلة التكميلية الآتية : س^{٣}+س^{٢}=٢٥٢ ويقول الدكتور نوجيبور ان في هذه الالواح ما يفهم منهُ ان قوانين ايجاد مجموع مربعات الاعداد ومكعباتها كانت معروفة لدى علماء بابل. الامر الذي نسب الى امم أتت من بعدهم . هذا عدا معرفتهم لنظرية فيثاغورس واستعمالها في علم المثلثات التي تتعلق بحساب اطوال الاوتار في الدائرة ، ونجد ان بطلميوس — احد مشاهير الجغرافيين والرياضيين القدماء — اشار الى تقدم الفلك عند البابليين. فأتى على ذكر عالمين من علمائهم اشتهرا ببحوثهما فيه . والآن ارغب في اعطاء فكرة عن بعض المسائل التي استعملها البابليون وقد أدت حلولها الى معادلات من الدرجة الثانية من هذه المسائل:

ما طول كل ضلع من اضلاع مستطيل اذا كان مجموع مساحته والفرق بين ضلعيه يساوي ١٨٣ ، ومجموع الضلعين يساوي ٢٧ ؟ ؟ والوضع الجبري لهذه المسألة هو :

س ص + س — ص = ١٨٣

س + ص = ٢٧

ومن هاتين المعادلتين ينتج ان : ٢٩ س — س^{٢} = ٢١٠

او : س^{٢} + ٢١٠ = ٢٩ س

اي ان س = ١٤ ، ١٥

، ص = ١٣ ، ١٢ وقد ذكر علماء بابل هذه الحلول

ونجد ايضاً في تلك الالواح مسائل اخرى تتطلب ايجاد ابعاد المستطيل اذا عرفت بعض علاقات بين اضلاعه . ففي بعض هذه المسائل يطلب ايجاد اطوال اضلاع مستطيلات اذا علم مجموع $\frac{1}{2}$ احد الاضلاع و $\frac{1}{3}$ الآخر وعلم ايضاً اشياء اخرى تتعلق بهذه الاضلاع

(١) عثر على هذه الالواح في خرائب بابل وكانت تصنع من الخزف وتطبخ في النار . اما حجمها فقد لا يزيد عن حجم راحة اليد « المترجم »

ان هذه الاعمال الرياضية بالاضافة الى الاعمال التي وضعها قدماء المصريين فيما يتعلق بتقسيم مربع الى مربعين بحيث تكون النسبة بين ضلعيهما تساوي كمية معلومة ، ثم المسائل والاعمال التي في هندسة اقليدس — كل هذه تكون سلسلة متصلة الحلقات في تقدم الرياضيات

وعلى ذكر هندسة اقليدس نقول ان فيها اعمالاً تنص على انه يمكن ايجاد طول كل ضلع من اضلاع مستطيل اذا عرفت مساحته ومجموع ضلعيه وتوضع هذه المسألة جبرياً على الصورة الآتية:

$$س ص = ب^{٢}$$

$$س + ص = ح$$

وكذلك يمكنك معرفة اطوال اضلاع مستطيل اذا عرفت مساحته وفرق ضلعيه :

$$س ص = ب^{٢}$$

$$س - ص = هـ$$

وهنا قد يتبادر الى الذهن السؤال الآتي : لماذا لم يستعمل اقليدس الاعمال الرياضية التي استعملها البابليون ؟ والجواب على هذا ان علماء اليونان لم يستسيغوا جمع المساحات الى الاطوال على الرغم من مخالفة هيرو وذيوفنطس لهذه القاعدة . فقد استعملا طريقة جمع المساحات الى الاطوال ، فنجد ان هيرو قد جمع مساحة الدائرة الى محيطها ومن هنا يظهر الاتصال بين حضارة بابل وحضارة اليونان واضحاً جلياً

وعلى كل حال فقد يكون من المفيد ان نشير الى ان بحوث الجبر نشأت عن اصل هندسي وهذا يتجلى لنا في الاعمال الرياضية التي وضعها العلماء في بابل ومصر واليونان ، وهذه كلها تمهد لنا الطرق التي تمكننا من عرض الموضوعات الرياضية والانتفاع من هذا العرض في مدارسنا الثانوية

ان الرياضيات الحديثة تبدأ بهندسة ديكارت التحليلية التي ظهرت عام ١٦٣٧ وقد تبعتها فروع الرياضيات بسرعة ، فنشأ علم التكامل والتفاضل وما فيه من تطبيقات على مئات من المسائل العملية التي كان لها أثر كبير في رفع مستوى المدنية . ويرجع الاساس في هذا كله الى المبادىء والاعمال الرياضية التي وضعها علماء اليونان والى الطرق المبتكرة التي اتبعها علماء الهند . وقد اخذ العرب هذه المبادىء وتلك الاعمال والطرق ودرسوها وأصلحوا بعضها ثم زادوا عليها زيادات هامة تدل على نضج في افكارهم وخصب في عقولهم . وبعد ذلك اصبح التراث العربي حافزاً لعلماء ايطاليا وفرنسا واسبانيا ثم لبقية بلاد اوربا الى دراسة الرياضيات والاهتمام بها . وأخيراً أتى فيتا Vieta ووضع مبدأ استعمال الرموز في الجبر ، وقد وجد فيه ديكارت ما ساعده على التقدم ببحوثه في الهندسة خطوات واسعة فاصلة ، مهدت السبيل الى تقدم العلوم الرياضية وارتقائها ، تقدماً وارتقاء نشأ عنهما علم الطبيعة الحديث وقامت عليهما مدنيتنا الحالية

تراث مصر اللغوى

اللغة المصرية القديمة

للأستاذ الدكتور جورجى صبحى بك

الكلام في اللغات جاف ودائماً لا يكون شيقاً . وكنت اود ان اتحدث اليكم في موضوع ارق من هذا . ولكن اللغة هي أساس كل شيء . اللغة هي مفتاح كل الآثار . مفتاح التاريخ . مفتاح كل العلوم . لهذا يجب ان تتحمل جفاف المتكلم في هذا الحديث

تاريخ اللغة المصرية عجيب في تاريخ كل لغات العالم . اذ انها دامت اكثر من ستة آلاف سنة . ولا يزال التكلم بها الى الآن حاصل بشكل ما

واول ابتداء اللغة لا يعرف تماماً . ولم يظهر لها أثر الا بعد الأسرة الثالثة . واول كتابة من الأسرة الاولى . لم يترك منها اي علامة والمخلفات الباقية بين ايدينا من الاسرة الاولى الى الأسرة الثالثة قليلة جداً ومتناثرة بحيث لا يمكن الاستدلال على ماهية اللغة منها . ولا يمكننا اذن ان نحكم على اللغة في تلك الفترة

قد ظهرت هذه اللغة على الآثار المصرية التي يرجع تاريخها الى ٤٠٠٠ سنة ق.م . وكتبت على اهرام سقارة سنه ٢٥٠٠ ق.م .

وفي الأسرة الرابعة وجدنا على جدران الاهرامات نصوصاً لغوية يستدل منها على انها لغة مسبوكة لها على الاقل الف سنة . فهل نشأت هذه اللغة في عصر بناة الاهرام فقط ؟ اي انها لغة جديدة ؟ ام هي نفس اللغة التي كانوا يتكلمون بها من قبل ولم يدونوها ولم ينلها شيء كثير من التغيير ؟

ان نقوش الاهرام هي أقدم نقوش اللغة المصرية القديمة . وهي اقدم مجموعة كتابية . تدلنا على ان للغة قواعد مضبوطة

ظلت اللغة كذلك الى ان تغيرت تغيراً بطيئاً في اواخر عصر المملكة الاولى . اي من الأسرة الثامنة الى الأسرة الحادية عشرة

ومن الاسرة الثانية عشرة الى الاسرة الرابعة عشرة تقدمت اللغة حتى بلغت اوجها وما لدينا من مخلفات تثبت لنا ان اللغة في هذه الفترة كانت في عصرها الذهبي . اذ بدأ المصريون يكتبون بها كل الفنون من هندسة وطب ودين وآداب ... الخ . واستمرت كذلك الى ان أتت الأسرة الثامنة عشرة فتبعت اللغة السياسة . ودخلت على اللغة مؤثرات عديدة

في هذه الأسرة اتسعت املاك مصر من بحر قزوين وجزائر البحر الابيض المتوسط . وامتدت الى ما بعد تونس غرباً وشواطىء البحر الاحمر شرقاً . وبدأت اللغة تأخذ وتقتبس من لغات هذه البقاع الأجنبية الشيء الكثير كما هي الحال في اللغات الحية اذا ما امتزجت بلغة اخرى اخذت منها تعبيرات كثيرة جداً يسهل على اصحابها التعبير بها

أضرب لكم مثلاً : لقد دخلت على اللغة العربية تعبيرات عدة . ففي كرة القدم — مثلاً — استعملنا الفاظاً تدل على الاعمال المقصودة منها مثل « فول . جون . باك » الخ

فكل لغة حية اذا اختلطت بلغة اخرى تقتبس كلمات كثيرة منها . ويسهل عليها اقتباس اسماء اصلية . وفي كل تاريخ العالم وتاريخ اللغات يحدث هذا

وفي الاسرات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ — دخل على اللغة المصرية تغييرات عظيمة معظمها سامي ولوبي . واصبح الكاتب الذي لا يدخل تعبيرات اجنبية في كتاباته لا يعد فصيحاً . وبدأت اللغة تتغير . وانتشر التعليم بين كل الطبقات . فظهرت لغة مصرية جديدة (خليط من هذه اللغات) . وقد حفظت الى الآن . وكذلك تغيرت في كتابتها عنها في عهد العائلة المتوسطة . وأصبح كل واحد يتكلم ويكتب لان العلم زاد . وكانت هناك فروق بين لغة الكتب واللغة الدارجة كما نجد خلافاً بين اللغة العربية الفصحى واللغة العربية الدارجة

وفي عهد الاسرة الخامسة والعشرين كثر استعمال اللغة الدارجة بين كل الطبقات . واصبحت اللغة الفصحى هي لغة الدين فقط . وفي سنة ٧٠٠ ق . م . أصبح للغة الدارجة أهمية كبرى وظهرت مرونتها وتركت اللغة الفصيحة بالتدريج للكهنة والكتبة . وتسمى اللغة الدارجة اللغة الديموطيقية

وأول ما كتبت هذه اللغة ظهرت لنا معلومات جميع المصريين من كل طبقاتهم . فكل المصريين كانوا يحبون الكتابة . وفي عام ٣٠٠ ق . م . دخل اليونان مصر فاستصعبوا اللغة الديموطيقية . واجتهدوا في ان يتعلموا اللغة المصرية القديمة ويكتبوها بالرومي ، اي بالحروف اليونانية . وعندما دخلت الديانة المسيحية مصر تسرب الى اللغة المصرية شيء من اللغة اليونانية

في العصر المسيحي اقتبسوا الابجدية اليونانية وأضافوا اليها بعض الاحرف الديموطيقية فنشأ الخط القبطي . وكانت اللغة القبطية هي اللغة الرسمية المتداولة في القرن الثالث للميلاد

دخل العرب مصر ، وبذلك اخذت اللغة العربية تأخذ لها نصيباً وتدخلاً في اللغة المصرية . ولكن هذا التدخل أخذ وقتاً طويلاً . وفي القرن الخامس عشر أخذت اللغة العربية تنتشر في مصر ، اذ أسلم كثير من الأقباط فكانوا مضطرين الى ان يتكلموا لغة نصفها عربي والآخر قبطي . ولكن بقيت اللغة القبطية الى القرن السادس عشر مستعملة في اشغالهم وفي بيوتهم . وحافظ الأقباط على ان يتصلوا بها . واستمرت اللغة بهذا الشكل الى ان ابتدأت تهمل

ذكر في تاريخ القرن السادس للميلاد ان الوليد بن عبد الملك بن مروان أبطل اللغة القبطية من الدوائر الرسمية واستبدل بها اللغة العربية . وفي عام ٩٩٧ ميلادية قام الحاكم بأمر الله بن العزيز من الدولة الفاطمية وأمر بابطالها بالمرة وكان يعاقب من يتكلمها . هذا بالاختصار تاريخ اللغة

منشأ اللغة في مصر

اذا أردنا ان نعرف كيف نشأت اللغة في مصر يجب ان نعرف من هم المصريون

نشأ المصريون في افريقيا في حوض البحر الابيض المتوسط ولم يأتوا من الخارج كما انهم لم يكونوا ساميين بل هم من البرابرة وأقرب الى اللوبيين منهم الى اي جنس آخر

وقد وجد كثير من الجماجم على حوض البحر الاحمر والصحراء الغربية . وجماجمهم لا تختلف عن المصريين . ولكن الجماجم الغربية التي وجدت كانت تختلف عن جماجم المصريين والفرق بين الجماجم المصرية والجماجم السامية ظاهر اذ ان المصريين لوبيون محض ولغتهم نشأت في مصر . وكل كتاباتهم كانت مصرية بحتة حتى علاماتهم وكتاباتهم ورسوماتهم كالشجر وغيره

وبما ان اللغة بدأت في مصر وجب ان نعرف شيئاً عنهم فمثلاً قبل الاسرة الثالثة معروف انه أتت مصر امم من الشمال . وهؤلاء الشماليون اختلطوا بالمصريين وبعد اختلاطهم بهم بدأ الفن واللغة . ويظهر ان هؤلاء هم الذين علموا المصريين الكتابة

لم تكن اللغة المصرية سامية بل بربرية . فالمصريون اولاد عم التونسيين والمغاربة . وقد وجدنا آلاف الجثث مدفونة على شاطىء البحر الاحمر قبل التاريخ بـ ٦٠٠٠ سنة او ٧٠٠٠ سنة ق.م وجماجم البربر والتونسيين لا فرق بينها وبين جماجم المصريين فجماجم المصريين مسحوبة بيضاوية وقد وجدت جماجم كبيرة ومربعة تشبه القوقازية

***

وكتاباتهم مصرية بحتة ، اللغة ابتدأت في مصر قبل تأسيس العائلات الملوكية اذ جاء مصر امم من الشمال . اختلطوا بالمصريين وبعد اختلاطهم ابتدأ عصر بناة الاهرام وابتدأت اللغة تظهر بوضوح

اللغة المصرية اذن لغة افريقية بحتة . وبينها وبين لغة الصومال والجلا في الحبش . ولغة البربر صلة . كما ان بينها وبين اللغات السامية صلة ولكنها ليست قريبة كالصلة بين لغات البربر

وقد اتى زمن اتصلت فيه اللغة المصرية باللغات السامية فأخذت منها : واليكم المثل

الضمائر

عربي	عبري	مصري	قبطي
انا	انوك	انوك	ANOK
«	«	«	«

أسماء الاعداد

عربي	عبري	مصري
واحد	آحد	وَع
اثنين	سنين	سنو
ثمانيه	...	شمين

فبمقارنة الضمائر والاعداد يتضح ان الاحتكاك بين اللغة المصرية واللغة السامية كان كبيراً فاللغة المصرية القديمة هي وحدة مخصوصة لا تتصل باتصال عميق باللغات السامية . ولا تتصل باللغات البربريه الا باتصالات ضعيفة

تأثير اللغة المصرية على كثير من اللغات المجاورة

﴿ في العصر القديم ﴾ اقتبس الاشوريون والبابليون الشيء الكثير من اللغة المصرية القديمة. واليونانيون مكثوا في مصر حول الالف سنة ، من عصر الاسكندر الى دخول العرب . ومن هذا الاحتكاك اقتبس اليونان من اللغة المصرية القديمة تعبيرات مصرية كثيرة . كما اقتبسنا نحن ايضاً منهم كثيراً من تراجم الكتب الدينية . حتى اتبعنا الصرف والنحو المتبع في لغتهم . وكتبنا لغتنا بحروفهم

لما دخل العرب مصر كانوا قلائل . ووجدوا في المراكز الحربية فقط . فلم يتأثروا كثيراً باللغة المصرية التي كانت قد تحولت في مظاهرها الى اللغة اليونانية تقريباً . فاللغة المصرية القديمة لم تمت في جيل او قرن او اثنين . وسبب موتها هو تغيير الدين بلا شك واضطرار المصريين لدرس العربية لحفظ القرآن الكريم وتفهم آياته

بدأت اللغة العربية تتدخل في لغة المصريين ومن هنا تكونت اللغة العربية الدارجة المصرية وظهرت. وهي تختلف عن اللهجات العربية الدارجة في البلدان الاخرى كالمغرب والشام .فالشوام مثلاً يتكلمون لغة عربية دارجة تختلف عن اللغة الدارجة في مصر كذلك في تونس . فالمصريون حتى في نطقهم الحروف العربية لا ينطقونها كالعرب او كالشوام ولكن بنطق مخصوص

وفي مصر تختلف اللغة الدارجة في كل مديرية او اقليم او مركز عنها في مكان آخر . فلو ذهبنا الى الصعيد وتطرقنا لسمعنا كلمات غريبة

فالتأثيرات الجغرافية لها تأثير كبير على اللغة فهي تكوّن اللغة كما تكوّن الاشخاص

فاللغة المصرية القديمة عامل قوي في اللغة العربية الدارجة كالتقاليد المصرية القديمة في الاموات والافراح

في سنة ١٩٣١ كنت في دشنا . نهت . فعثرت على اطفال يلعبون . ووجدت احدهم يقول للآخر « تعالَ من ناو » اي تعالَ من هنا . وهي قبطية بحتة

وبعد مدة وجدت اطفالاً يلعبون كرة قائلين : —

سنو = تنين

كـكو = باخناء

دأو = خمسة . . . الخ

وفي الصعيد أمثلة كثيرة كهذه :

شوطه = وباء

هيضه = مرض الاسهال (الكوليرا)

متلتل = مزكم

خمخم = حمى

جفه = برد

اللهجة العربية الدارجة

اذا قارنا بين اللهجة العربية المصرية واللهجة العربية الشامية أو غيرها من اللهجات المستعملة في البلاد العربية يظهر لنا لاول وهلة ان الاختلاف بينها ليس فقط اختلافاً في طريقة النطق بالكلام واعرابه بل انهُ اختلاف اعظم من ذلك — اختلاف يشمل خاصيات كثيرة حتى في انتخاب المفردات وفي كيفية نطق احرف الهجاء الاصلية وفي التعبيرات النحوية وصيغة معاني الجمل

اننا لا ننكر ان اللهجة العربية الشامية هي أقرب الى اللغة الفصحى منها عن اللهجة العربية المصرية . ومن المفيد المرغوب فيه أن نعرف اسباب ذلك الاختلاف مع علمنا أن تأثير اللغة العربية الاصلية منذ دخولها في البلدين كان ولا يزال واحداً

فلهجة الشامي اذا نطق بالعربية هي المد في آخر الكلمات ووضع نبرة مخصوصة على عجز الكلمة — وكثيراً ما يبدل النون الاخيرة ميما — وهو ينطق بالتاء المربوطة تاء مفتوحة بخلاف المصري الذي إن لم يسقطها تماماً فهو ينطق بها كالهاء والفتحة الاخيرة التي قبل التاء المربوطة يعطيها إمالة مخصوصة مؤكدة مثال ذلك لفظة (كتابة) التي ينطق بها المصري كأنها مكتوبة (كتابه) اما الشامي فيلفظها — كتابت .

ويعطش الشامي حرف الجيم دائماً بخلاف المصري الذي لا يعطشهُ منهُ الاَّ اعالي الوجه القبلي تعطيشاً مختلفاً بالمرة عن تعطيش الشام

أما أهالي القاهرة ومعظم الوجه البحري فينطقونها جيماً جامدة فيقول الشامي مثلا — يا جرجس تعال هون . اما المصري فينطق — يا جرجس تعالَ هنا. ولكن ههنا بالاكثر البحث في اللهجة الدارجة المصرية . فنجد انهُ يوجد اختلاف بين لهجة اهالي الوجه البحري وبين لهجة اهالي الوجه القبلي وبين لهجة الاسكندرية ولهجة دمياط وبين لهجة مديرية الشرقية ومديرية الدقهلية

أما لهجة اهل القاهرة فهي قائمة بذاتها وبما انها لهجة اهل العاصمة فقد استعملت في كل نواحي القطر في النطق باسماء البلاد والاقاليم . ويبتدئ التغيير في اللهجات بمجرد السفر من قبلي القاهرة ويظهر هذا الاختلاف باشده اولاً في بني سويف وما حوالها في بلاد بوش واهناسيا وما جاورها . وينفرد اقليم المنيا بلهجة خاصة بهِ تظهر بوضوح في المنيا وما جاورها وتبتدىء في التغيير في ملوي وتتخصص بلهجة النطق المخصوصة . ولمديرية جرجا لهجة خاصة تتضح في اقليم جرجا وأخميم . ويعقبها لهجة الأقصر لغاية اسنا . وللفيوم ايضاً لهجة خاصة —

ولنبحث الآن في هذه اللهجات بوجهٍ أعمّ . تختص لهجة الاسكندرية باستعمال ضمير جمع المتكلم (نحن) عوضاً عن الضمير المفرد فيقول المتكلم عن نفسه (نحنا) عوضاً عن أنا . ولا يخفى أن أهالي الاسكندرية كانوا ولا يزالون خليطاً من أمم العالم أجمع ويكثر بينهم اليوم الطليان واليونان ولهجة الاسكندرية الدارجة فيها مئات من الكلمات الطليانية واليونانية

ولهجة أهل دمياط وباقي البلاد الواقعة على البحر الصغير لغاية المنصورة تختص بنغمة توقع نبرة على آخر الكلمات يصعب شرحها بالكتابة ولكنها تعرف حالاً بالسماع ولهم في نطق التاء تعطيش مخصوص يجعلها تنطق كما لو تبعها شين منقوطة . وكثيراً ما نطقوا الدال المهملة كالتاء ايضاً

ولهجة أهل مديرية الشرقية تشابه تقريباً باقي الوجه البحري الاَّ ان بعض اهالي الزقازيق ينطقون القاف على صحتها العربية ولكن لهم في حرف الكاف لغة مخصوصة وهي ان يقلبوها شيناً منقوطة فيقولون شاب على كاب

اما لهجة أهل القاهرة فهي أرقى اللهجات من جهة حسن اللفظ ورقته ولها خواص تفصلها عن باقي اللهجات المصرية وقد تكوَّنت هذه التخصصات تحت عوامل مختلفة .وأهم هذه الخواص هي :

اولاً : — استبدال حرف القاف في كل مواضعه بهمزة مقطوعة فيقال (آل) عوضاً عن (قال) و (إرد) عوضاً عن قرد

ثانياً : — لا يعطش أهالي مصر القاهرة الجيم أبداً في كل مواضعها بل ينطقونها جامدة

ثالثاً : — لا توجد نغمات ولا نبرات في لفظ الكلمات كما في الجهات الاخرى

رابعاً : — يوجد معجم مخصوص للغة القاهرة تنتخب فيه الكلمات السهلة اللفظ القليلة الحروف الحلقية السهلة التناول كما انها تحتوي على مئات من كلمات أصلها اوربي ومأخوذة عادة بصيغها في اللغة الايطالية فيقال مثلاً (لمبه) Lampa ولا يقال Lampe و(جاكته) Jacqetta وليس Jacquette أو Jacket و (طاسه) Tassa ولا يقال Tasse الخ

اما لهجات الوجه القبلي فتنقسم الى الجهات الآتية :

(١) لهجة بني سويف وما جاورها (٢) لهجة أهل المنيا وما جاورها

(٣) لهجة أهل جرجا وما جاورها (٤) لهجة أهل الاقصر لغاية اسوان

وأهم خواص اللهجة الاولى هي الترخيم ومد الحركة الاخيرة. والنطق بحرف القاف على الصحيح وعدم تعطيش حرف الجيم . وهذه اللهجة توجد في جهات اهناسيا وبوش والميمون والبهنسا وبني سويف ، مثالها يقولون « قد ايـ (ش) » في بني سويف و (أد إيه) في القاهرة ويلفظون في القاهرة الجملة الآتية :

يا واد يا احمد هات الألّـه وحطها جنبي . ولكنهم في بني سويف يقولون (يا واد ياح «مد» هات القلـ « له » وحطها جـ « بي ») وهكذا يسقط حرف القاف في القاهرة ويستبدل بهمزة قطع ولكنهُ ينطق بهِ كجيم جامدة في كل نواحي الصعيد . وينطق بهِ على الصحصيح في بني سويف وبعض جهات مديرية الشرقية في الوجه البحري

اما حرف الجيم فينطق بهِ جامداً في القاهرة وفي بني سويف والوجه البحري في معظم جهاتهِ. اما في الصعيد من ابتداء المنيا فينطق بهِ معطشاً ولكن بخلاف تعطيشه عند الشوام او عند الاعراب ويقرب في نطقه (gi) اكثر منهُ الى (dj) ويتوقف معرفة هذا الفرق على سماعه

اما في لهجة المنيا وأسيوط فينطقون بحرف القاف جيماً جامدة في كل مواضعه ولكنهم يعطشون الجيم كما سبق ويعطشون حرف الدال المهملة ايضاً في بعض مواضعها وينطقون بها كأنها جيم معطشة خصوصاً اذا وردت في وسط الكلمة ومن امثلة ذلك

قلب	يلفظ بهِ	جلْب
قط	يلفظ بهِ	جط
ادلّـع	يلفظ بهِ	إجلّع
قسطندي	يلفظ بهِ	جسطنجي

وتختص لهجة اهل مديرية جرجا وما جاورها في برديس وبردين او البلينا بإبدال حرف الدال جيماً والجيم دالاً فيقولون : دبل عوضاً عن جبل — ودوّه بدلاً من جوّه ودردس عوضاً عن جرجس ولكنهم يقولون اجلّع عوضاً عن ادلّع

وينطقون بالكلمات الاجنبية في الصعيد بنطق يختلف عنه في القاهرة ويكثر عندهم تقديم بعض الحروف الاخرى لسهولة نطقها — فيلفظون اسبتاليه استبالية ويقولون ايضاً جردة لكلمة درجةولمدة لكلمة لمبة وباجور عوضاً عن وابور او بابور ومنطلون لكلمة بنطلون هذا بخلاف الحركات ، ففي الصعيد والبحيرة يفضلون النطق بالواو المفخمة القريبة من (O) الافرنجية بخلاف اهل مصر الوسطى فيبدلونها بالفتحة الممدودة فيقولون يا بوي في الصعيد ويا بُوي في البحيرة ويا باي في الفيوم وما جاورها وقس على ذلك

ونسأل الآن عن أسباب هذه الاختلافات في لهجات بلد واحد ، وعن العوامل التي أثرت في تكوين هذه الاختلافات التي رغماً عن سهولة المواصلات في ايامنا الحالية واختلاط اهالي كل البلاد والاقاليم بعضهم ببعض لاتزال ظاهرة،وجودة ثابتة عوضاً عن اختفائها ومحوها بالتدريج. ولنا في هذه العوامل والاسباب الآراء الآتية :

اولاً : بالبحث في معجم اللغة العربية الدارجة يدهش الانسان من كثرة عدد الكلمات المصرية القبطية التي لا تزال مستعملة بيننا للآن وهذه الكلمات يكثر عددها في لهجات الصعيد عن لهجة القاهرة أولهجات البحيرة وسنعطى ان شاء الله امثلة كثيرة من هذه الكلمات في مقال آخر

ثانياً : — التعبيرات الجملية وتركيب بعض الجمل المستعملة في الصعيد تشابه كثيراً التعبيرات وتراكيب الجمل في اللغة القبطيةلدرجة انهُ يمكن في بعض الاحوال ترجمة جملة من لهجة الصعيدالى القبطية رأساً بدون أدنى تغيير في مواضع كلماتها وتكون الترجمة صحيحة شكلا ومعنى في القبطية

ثالثاً : — الموافقة الغريبة بين نطق بعض الحروف العربية في الصعيد وما يماثلها في القبطية. مثال ذلك: طريقة نطق حرف الجيم العربي يوافق تماماًطريقة نطقه في الحرف Ϫ (قبطي) الموافق لهُ وهذا النطق يختلف بالمرة عن نطق حرف الجيم في سائر الممالك الاخرى التي تتكلم بالعربية — كذلك النطق بحرف القاف جيماً جامداً هو عين ما حصل عند كتابة اللغة المصرية القديمة بالحروف اليونانية لتكوين اللغة القبطية كما ان التغييرات في الحروف المقفلة والمتحركة في لهجات مصر العربية الحالية هي بعينها نفس التغييرات والاختلافات التي كانت موجودة في اللهجات القبطية القديمة الموافقة جغرافيًّا للجهات العربية الحالية وذلك كمدّ بعض الحركات في الصعيد وتقصيرها في القاهرة وترخيم بعض الحركات في الصعيد وحفظها في القاهرة والبحيرة . ويصعب علينا اعطاء امثلة لضيق المقام . كل هذه الاعتبارات تجعلني اظن أن اللغة القبطية أثرت كثيراً في نطق وخواص اللهجات العربية الدارجة وليس العكس بالعكس اذ مرّ زمن طويل نطقت فيه اللغتان معاً —

وكثيراً ما نجد كلمات قبطية مستعملة للآن ومصحوبة بترجمتها العربية كالمناداة على بيع الجبن مثلاً بقولهم حالوم يا جبنة ، فلفظ حالوم الاول هو اسم الجبنه بالقبطية ولنا على ذلك امثلة متعدّدة

واذا طالعنا بعض الكتب المخطوطة العربية التي كتبها الاقباط، نجد فيها عدداً غير قليل من غلطات النحو العربية ومن قواعد الاعراب كتذكير المؤنث او تأنيث المذكر مثلاً

خذ لفظ الارض التي تعتبر مؤنثة في العربية تستعمل مذكرة في كتب الاقباط العربية وذلك لكونها مذكرة في القبطية وكذلك عن كلمات اخرى

وقدكان حرف k الذي يوافق الهيروغليفي و(ق) العربي يقلب كثيراً الى حرف G =ج جامدة في لهجة الصعيد القبطية كما هو حاصل الآن في العربية

وكثيراً ما قامت الحروف د - ج ، ص — ت مقام بعضها في اللغة المصرية القديمة كما هو حاصل الآن في لهجة المنيا واسيوط والدقهلية

كما ان تغير مواضع الحروف في الكلمة كان كثيراً في اللهجة القبطية الصعيدية كما هو حاصل الآن في لهجة الصعيد العربية . كما ان المد في الحركات وترخيمها في الآخر الحاصل عند اهالي الصعيد كان موجوداً كذلك في اللهجة القبطية الصعيدية، اذ كانوا يكتبون الحرف المتحرك الممدود مرتين في الكلمة الواحدة . كما ان ظاهرة نطق حرف الكاف شيناً في الشرقية، لا بد انه كان موجوداً في القبطية ايضاً وقت دخول العرب اذ يوجد اسماء بلاد تكتب بالمصرية والقبطية بحرف الكاف ولكنها نقلت الى العربية شيناً مثال شبرا وشباس وشبشير وكلها في الوجه البحري

التراث القانونى لمصر القديمة

للدكتور زكى عبد المتعال

مدير قسم الابحاث الاقتصادية بوزارة التجارة والصناعة
الاستاذ بكلية الحقوق سابقاً

مقدمة

كان لمصر فيما مضى نظامها القانونية والقضائية التي تتفق ومدنيتها العظيمة التي بلغتها ، وكانت هذه النظم متأثرة في معظم الاحوال بالطابع الديني ، عدا بعض الاوقات التي كان يضعف فيها نفوذ الكهنة فتأخذ مسحة مدنية

ويرجع ظهور التشريع في مصر الى اكثر من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد عند ما استعملت الكتابة اذ وضع « تحوت » وزير « أوزوريس » القوانين المختلفة وجمعها في سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد . غير أن القوانين تفرقت بعد ذلك اثناء معظم المدة الفرعونية الى أن جاء الملك « بوخوريس » مؤسس الاسرة الرابعة والعشرين (ومدة حكمه من سنة ٧١٨ الى سنة ٧١٢ قبل الميلاد) وجمع شتاتها ، بعد تعديلها ، في مجموعة واحدة نظم بها المعاملات المدنية والاحوال الشخصية وعرفت بمجموعة قوانين بوخوريس « Code Bocchoris » ، وأسماها الاغريق فيما بعد « بقانون العقود » . ونقح أحمس الثاني أو أمازيس أحد ملوك الاسرة السادسة والعشرين (ومدة حكمه من سنة ٥٦٩ الى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد) القوانين المصرية بعدة اصلاحات تشريعية ، غيرت من مجموعة بوخوريس في نصوص كثيرة ، وأصدر بذلك مجموعة قوانين أحمس « Code Amasis » في عام ٥٥٤ قبل الميلاد . ولما تولى الحكم الملك نفيريت (المسمى أمرنوس أو أمرنوت ايضاً) ، مؤسس الاسرة الثامنة والعشرين ، عام ٤٠٥ قبل الميلاد (وقد استمر في الحكم حتى سنة ٣٩٩ قبل الميلاد) أعاد العمل بمجموعة بوخوريس بعد أن كوّن لجنة لتعديلها وتنقيحها . واستمر العمل بهذه المجموعة المعدلة اثناء المدة الباقية من العهد الفرعوني ، كما استمر تطبيقها في العهد البطلمي ، بعد تعديل فيها ، على المصريين دون الاغريق الذين كانت تطبق بشأنهم القوانين الاغريقية ، واستمرت نافذة كذلك بعد الفتح الروماني ، في سنة ٣١ قبل الميلاد ، حتى سنة ٢١٢ ميلادية اذ أصدر الامبراطور كراكلا قانوناً منح به الرعوية الرومانية لسكان الامبراطورية وبذا طبقت في مصر القوانين الرومانية

وقد تبع وجود نظام قانوني على أساس تشريعي ظهور آخر قضائي الى قضاء منظم ومحاكم مرتبة . ولحق هذا النظام القضائي التعديل تبعاً للعصور المختلفة الى ان صدر قانون كراكلا السابق الذكر وأدخل في مصر النظام القضائي الروماني

القسم الاول

النظام القانوني

﴿ قبل مجموعة بوخوريس ﴾ : كانت بالقانون المصري القديم التقسيمات المعروفة في الوقت الحاضر حيث شمل الاموال والالتزامات والعقود والاحوال الشخصية

فقسم القانون القديم الاموال الى عقارية ومنقولة وهذه الى جامدة وحية . وكان للملك ملكية الاموال الموجودة في مصر لكنهُ يمنحها لمن يشاء . واذا نظرنا للملكية العقارية بصفة خاصة وجدنا القاعدة الاساسية فيها ان الملك كان صاحب الحق على كل الاراضي غير انهُ منح حق الاستغلال للاشراف من رجال الدين والجيش محتفظاً بملكية الرقبة ، وكان يعطي للعامة حق الاستغلال من وقت لآخر تبعاً لتحوّل النظام السياسي وميله نحو الديمقراطية وكان يقترن الاستغلال احياناً بحق التصرف المقيد دون الكامل . وقد أعطى أوزوريس ، في عهد ما قبل التاريخ ، تبعاً للاصلاح الديمقراطي الذي تم مدة حكمه ، العامة حق تملك الاراضي والتصرف فيها وإرثها . كما قامت الدولة ، في الامبراطورية الوسطى بتقسيم الاراضي وتوزيعها على العائلات واعتبر رئيس العائلة مسئولاً أمام الحكومة عن زراعة القسم المعطي لها وأصبح للزراع حرية التصرف في الاراضي وتوارثها في داخل العائلة بحيث لا يباح التصرف فيها لأجنبي عنها .وكان رئيس العائلة ملزماً بالتبليغ سنويًّا عن عدد أفراد عائلته وحالتهم بحيث يتخذ هذا التبليغ أساساً لمنح العائلات التي زاد عدد أفرادها أراضي جديدة ، كما كانت تمنح أراض ٍ جديدة عند اغراق فيضان النيل لجزء من قسم ممنوح من قبل . واستلزم هذا التنظيم القانوني للملكية العقارية وجود ادارة خاصة للتسجيلات تقيد بها في دفاتر خاصة كافة التصرفات العقارية وتسلم منها لاصحابها صور رسمية لاثبات الملكية

اما التعهدات فكانت شفوية على اختلاف انواعها ، فلم تكن العقود مكتوبة بل تتم بيمين أو « صنك Sanch » ، من المتعهد للمتعهد له باداء ما اتفق عليه ، بحضور عدد من الشهود ، وبذا كانت الشهادة لازمة لاثبات كافة العقود . غير ان اثبات التعهدات بالكتابة أخذ في الظهور منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، بدليل وجود عقد بيع ثور يرجع تاريخه لعهد رمسيس الثاني من ملوك الأسرة التاسعة عشرة . وكان لا يجوز تعدد أحد طرفي العقد ، فاذا كان المتعهدون عدة اشخاص اعتبروا شخصاً واحداً ، ويتضح ذلك من قولهم في العقود : « تكلم فلان وفلان بفم واحد أو بلسان واحد » . وكان يجبر الملتزم ، بالاكراه البدني ، اذا تخلف عن وفاء ما التزم بهِ مع توقيع غرامة عليهِ تبلغ نصف قيمة ما تعهد بهِ « Hemiolion » . وكان القانون المصري يجهل التقادم ، كما لم يرتب على العقد سوى التزام من طرف واحد

وكان عقد البيع أهم عقد في القانون المصري القديم . والاصل في البيع ، كسائر العقود وفق ما سبق ذكره : اتحاد البائع واتحاد المشتري تبعاً لعدم اجازة تعدد أحد طرفي العقد ، فاذا تعدد البائعون عوملوا معاملة المتضامنين ، واذا كان المشترون عدة اشخاص من عائلة واحدة أصبح أرشدهم وكيلا عنهم . ويترتب على البيع الصحيح ، المنعقد باليمين أمام الشهود ، التزام البائع بتعهدين : الاول تسليم سندات الملكية « Piposionis » والثاني ضمان كل تعرض للمشتري « Stiriosis » ، وكان يجب ذكر هذين التعهدين صراحة في العقد ، فلما كثر استعمالها صارا يفهمان ضمناً من العقد دون حاجة لنص . وقسم البيع لعقدين : أحدهما اتفاقي موضوعه حق الرقبة فينتقل بالتراضي دون تسليم الشيء المبيع ، والآخر عيني ينقل اليد وهو لا يتم الاّ بتسليم العين المبيعة . ولم يكن البيع ليشمل الاراضي لعدم تمتع الافراد بالملكية الكاملة . واتخذ عقد البيع شكلا لجميع المعاملات من اجارة ورهن ووصية . فاستعمل البيع في الوصية بأن يتم عقد الرقبة الاتفاقي بين الموصي والموصى له ثم يؤجل العقد الثاني العيني الى ما بعد وفاة الموصي فيلتزم به الورثة ، وبذا لا يتسلم الموصى له العين الموصى بها الاّ بعد وفاة الموصي ، اي بعد اجراء العقد الثاني الخاص بوضع اليد

ونظم القانون المصري القديم الزواج مشترطاً ان يتم العقد اولاً وفق الاصول القانونية المدنية على ان يجري الزواج المدني بطريق الشراء ، ثم يحصل بعدئذٍ الزواج الديني ويتولاه أحد الكهنة. أما العلاقة المالية بين الزوجين فكان يتفق بشأنها في مشارطة الزواج على أحد اشياء ثلاثة: (١) فصل مال كل من الزوجين عن مال الآخر ، وللزوجة في هذه الحالة حق التصرف في أموالها بدون اجازة زوجها . (٢) تخصيص بعض أو كل مال الزوجة للمساعدة على معيشة الأسرة ، وللزوج في هذه الحالة حق الانتفاع بأموال الزوجة وعليه ردها عند الانفصال ، بعينها ان كانت عقارات أو رد قيمتها المبينة في عقد الزواج ان كانت منقولات . (٣) اشتراك الزوجين في بعض الأموال أو جميعها. وكانت تتمتع الزوجة بامتيازات كثيرة ، عللها ديودور الصقلي باحترام المصريين للالهة ايزيس أهمها منع الزوج من التصرف في ماله بدون اجازة الزوجة لمالها من الرهن العام على أمواله

وأجاز القانون المصري الطلاق كما أباح للمرأة ان تشترط لنفسها حق فسخ الزواج . وكان للزوجة ان تشترط في عقد الزواج ما يدرأ عنها خطر الطلاق ، من ذلك : اقرار الزوج بمبلغ معين كنفقة يلتزم بها حين الطلاق ، تقرير غرامة يدفعها الزوج عند الطلاق ، ان يكون للزوجة رهناً عامّاً على أموال الزوج التي يمتلكها في الحال او الاستقبال ضماناً للنفقة والغرامة ، وان ترفع ولاية الزوج عن الابن الأرشد فيصبح الابن بذلك رب العائلة ووكيلها

ولم يظهر الرق الخاص ، او استرقاق فرد لآخر ، الاّ بعد الأسرة الرابعة في القرن السابع

والعشرين قبل الميلاد . وكانت تستخدم الدولة من قبل أسرى الحرب الأجانب في الاعمال اللازمة لها ومن ثمَّ كانوا أرقاء للدولة . وكان المزارعون التاعبون بفلاحة الارض لحساب أصحابها أحراراً متمتعين بكافة الحقوق وغاية الأمر انهم كانوا مرتبطين بعقود مع صاحب الارض فاذا تصرف فيها نقل الحقوق التي لهُ بمقتضى العقد على عماله الزراعيين الى المتعهد لهُ ولم يكن هذا الأمر تصرفاً في أشخاصهم كالعبيد ، كما كان العمال المشتغلون لحساب الدولة في المناجم والمصانع الملكية أحراراً مرتبطين بعقد العمل فحسب . ووجدت بمصلحة الاشغال في عهد الأسرة الثالثة ادارة للعمل ترعى شئون العمال . وعند ما أباح القانون المصري الرق الخاص جعل أولاد العبيد ارقاء ووضعت به نصوص تكفل الرحمة بالعبيد ، فكان اذا ظلم سيد عبده حكم القاضي بتحرير رقبته ، كما كان يعتبر ابن الجارية المرزوق لها من سيدها ولداً شرعيًّا

وكانت تقدم التبليغات الخاصة بالأحوال الشخصية الى ادارة حكومية تسمى « بيت الوثائق » فتقيد في سجلات الحالة المدنية

﴿ مجموعة بوخوريس ﴾ : كان بوخوريس متأثراً في تشريعه بقوانين حلفائه الآشوريين والكلدانيين فأخذ منها بعض المبادىء وعلى الاخص فيما يتعلق بالالتزامات ، بعد تحويرها عما يتفق وعادات المصريين مع اعطاء التشريع صبغة مدنية بالابتعاد عن الطابع الديني

فأباحت مجموعة قوانين بوخوريس الملكية العقارية الخاصة وأعطت مستغلي الأراضي الزراعية حق التصرف فيها نتيجة الاعتراف لهم بحق الملكية التام ، كما أجازت التصرف فيها بثمن نقدي ، ونصت على وجوب تحرير عقدين متمايزين ، عقد اتفاقي وآخر عيني ، في البيع العقاري مقررة بذلك المبدأ الذي جرى عليه القانون القديم بشأن سائر البيوع الاخرى

وأخذ بوخوريس عن الكلدانيين مبدأ التعاقد بالكتابة ، وساعد على تقريره في مصر انتشار القراءة والكتابة بعد ان كان يجهلها العامة ، كما أوجب تسجيل العقود لدى كاتب التسجيل . وبذا قضى على نظام الشهادة واليمين الدينية وأصبحت لا تقبل الشهادة في إثبات الحقوق ، فان لم يوجد بشأنها محرر كتابي فلا تثبت الاَّ باقرار المدين . وأخذ تشريع بوخوريس عن الكلدانيين ايضاً ، وقد اشتهروا بالتجارة ، نظام الفوائد غير انهُ حدَّد سعرها القانوني ، فلا يجوز اشتراط فائدة سنوية أزيد من ثلث رأس المال كما لا تجوز المطالبة بأكثر من ضعف الدين مهما طالت المدة وحرمت الفائدة المركبة . كذا ألغى الاكراه البدني وأبطل استرقاق المدين عند عدم الوفاء بحيث جعل التنفيذ قاصراً على أموال المدين دون شخصه . وجاء قانون العقود بنصوص خاصة بالاجارة والرهن مميزاً بذلك بين العقدين ، وكان الكلدانيون يخلطون بينهما ، ورتب على عقد

الايجار تحمل أموال المستأجر برهن عام ضماناً للوفاء بالاجرة ، وكان الكلدانيون يجهلون الرهن العام اذ يستوجب الرهن عندهم وضع العين تحت يد المرتهن

اما الاحوال الشخصية فقد لحقها التعديل ، اذ ألغى عقد الزواج الديني على يد الكاهن وأصبح الزواج مدنيًا ، كما تقرر حق الرهن العام للزوجة على أموال زوجها بقوة القانون دون حاجة لاشتراط نص خاص بذلك في عقد الزواج

ولم تدم إصلاحات بوخوريس التشريعية طويلاً ، إذ فقد عرشه بعد ست سنوات من توليه فاستولى الاتيوبيون على مصر وأسسوا الاسرة الخامسة والعشرين وأبطلوا العمل بمجموعة بوخوريس ، وقضوا على الملكية العقارية الفردية باعطاء ملكية الاراضي للالـه آمون مع منح الافراد حق استغلالها ومنعهم من التصرف فيها الا لأفراد أسرتهم على ان لا يكون ذلك بثمن نقدي بل بمقايضة أرض بأرض ، وان يتوقف التصرف على إجازة كهنة آمون

﴿ مجموعة أمازيس ﴾ : كان احمس الثاني رئيس عصابة ثائرة ، استولى على العرش قهراً بعد هزيمة سلفه ابريس امام اللوبيين وثورة البلاد عليه ، لذا أراد أن يغير سائر الامور ويخلص القانون من تدخل رجال الدين ومن القيود العائلية الضيقة فأخذ من مجموعة قوانين بوخوريس ما يلائمه مدخلا التغيير في الباقي ، لذا جاءت مجموعة قوانينه مشابهة لقانون العقود في بعض اجزائها ومختلفة عنها في البعض الآخر الذي وضع على أساس حب المال والتوسع في الأعمال المالية مع التضييق من حقوق المرأة. وتأثرت قوانين امازيس بالشريعة الاسرائيلية بعض الشيء إذ أخذت قسطاً من مبادئها القانونية بتأثير الماليين من اليهود المقيمين في مصر ، كما تأثرت أيضاً بنشأة واضعها حتى انهُ عند ما نظم طوائف الاعمال المختلفة ، اعترف رسميًا بطائفة اللصوص ووضع لها تشريعاً خاصًا منظماً لها

اعترف تشريع أمازيس بالملكية العقارية الفردية واباح لاصحاب الاراضي حق التصرف فيها. كما أدخل طريقة الاشهاد بالميزان فيما يتعلق بالبيع وسائر العقود الناقلة للملكية وكذا في التبني. وتتلخص هذه الطريقة في وجود ميزان وقطعة من النحاس والعين المراد نقل ملكيتها وحضور طرفي العقد والشهود ، فيمسك المشتري بالعين مقرراً انه اشتراها بالثمن المقدر بالميزان ثم يضرب الميزان بقطعة النحاس ، مشيراً بذلك إلى وزن الثمن ، وبذا يستخدم الميزان في وزن العين والثمن. وكان يحرر بهذه الاجراءات التي تمت ، طبقاً لقانون امازيس ، عقد كتابي . ولم تطبق هذه الاجراءات على المنقولات الجامدة المراد نقل ملكيتها فحسب ، بل على المنقولات الحية أيضاً ، كالحيوان والعبيد ، وكذلك على العقارات بصفة صورية

وأباحت مجموعة امازيس الاجارة ، تبعاً لاباحتها البيع بثمن نقدي والهبة (والاغتصاب) ،

في العقارات غير أنها قيدت مدة اجارة الاراضي الزراعية بسنة. اما العقارات المبنية فتجوز فيها الاجارة لمدة اكثر من سنة. واحتفظت المجموعة بثبوت العقود بالكتابة على أن لا يترتب عليها سوى التزام مدني من جانب واحد، كما احتفظت بحد الفوائد القانونية التي قررتها مجموعة بوخوريس

أما الزواج، وقد تأثر بشريعة اليهود، فاستمر مدنياً بطريقة الشراء، وكانت تطبق بشأنه إجراءات الاشهاد بالميزان رمزاً لتملك الزوج زوجته، وكان يكفي لاثبات الزواج بصفة رسمية اقرار الزوج به عند الاحصاء الذي تقوم به الحكومة كل خمس سنوات وإثبات ذلك في وثيقة خاصة يوقع عليها عامل الاحصاء، وبذا يصبح الابناء المولودون قبل الاحصاء أولاداً شرعيين. غير ان طريقة الزواج الديني لم تختف في الحال بعد تطبيق قانون أمازيس، بل استمرت ردحاً من الزمن حيث كان يلجأ اليها نفر من المصريين المتعبدين مع ضرورة التبليغ عن الزواج بصفة مدنية عند الاحصاء. وفقدت الزوجة مركزها الممتاز الذي كان لها في القانون القديم وفي قانون العقود، وأصبحت هي وأملاكها ملكاً للزوج

﴿التعديلات اللاحقة﴾ : أعاد امرنوس العمل بمجموعة بوخوريس بعد ان ادخل عليها بعض اصلاحات منها تقرير سريان الفوائد منذ حلول ميعاد الوفاء والاعتراف بعقد الفاروقة الذي يعطي به المدين عقاره للدائن فيستغله لنفسه وينتفع به لحين تمام وفاء الدين

ولحقت مجموعة بوخوريس المعدلة اصلاحات أخرى في عهد البطالسة أهمها : (١) وجوب تسجيل العقود الخاصة بالعقارات في خلال الستة الأشهر التالية لامضاء العقد وإلاّ لحقهُ البطلان، وكان قانون بوخوريس لا ينص على ميعاد للتسجيل. (٢) يجب أن يحرر كل عقد بين مصري وإغريقي من نسختين احداهما باللغة المصرية والاخرى باللغة الاغريقية، فان اختلفت النسختان فالعبرة بما في النسخة المصرية، ويلغى اي شرط منصوص عليه بالنسخة اليونانية وحدها اما اذا كان وارداً بالنسخة المصرية، دون الاغريقية، فيؤخذ به اذ تعتبر النسخة المصرية هي الاصل (٣) يسقط الحق في الملك بمضي مدة ثلاث سنوات، وهذا أول عهد القانون المصري بأحكام التقادم

القسم الثاني

النظام القضائي

﴿الادارة القضائية﴾ : كان الملك باعتباره مصدر جميع السلطات، يباشر القضاء إما بنفسه في بعض الحالات النادرة او بواسطة موظفين مدنيين أو دينيين، تبعاً للاحوال ولمقدار نفوذ الكهنة في الدولة

وقد أنشئت منذ أوائل الامبراطورية القديمة إدارة خاصة للمحاكم سميت الادارة القضائية

Oasekht يرأسها الوزير الاكبر ، غير انه لم يتولّ ادارتها الفعلية بل ترك ذلك لأحد اعضاء مجلس العشرة الكبير«Our Medj Shema»او المجلس الامبراطوري الذي يدير كافةأعمال الدولة باشرافه على الهيئات الحكومية . وكان يطلق على القضاة لقب « ساب Sab » ويدل على سلطة القضاء المستمدة من الملك فكان يقوم من يلقب به بهذه الوظيفة بعد ان يصدر الملك امراً بتعيينه . وكان القضاة يقسمون عند تعيينهم يميناً في حضرة الملك يأخذون فيه على انفسهم عدم طاعته الاّ فيما يطابق العدل بحيث يكون لهم مخالفته اذا أمرهم بما ينافي قواعده

وكان للوزير الاكبر تبعاً للقبه « Tati Sab Tjati » سلطة القضاء في كل المملكة بحيث كان يرأس منذ عهد الاسرة الخامسة المحكمة العليا ، كما كان لحكام الاقاليم «Sab Adj Mer» أيضاً سلطة القضاء في اقاليمهم وكانوا يرأسون محاكم الاقاليم او المحاكم الابتدائية . ويتضح من تتبع النظام القضائي ان السلطة القضائية لم تكن منفصلة عن السلطة التنفيذية ، اذ كان الوزير الاكبر ، وهو رئيس الحكومة ، رئيساً للمحكمة العليا وحكام الاقاليم رؤساء لمحاكمها

﴿ المحاكم ﴾ : كانت المحاكم المصرية القديمة على درجات ثلاث : محاكم جزئية بالقرى والمدن، ومحاكم كلية بعواصم الاقاليم ، ومحكمة استئناف عال بعاصمة الدولة . كما وجدت محاكم عسكرية او مجالس فوق العادة للجند ، وأخرى عائلية يقوم بالقضاء فيها رئيس العائلة فيحكم في المسائل البسيطة المتعلقة بالاسرة وأفرادها . وعرفت مصر نظام القضاء الاداري تحت رياسة حاكم الاقليم ، الذي يفصل في المنازعات بين الادارة والافراد فيما يتعلق بتبليغاتهم عن اموالهم وبالضرائب المفروضة عليها . وكان يتولى الفصل في هذه المنازعات ، التي تقوم بين دافعي الضرائب والموظفين المكلفين بجبايتها رئيس مقدري الضرائب ولذا سمي : « Sab Nekht Kherou »

وكان يصح للخصوم الالتجاء للتحكيم ، باختيارهم حكماً بينهم ، على ان ينص في عقد التحكيم على الاجراءات وكذا الجزاءات التي يمكن توقيعها اذا استلزم الامر ذلك بأن لم يطع احد الطرفين قرار التحكيم ، وكان ينفذ القرار دون حاجة للرجوع الى المحكمة

وكانت محكمة الاقليم Het Ouret مكوّنة من قضاة من اعيان الاقليم وتحت رياسة الحاكم. وانتشر هذا النوع من المحاكم منذ عهد الاسرة الخامسة في مصر العليا والسفلى بحيث اصبح القضاء موحداً بالنسبة لكل الاقاليم ، وكان لكل محكمة قلم لتلقي عرائض الدعاوى وآخر للمحفوظات تحفظ به سجلات الاحكام . اما اختصاص هذه المحكمة فمحدود ولها اجراءات خاصة تتخذ امامها : فكانت مختصة دون غيرها بالفصل في المنازعات المدنية . وتبدأ الاجراءات امامها بعريضة دعوى ، يبين بها المدعي طلبه ، تقدم لقلم الكتاب فيحوّلها لقاضي التحقيق الذي

يدعو طرفي الخصومة ويسألهما ويفحص المستندات ويسمع الشهود بعد اداء اليمين ثم تحول الدعوى بعد ذلك الى المحكمة فيقدم كل طرف طلباته ووثائقه الاحتياطية فتحكم طبقاً للمستندات . وكانت تعتمد المحكمة في المسائل العقارية على مستخرجات السجلات العقارية ، واذا كانت المستندات غير كافية امرت المحكمة باجراء تحقيق تكميلي ثم تصدر حكمها مشتملاً على خلاصة اقوال الطرفين والاسباب والمنطوق . وبذا كانت الاجراءات او المرافعات كتابية. وكانت تستأنف الاحكام المحكمة العليا . وكان لمحكمة الاقليم اختصاص جنائي ، كما يحلف الشهود في الدعاوى المدنية والجنائية يميناً امام المحكمة قبل الادلاء بالشهادة وصيغة اليمين كالآتي : «اقسم بآمون وبالملك ان اقرر الحقيقة ولا اقول كذباً ، فلئن كذبت فلتجدع انفي ولتصلم اذني ولانفين الى الحبشة ، او الى خارج الحدود »

اما المحكمة العليا فقد انشئت في عهد الاسرة الرابعة وسميت بمحكمة الستة «Het Ouret Sou» وكانت مكونة على رأي البعض من ستة مستشارين وعلى رأي البعض الآخر من ست دوائر . ولم يكن للوزير الاكبر في ذلك العهد رياسة هذه المحكمة رغم لقبه الذي يحمله وهو «قاضي الباب الملكي» بل كان يرأسها رئيس اسرار الملك كما كانت مكونة من كاتمي الاسرار وبذا كان يتولى ملوك الاسرة الرابعة القضاء العالي بواسطة كاتمي اسرارهم وهذا مظهر من سياستهم المطلقة . وقد تغير تكوين المحكمة العليا في عهد الاسرة الخامسة اذ اعطيت رياستها للوزير الاكبر . وكان يقوم بعض اعضاء المحكمة بتحقيق القضايا المرسلة اليهم من قلم الكتاب ثم يحولونها الى احدى دوائر المحكمة للنظر فيها واصدار الحكم باسم الملك ، وكان يختار قضاة التحقيق من اعضاء مجلس العشرة ، اما قضاة الجلسات فيختارون من اعضاء هذا المجلس او من قضاة فنيين معينين خصيصاً لذلك ، ورؤساء الدوائر قضاة فنيون معينون لهذا الغرض . وكانت القوانين المصرية مسطورة في ستة مجلدات مودعة بالمحكمة العليا

﴿ القضاء الجنائي ﴾ : عرف القضاء الجنائي في مصر منذ انشاء المحاكم غير انها لم تقسم الى مدنية وجنائية الا في عهد الاسرة التاسعة عشرة حيث فصل القضاء المدني عن الجنائي في الاقاليم بعد ان كانت تقوم بها هيئة واحدة . فكانت تشكل المحاكم الجنائية فيها من الحاكم يعاونه اثنان من المحلفين « Qenbet » وذلك بحضور وكيل النائب العام . اما القضايا الجنائية المرتبط بها مسائل مدنية فكانت تنظرها هيئة مكونة من اعضاء المحكمة الجنائية منضماً اليهم ثلاثة قضاة من المحكمة المدنية ، وكانوا من رجال الدين في غالب الاحوال

وقد ظهرت وظيفة النيابة العمومية منذ عصر الاسرة الثانية عشرة حيث انشىء منصب النائب العام او نائب الملك ، ويسمى « بلسان الملك Nem Snten » ، الذي يباشر التحقيق

ويقيم الدعوى العامة . وللنائب العام وكلاء في الاقاليم يباشرون الدعوى العامة امام محاكم الاقاليم الجنائية . ورغم ان الملك هو صاحب السلطة القضائية فقد كان تدخله قاصراً على القضاء الجنائي بواسطة النائب ووكلائه وكانت المحاكم الجنائية تابعة له مباشرة . والقضاء الجنائي العادي على درجتين ، (١) محكمة المدينة « Dja » او الاقليم « Præsis » (٢) والملك ، او مجلس الملك الخاص اذ كان يحكم في الاستئناف الذي يرفع اليه . وكانت تقدم الدعوى للملك بعريضة ترفع اليه ، وكان الحق في ذلك ثابتاً للجميع . غير انهُ جعل في عهد الاسرة التاسعة عشرة قاصراً على كبار رجال الجيش والكهنة وذلك نظراً للطبقات الممتازة التي انشأتها هذه الاسرة . اما القضاة فكان من واجبهم الرجوع للملك ليفصل في الدعوى اذا تعذر عليهم الامر . واعطي الافراد حق رفع الدعوى الجنائية المباشرة ، ان لم تقم النيابة العامة بتحريكها ، مع تحملهم نتائجها

وكانت الجرائم التي تمس الملك او الدولة بصفة عامة ، من اختصاص المحكمة المخصوصة وهي مشكلة من اثني عشر قاضياً ، بعضهم من رجال الجيش ، كما يقوم النائب العام امامها بالاتهام . وكان يعين النائب العام ، بمقتضى السلطة الممنوحة لهُ من الملك ، اعضاء هذه المحكمة ثم يقوم بعد ذلك بمهمته في الاتهام دون تدخل في عمل القضاة ، بحيث كان يرد اسمهُ بعد اسماء القضاة وقبل كتاب الجلسة . وكان المبدأ السائد ، رغم تدخل النائب في اختيار قضاة المحكمة : فصل هيئة الاتهام عن هيئة الحكم . وتبدأ الاجراءات في هذا القضاء الجنائي غير العادي بتقرير اتهام يرفعهُ النائب العام الى الملك فيصدر أمره بتشكيل المحكمة المخصوصة التي تنقسم بمجرد تكوينها الى هيئتين ، تفحص كل منهما الدعوى على حدة ثم تجتمعان للنظر فيها . وكانت محاضر جلسات الهيئتين وجلسات المحكمة بكامل هيئتها موجزة ، وذلك بعكس محاضر المحاكم الجنائية العادية التي كانت مطولة وترد بها كل التحقيقات من أسئلة وأجوبة وشهادة شهود ومعاينة ، اذ كانت تصدر المحكمة المخصوصة حكمها دون نشر الاسباب ، مع احتفاظها بسرية التحقيقات التي قامت بها

وعرف من العقوبات الجنائية الاعدام في الجرائم العادية والسياسية والحبس والجلد ، وكان ينفذ حكم الاعدام بقطع الرأس أو بالشنق ، كما كان يحكم على الزانية بالحرق وهي على قيد الحياة

﴿ القضاء الديني ﴾ : جرى العمل في عهد الأسرة العشرين ، نظراً لنفوذ رجال الدين ، على استفتاء الآلـه آمون في المسائل الجنائية . فكان يؤتى بالمتهم امام تمثاله ، ويسرد رئيس الكهنة الوقائع امامه ويسأله عما اذا كان المتهم مذنباً ام بريئاً ، فيحرك الالـه رأسه بالنفي أو بالايجاب أو يمسك بأحد كتابين مقدمين لهُ بأولها الاتهام وبثانيهما الدفاع ، فاذا قبض على الاول اعتبر المتهم مذنباً واذا أمسك بالثاني اعتبر بريئاً . واذا كان الجاني غير معروف بالتعيين قدم اليه المتهمون فيشير بيده تمييزاً للجاني من بينهم ويسمع صوته قائلاً مثلاً « هذا هو السارق . . . »

فاذا أنكر المتهم كرر آمون اتهامه ، وان ألح في الانكار أعيد الى السجن لتعذيبه حتى يعترف ، اذ لا يمكن تكذيب الاله ، ثم يؤتى به الى آمون فيقر أمامه بذنبه ويؤمن التمثال على ذلك . ويقدم الجاني بعدئذ للمحكمة الجنائية التي تأخذ باعترافه لآمون ، ويحضر النائب او وكيله جلسة المحاكمة ، محافظة على الشكل القانوني فحسب ، وتصبح مهمته في هذه الحالة ضئيلة اذ لم يباشر بنفسه التحقيقات التي أدت للاعتراف . حيث يعتبر آمون هو القائم بالتحقيق وبالاتهام . وكان يقسم المتهم ، قبل سماع أقواله ، يميناً باسمي آمون والملك تنتهي بقوله « ان كذبت فلأعودن الى السجن ولأسلمن للحراس » ، وبذا تغيرت صيغة القسم الموجودة من قبل ، وفي قول المتهم بالعودة الى السجن اشارة لما يلقاه من التعذيب على يد حراسه ، ومن ثمّ يعترف بالجرم كي لا يعذب من جديد.

وقد ازداد شأن فتاوى آمون بتدخل الكهنة في القضاء عند تولي حرحور رئيس كهنة آمون الملك في سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد ، بمقتضى فتوى من الاله نفسه وبذا اصبحت أقوال آمون هي الحكم في كل المسائل الجنائية والمدنية والادارية بحيث تفصل في الوقائع وفي التطبيق القانوني . وكانت جلسات محكمة آمون علنية في المدرج الفضي بالمعبد ، وان احتاج الحكم فيما بعد لتفسير راجع رئيس الكهنة آمون في ذلك بجلسة سرية لا يحضرها سواه . وكان يتلى الحكم على الحضور بصوت مرتفع بواسطة موظفين مخصصين لذلك . وكانت تختلف العقوبات التي يوقعها آمون في المسائل الجنائية من الاعدام الى السجن والى فقدان الاعتبار ، وكان يترتب على هذه العقوبة الاخيرة الحرمان من الوظائف العامة

وكان يفصل آمون في الدعاوى المدنية ايضاً ، فيقدم المدعي مذكرة بدعواه ويقدم المدعى عليه مذكرة بالرد ثم توضع المذكرتان أمام آمون فيمسك بواحدة منهما وبذا يكون الحكم لصالح صاحبها كما كان يتدخل في المنازعات الادارية . على أن تدخل آمون بنفسه كان قاصراً على الدعاوى والمسائل الخاصة بالأسرة المالكة وكبار رجال الدولة ، وبذا كان للميول السياسية دخلاً كبيراً في أحكامه ، أما القضايا الجنائية والمدنية الخاصة ببقية الافراد فكانت تترك للاله المحلي في كل إقليم ، باعتباره تابعاً لآمون وتحت إشرافه

وكان لابد لتنفيذ أحكام آمون من إعطائها صبغة رسمية في مجلس الدولة المكوّن من حملة لقب « صديق آمون » ، فيجتمع المجلس حول تمثال آمون في يوم عيد له،ويقرر رئيس الكهنة أنهُ قدم وثيقتي الاتهام والدفاع للاله فقبض بيده على الثانية مثلاً ومن ثم تبرىء ساحة المتهم فيبدي آمون حينئذ إشارة بالموافقة على ذلك

وقد ضعف بعد ذلك تدخل آمون في المسائل القضائية وأصبح الرجوع اليه شكليًّا بحتاً

في عهد الاسرتين اللوبيتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين . غير ان استيلاء الاثيوبيين على مصر،وانتمائهم لآمون،أعاد له سلطته القضائية من سنة ٧٢١ الى سنة٧١٨ قبل الميلاد.فلما تولى بوخوريس الملك أزال التدخل الديني وأعطى للقضاء صبغة مدنية ، فحلّ مجلس الملك الخاص مكان آمون ، اذ تولى الفصل في القضايا الهامة . غير أن رجوع الاثيوبيين مرة أخرى من سنة ٧١٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد أعاد لآمون سلطته القضائية السابقة ، لـكنها ضعفت بعد ذلك حتى أتى أمازيس فقضى عليها نهائيًا معيداً للقضاء صبغته المدنية التي كانت له في عهد بوخوريس

﴿ القضاء البطلمي ﴾ : كان القضاء المدني والجنائي في عهد البطالسة على نوعين: محاكم للمصريين وأخرى للاغريق . وكان نظام كل من النوعين مخالفاً للآخر . فكانت الاجراءات امام المحاكم المصرية شكلية معقدة ، كما كانت تطبق هذه المحاكم نص القانون دون توسع في تعبيره أو بعبارة أخرى كانت تتبع شكل القانون الضيق Forme de droit strict، فتطلب المحكمة من كل شخص يتقدم أمامها اثبات نسبه كما تطلب من مدعي ملكية عين ما تقديم كل الوثائق الخاصة بها والتي تثبت ملكيته لها وكذا ملكية كل الملاك السابقين عليه بما في ذلك عقود التصرفات التي تمت بشأن العين ، فان كانت المستندات المقدمة غير كافية مزقت علانية بالجلسة قبل الحكم برفض الدعوى . كما كان لا يسمح بحضور وكلاء او محامين امام المحكمة المصرية ، بل لابد من تولي طرفي النزاع امرهم بأنفسهم فيقدمون مذكراتهم للمحكمة ، غير ان عدم إلمام المتقاضين بالقانون دفع بهم للاستعانة برجال القانون في تحرير مذكراتهم وبذا ظهر وكلاء الاعمال القانونيين Ret لتولي أمر المذكرات الكتابية . وذلك بعكس المحاكم الاغريقية التي كانت لا تتقيد باجراءات وقواعد شكلية (أي تتبع La Forme Pretorienne) فيما خلا المراسيم الملكية والقوانين السياسية النظامية الخاصة بنظام الدولة ، بل تقضي طبقاً لقواعد العدل والانصاف Ex æquos et bono كما كان يتولى المرافعة أمامها الوكلاء او المحامون

وكانت المحاكم المدنية المصرية الاقليمية مشكلة في عهد البطالسة من قضاة دينيين أي كهنة . وكانت المحكمة المدنية العليا بعاصمة الدولة مشكلة من الكهنة بالنظام الآتي ، وقد وجدت بهذا الشكل منذ اواخر العهد الفرعوني : يختار كل من معابد منف وهليوبوليس وطيبة عشرة من كهنته المتضلعين في الشؤون القانونية لتولي القضاء بالمحكمة العليا ، ومتى التأم جمع الثلاثين قاضياً انتخبوا من بينهم رئيساً للمحكمة « Archidicaste » ، وكان على المعبد الذي ينتخب الرئيس من قضاته ان يبعث للمحكمة بقاض آخر مكانه حتى يكون عدد القضاة بما فيهم الرئيس واحداً وثلاثين . وكان يضع رئيس المحكمة في عنقه عند رياسته للجلسة قلادة ذهبية بطرفها حجر كريم على شكل تمثال لالهة العدالة « ما » ، كما توضع على منصة القضاء ثمانية مجلدات ضخمة بها كل

القوانين ، وكان يستخدم ذلك التمثال الصغير عند المداولة اذ يقدمه الرئيس لكل عضو على التوالي فيدلي برأيه ، ثم ينطق بعد ذلك بالحكم . وكان يتناول القضاة مرتبات من الخزانة الملكية مع اعطاء الرئيس مرتباً كبيراً . وكانت المرافعات أمام المحاكم المدنية كتابية ؛ فيقدم المدعي عريضة دعواه مرفقاً بها كل السندات فترسل المدعى عليه الذي يرد عليها بمذكرة مكتوبة ، وللمدعي أن يرد على هذه المذكرة بالكتابة ايضاً فيقدم المدعى عليه مذكرة ثانية بالرد عليها ، ويكون الرد الاخير دائماً للمدعى عليه . وكانت تتبادل هذه المذكرات بين طرفي النزاع قبل الجلسة ، ويقدمونها بأنفسهم للمحكمة التي تبحث في الوقائع وفي التطبيق القانوني على ضوئها . اما المحاكم الجنائية فاستمرت كما كانت في العهد الفرعوني ويرأسها حاكم الاقليم او محافظ المدينة الاغريقي . وكان تقديم عرائض الاستئناف ، او لمجلسه الخاص ، حقاً ثابتاً للجميع في المسائل الجنائية ، اما في المسائل المدنية فكان الحق قاصراً على الاشراف من رجال الدين او الجيش

وكانت للاغريق محاكم خاصة بالمدن الاغريقية كنقراطيس والاسكندرية اذ كانت تتمتع هذه المدن الممتازة بمركز خاص يفوق مركز المدن المصرية ، فقد كانت لها محاكمها الخاصة وقوانينها الاغريقية البحتة نظراً لعدم اختلاط الاغريق بالمصريين وتحريم الزواج المختلط بين الفريقين وقد تولى الحاكم او المحافظ الاغريقي للاقليم او المدينة الفصل في الدعاوى المدنية بين الاغريق ، وكان يرفع اليه المصري دعواه المدنية على الاغريقي

واحتوى القانون الجنائي المصري في ذلك العهد على عقوبات أهمها . (١) الاعدام ، لمن قتل آخر سواء أكان المجني عليه حراً أم عبداً ، ولمن لم ينج شخصاً قتله آخرون أمامه ، ولمن حلف يميناً كاذبة ، ولكل مصري لا يبين للجهات القضائية موارد معيشته ، اما من يقتل أحد والديه فتقطع اصابعه ثم يحرق حياً ، وكان لا ينفذ حكم الاعدام في المرأة الحامل الا بعد الوضع . (٢) قطع اللسان ، لكل من أفشى سراً للعدو . (٣) قطع اليدين ، لمن زيف العملة أو غش في المقاييس أو الموازين أو ارتكب تزويراً في محررات رسمية أو عرفية . (٤) فقدان الاعتبار ، للجنود الهاربين أو العاصين ، فان قاموا بعد ذلك بعمل مجيد في ميدان القتال رد اليهم اعتبارهم . (٥) الخصي ، لمن واقع انثى بغير رضاها . (٦) جدع الانف ، للزوجة الزانية ، أما الزاني فيحكم عليه بألف ضربة عصا . (٧) الصيام ثلاثة أيام مع التأديب بالعصي ، لمن كانت به عاهة تمنعه من انقاذ شخص قتله آخرون أمامه ولم يبلغ الجهات المختصة عن الجريمة ومرتكبيها . (٨) الحكم على الوالدين اللذين قتلا ابناً لهما باحتضان جثته مدة ثلاثة أيام وليال متتالية . (٩) الحكم على كل من قدم بلاغاً كاذباً بنفس العقوبة التي كانت تطبق على المتهمين لو صح التبليغ

وقد وجدت في العهد البطلمي بجانب المحاكم السالفة الذكر محاكم متنقلة مكونة من نائب الملك

أو النائب العام ووكلائه في الاقاليم .فكانت تتجول هذه المحاكم في الاقاليم وترفع اليها بعض الدعاوى التي من اختصاص المحاكم الاقليمية بعد نزعها منها ، كما تنظر في الدعاوى التي يحيلها الملك . وكانت تفصل المحكمة المتنقلة في الدعوى بعد الاطلاع على الوثائق ،دون حضور محامين أمامها ،وتستأنف أحكامها لمجلس الملك الخاص

وطبق البطالسة في مصر نظام قاضي الاسواق بأثينا بعد تعديل في التسمية والاختصاص فسمي « بقاضي الصلح » : وجعل من اختصاصه القيام بالتوفيق بين الطرفين حسماً للنزاع ، كما كانت تتم امامه بعض العقود كالبيع او القرض وبذا قام بمهمة موثق العقود

وقد وجدت منذ اواخر العهد الفرعوني محاكم دينية لتحرير العبيد ، استمرت في عهد البطالسة ، فكان اذا ظلم سيد عبده التجأ المظلوم لمعبوده واحتمى بتمثال الاله ، فيفحص الكهنة شكواه ومتى اتضحت صحتها قضوا بجعله ، اسميًّا ، عبداً للاله ، وكان هذا اجراءً شكليًّا لتحريره من ربقة الاسترقاق . وكان المصريين الاحرار الذين يظلمهم الحكام ، أو جهة الادارة بصفة عامة ، الالتجاء لاحد الآلهة بهذا الشكل فيحميهم القضاء الديني . واستقر هذا الامر في عهد البطالسة

واستمر النظام القضائي المصري مدة قرنين ونصف من الزمان بعد الفتح الروماني مع تحوير فيه اذ خربت هليوبوليس وتحولت طيبه الى قرية صغيرة ، فلم تبق قائمة سوى مدينة منف ومعبدها لذا جعلت مقر القضاء العالي وأعطى اختصاص المحكمة العليا السابقة لرئيس كهنتها وحده في المسائل ذات الصبغة القانونية المصرية البحتة وكانت تعتبر أحكام الكاهن الأعظم سابقة قضائية تأخذ بها المحاكم الاخرى ، وكان يليه في الترتيب القضائي كهنة الاقاليم ، اذ حلوا مكان المحاكم المدنية الاقليمية السابقة . وزالت المحاكم الاغريقية القديمة ، وحلت مكانها محاكم اغريقية رومانية يترافع امامها المحامون ، كالمحكمة العليا بالاسكندرية المشكلة من نواب المدينة الخمسة او قضاتها « Juridicus » وكان اختصاص هذه المحكمة قاصراً على التطبيق القانوني دون غيره ، مع ترك الفصل في الوقائع لقاض آخر « Judex »

خاتمة

كان للقانون المصري القديم أثر بيِّن في النظم القانونية لدى شعوب البحر الابيض المتوسط فأخذ عنهُ الاغريق الشيء الكثير اذ حضر الى مصر ، عام ٥٥٩ قبل الميلاد ، سولون المشرع الاغريقي فلما عاد الى بلاده أدخل في تشريعه ما اقتبسهُ من مجموعة قوانين بوخوريس . وقد التفت الرومان للتشريع المصري منذ أشاد هيرودوت في الالعاب الاولمبية بمجموعة قوانين أمازيس فاقتبسوا الكثير من نصوصها في قوانين الاثنى عشرة لوحة « Lex Duodecim Tabularum »

(٤٥٤ — ٤٤٩ قبل الميلاد) اذ ارسل اشراف الرومان في سنة ٤٥٤ قبل الميلاد وفداً من ثلاثة اعضاء الى اليونان لاحضار نسخة من قوانين سولون والتشريعات الاغريقية اللاحقة فعاد في سنة ٤٥٢ وتكونت على اثر ذلك اللجنة التي حررت قوانين الاثنى عشرة لوحة . وبذا أخذ القانون الروماني مبادىء كثيرة عن القوانين المصرية في مختلف العصور معطياً اياها صبغة رومانية ونخص بالذكر نظام تحرير العبيد وطريقة الاشهاد بالميزان التي نقلها الرومان في تشريع الاثنى عشرة لوحة وعرفت لديهم باسم « Mancipacio per aes et bibram »

فالقانون المصري القديم هو اول التشريعات الوضعية كما كان المصريون اول من جمع القوانين Codification واذا كان القانون الروماني قد طغى على القانون المصري بعد أن استمد منهُ مبادىء كثيرة وأصبح يرجع اليه وحده كأساس لكثير من المجموعات القانونية ومن بينها القوانين الفرنسية والمجموعات المصرية المختلطة والأهلية التي وضعت بالرجوع للمجموعات الفرنسية فليس ذلك بمنقص شيئاً من قدر التراث القانوني المصري . فالنظام القانوني القضائي المصري القديم مشابه في اوجه كثيرة للنظم الحديثة ، إذ فكرة العدالة واحدة في كل زمان ومكان وإن اختلفت الطرق والوسائل التي يتذرع بها لتحقيقها . فاذا كانت النظم القديمة قد زالت وحلت مكانها الآن نظم اخرى ، فليس معنى ذلك قطع كل علاقة بالماضي لان الروابط قائمة والنظم متتابعة وكما يقول فوستيل دي كولانج : « لا يموت الماضي دائماً ابداً في الفكر الانساني ، فقد ينساه الانسان ، لكنه يحتفظ به في قرارة نفسه لانه خلاصة العهود السابقة فلو تعمق الشخص بالبحث في داخلية نفسه لأمكنهُ ان يجد ويميز هذه العصور المختلفة تبعاً لما تركتهُ فيه من آثار وتقاليد »

١ — القانون الدولى

عند قدماء المصريين

٢ — الاقتصاد السياسى

عند قدماء المصريين

بقلم

جورجى نجيب الراهب

بمتحف فؤاد الاول الزراعي

١ — القانون الدولي عند قدماء المصريين

اذا اردنا الكلام عن القانون الدولي عند قدماء المصريين فاننا نريد أن نبين النظم التي كانت متبعة في العلاقات بين مصر القديمة والبلاد الاخرى في ذلك الحين . فقد كانت التجارة في الماضي كما هي الآن اكبر باعث على ربط العلاقات بين مصر والبلاد المجاورة . وتتبع المصريون أثر الفينيقيين في التجارة وأخذوا منها قسطاً وافراً وإن لم يصلوا الى درجتهم فيها

فقد كانت الصادرات تحتوي على بعض المحصولات والاقمشة والنفائس والجواهر والزجاج والفخار والواردات الخام بمختلف الانواع من البلدان الغير المتمدينة في آسيا وافريقيا

وكان طريق التجارة الداخلية نهر النيل وكذا الترع . اما التجارة الخارجية فكانت تنقل بمعرفة الفينيقيين أو عن طريق البر . ولهذا كانت تهتم الحكومة باستبدال المحصولات المصرية بمواد نافعة من البلدان الاجنبية

وأنشئت لذلك اسواق يرسل اليها المرء محصولاته فيستبدل بها مواداً اخرى . وكانت فكرة المصلحة العامة هي الدافع الوحيد في السماح للاجانب بدخول هذه الأسواق رغماً عن منعهم من الاقتراب من النيل في أي حال . وكان محظوراً على الزنوج ارتياد الحدود . وكان لا يسمح المصريين بالذهاب الى الخارج . وثابت في ورقة من البردي موجودة ببرلين أن « سانحة » أحد ندماء « امنمحعت » أراد الهرب من مصر فلم يتيسر له تخطي الحدود الا بشق النفس

أما فيما يختص بالأسواق التي كانت مفتوحة للاجانب فيمكننا أن نستنتج ذلك من تاريخ يوسف واخوته وابيه أيام الهكسوس . فان تجاراً أجانب باعوا يوسف في مصر . ثم بعد أن عين هذا الأخير وزيراً لفرعون استقبل أخوته الذين أتوا أيام القحط لشراء الغلال

وكان المديرون في تلك الايام مكلفين باستحضار ما يلزم للاهالي من الغذاء . وقد أطلقت يدهم في الانتفاع بتجارة المصنوعات حتى انهم كانوا يستخدمون لهذه التجارة الدولية مراكب عديدة للاجانب غالباً . وفي أيام رمسيس الثاني كوّن تجار عديدون شركات كبيرة . لذلك تكونت بالتدريج بجانب طبقة الاشراف طبقة اخرى مالية كان اغلب اعضائها من الاجانب

وكان المصريون يحرّمون الربا طبقاً لمبادئهم الدينية. وقد استفاد الاجانب من هذا فاستقلوا باشغال المصارف وكانت الحكومة لاحتياجها الى الاموال لتقوم بالمشروعات النافعة تضطر الى الاقتراض من اولئك المرابين والسعي لارضائهم حتى اصبحوا في حالة ممتازة

ومنذ ايام رمسيس من العائلة العشرين كان القانون التجاري اجنبياً عمل بمعرفة الاجانب مخالفاً في ذلك روح القوانين الاهلية

ولم يقطن اولئك التجار الاجانب بطيبة بل كان البعض يسكن « بالفيلة » والبعض الآخر — وهو الاكثر عدداً — بالفيوم على انه كان لهم عملاء في كل جهة للقيام بالاعمال

وتبين لنا المحررات التي اكتشفت في « تل العمارنة » سنة ١٨٨٧ العلاقات التي كانت موجودة بين ملوك مصر وملوك آسيا الصغرى في القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وقد نرى فيها حوادث ذات شأن عظيم . إذ أن ملوك آسيا يذكرون لملوك مصر ما كان من العلاقات الحبية بين الآباء والاجداد . ويعرضون عليهم أن تكون بين بعضهم البعض صلة نسب ومعاهدات تجارية

ومن جهة اخرى نرى حكام الولايات التي فتحت يؤدون يمين الاخلاص والطاعة طالبين من ملوك مصر المعونة والحماية ، ونرى ايضاً أن خطابات « تل العمارنة » تحدد وظيفة المندوبين المنوط بهم ربط العلاقات الودية. فان هؤلاء المندوبين كانوا ينتقلون من بلدة الى اخرى كوسطاء او كحماة ، واحياناً كقضاة يسعون لجعل سلطة فرعون موضعاً للاحترام حتى في البلاد النائية

ومن بين المعاهدات المحفوظة معاهدة رمسيس الثاني مع ملك «الخطاس» . وهذه المعاهدة الشهيرة تمت بعد الحروب العديدة التي أكبرت قدر « سيزوستريس » العظيم وقد كتبت في بلدة « خطاس » بعد المخابرات الدينية والسياسية وأحضرها لمصر مندوبو المملكتين الذين وضعوها لعرضها على « سيزوستريس » وكان موجوداً وقتئذٍ في « باراس » البلدة التي عزم على تشييدها بالقرب من الحدود المصرية من جهة شبه جزيرة سينا . وهناك استقبل مندوبي ملك «الخطاس» وهما « ترتاسيبو » و« راميس » اللذين حضرا مع مندوبه الخاص القائد « واتبا » . وقد تبادل الفريقان صورة هذه المحالفة موقعاً عليها من الطرفين . وذهب بعدها رمسيس الثاني الى « طيبه » ليقدم واجبات الشكر للآلـه « آمون » واصطحب معهُ المعتمد الاول لملك «الخطاس» واستأذن هذا المعتمد من رمسيس الثاني في العودة الى بلاده بعد أن أتمَّ مأموريته. ومن حسن الحظ أن حفظت صورة من هذه المحالفة . وقد وجدت كالمعتاد منقوشة على آثار «طيبة» و«ابي سمبل» وهي تحتوي على : —

اولاً — فصل شامل لموضوع هذه المحالفة واسماء المتعاقدين وآبائهم

ثانياً — بيان للاسباب التي جرّت الى الحروب العديدة بين الملوك السابقين

ثالثاً — معاهدة سلمية تؤيد المعاهدات السابقة التي لم تكن لترمي الاّ الى السلم

رابعاً — طلب للآلهة في الشهود على هذه المحالفة

خامساً قسم ديني بتقديم ذبيحة للآلهة لتساعد على اتباع ما جاء بهذه المحالفة

سادساً — جملة مواد تشمل الحالات الثلاث الآتية :

(١) حالة حصول حرب بين احدى الدول المتعاقدة ودولة اخرى

(٢) حالة حصول سرقة بمعرفة احد خدام او اتباع المتعاقدين أو أي جريمة اخرى وهنا كان النفي واجباً قانونيًا

(٣) حالة ذهاب شخص او اثنين او ثلاثة إلى احد البلدين المتحالفين بدون علم ملكهم. وفي هذه الحالة يتعهد كل من المتعاقدين باعادتهم الى اوطانهم وتسليمهم الى السلطة المحلية لاجراء شؤونها معهم

وهذه المحالفة من الاهمية بمكان عظيم . اذ انها تبين لنا كل قواعد القانون الدولي العام والخاص في ذلك الحين

فالقانون الدولي العام لم يكن شاملا فقط لتداخل الدولتين المتحالفتين حربيا لصد غارات الدول الاخرى التي تهاجم احداها ، بل كان يشمل ايضاً الاتفاق على معاقبة الثائرين من أهالي احد البلدين المتحالفين

وقد اشتملت هذه المحالفة ايضاً على مبدأ القانون الدولي الخاص اذ ان النفي كان محتما على كل خادم أو تابع لاحد الامراء المتحالفين عند ما يترك وطنه بسبب جنائي . ويذهب ليحتمي في احدى البلاد المجاورة

لم تكن هذه المعاهدة اذن معاهدة تحالف واخوة فقط . لان ملك « الخطاس » قدم الى رمسيس الثاني ابنته ليتزوج بها في الوقت الذي عمل فيه الصلح . بل كان الغرض الاساسي اعادة العلاقات التجارية والسياسية والاتفاق على الاعمال الحربية ايضاً

ولما عادت العلاقات التجارية وكثر السفر بين سكان البلدين المتحالفين ازداد عدد الاجانب فيهما . فأصبح للتاجر والصانع الاجنبي صفة ممتازة خاصة فيه بالنسبة لوطنه الجديد وكان له ما لمعتمدي الدول في الوقت الحاضر - أي انهُ كان ينقل معهُ جزءاً من وطنه بعوائده وقوانينه وكانت حالتهُ القضائية تشبه نوعاً حالة الاوربي بمصر تحت حكم الامتيازات الاجنبية

والمبدأ الاساسي الذي بنيت عليه هذه المعاهدة هو اعتبار ملوك مصر ان لهم حق الملكية المطلقة على رعاياهم وأتباعهم . هذا الحق الذي قررهُ فرعون وملك « الخطاس » وقد أخذ « منفتاح » ابن « رمسيس » الثاني بنصوص هذه المعاهدة في معاملة الاسرائيليين القاطنين بمصر فان موسى النبي بين لنا المعاملة القاسية التي عومل بها الاسرائيليون . وكيف ان « منفتاح » أراد أن يلحق بهم عند مغادرتهم الديار المصرية تنفيذاً لنصوص تلك المعاهدة التي وقع عليها ابوه

والظاهر أن هذه المعاهدة لم تدم كثيراً اي انهُ لم يبق معمولا بها مدة طويلة لانهُ قد قل نفوذ مصر في الخارج من الوقت الذي أصبحت فيه سيطرة الفراعنة على الممالك الاجنبية متنازعاً فيها . صحيح ان مصر حافظت على مركزها طويلاً نظراً لاهمية آلهتها وثروتها . الاّ ان البعثات

المصرية كادت تصبح في خبر كان . فتغير سلوك مندوبيها كثيراً . وفقد المندوبون المصريون في القرن السادس عشر قبل المسيح كل ما كان لهم من الشأن. واصبح لا يخشاهم احد حتى انهم كانوا يسجنون في البلاد الاجنبية ويموتون بائسين

وقد حصل الاجانب من هذه الحالة الجديدة على امتيازات عديدة لان من وقت حروب الامبراطورية الجديدة صارت الافكار الوطنية أكثر اتجاهاً الى سكان آسيا الاصليين . وكان أكبر عمل سياسي أيام حكم « السيتيين » القضاء على الافكار السائدة ضد الاجانب . فلم يقتصر الأمر على التساهل مع اليونانيين فقط . بل أصبحت معاملة الاجانب احسن حالاً من معاملة الوطنيين انفسهم

وقد منح « ابسامتيك » الثالث لليونانيين بعض الاراضي المجاورة للنهر . وعينهم ضمن حرسه الخاص . وأبقى كل من « نكو » الثاني و « ابريس » هذه الامتيازات . واقتفى « امازيس » كذلك أثر سياسة سلفائه فتزوج « بلارنكا » اليونانية وجذب كثيرين من مواطنيها لمصر . ووهبهم أراضي عديدة شيدت عليها مدينة (نوكراتيس) اليونانية وكان اليونان أيام حكمه حاصلين على امتيازات تشبه الامتيازات الاجنبية اليوم . وانتهى النفوذ اليوناني بانقراض المدنية المصرية حتى لم يعد للمسائل الدولية في مصر أدنى شأن .

٢ — الاقتصاد السياسي عند قدماء المصريين

كانت مصر في بدء تاريخها خاضعة لسلطة الفرد أي لنظام حكومة ملكية . وكانت تنحصر موارد المعيشة في ذلك الوقت ، من الوجهة الاقتصادية ، في محصولات الارض الطبيعية . وكانت عوامل الانتاج من جوٍّ وارضٍ وعمال ، متحدة ومرتبطة ، لانماء موارد الرزق في ارض الفراعنة . وكان وادي النيل اصلاً عبارة عن ارض يغيّر الفيضان في كل سنة حالتها ، من حيث علاقتها بالمحصولات

وكانت عندهم قاعدة خاصة لمسح الاراضي ، يلتزمون تطبيقها من جديد بعد هبوط الماء . ومن هنا ظهرت في مصر أهمية المساحة وفك الزمام . وعلا كعبهم على مرّ الأيام في هذا السبيل حتى أن يوليوس قيصر ، استوفد بعض المساحين من مصر ليقوموا بمساحة ارض الغال (فرنسا الآن) التي فتحها حينذاك . وكان لا بد لكل مشتغل في الارض من شريك لهُ في العمل . وهذا الاشتراك لا يمكن تطبيقه على نقطة أو جزء معين ، بل على كل وادي النيل . ومن هنا نشأت الحاجة لادارة عامة ، أي السلطة التي تصدر تعليمات واحدة ، تطبق في كل جهة ومكان . وعليه صار تجنيد طائفة من العمال خاضعة لهيئة تشريعية تحلُّ الصالح العام المحل الأول من الاعتبار

وبالرغم من أن الزراعة في ذلك الزمن كانت هي ثروة البلاد ، فانها لم تكن النظام الطبيعي الوحيد المتعارف بينهم ، بل كان للصناعة أهمية كبرى بازاء الزراعة . فالنظام كان نظاماً اشتراكياً للحكومة . ويدلنا التاريخ على أن حكومة الفراعنة الملكية ، كانت عاملاً قوياً في رقي البلاد . ولم تكن الحكومة الا نوعاً من جماعات متضامنة تحمي المصالح العامة من اعتداء الافراد

فاهتمام الاهالي كان موجهاً بصفة خاصة الى الزراعة ، وربما لم يكن هناك ما هو اكثر تقدماً منها . وكانت التجارة وقتئذ ضئيلة جداً ، بخلاف ما كانت عليه عند الكلدانيين لانهُ لم يكن للمصريين علم كبير بالتجارة . وكان الشعب المصري بطبيعته محباً للسكينة والهدوء على العكس مما كان في المدن القديمة التي كانت مباءة للحروب المستمرة ، هجوماً او دفاعاً . فمصر كانت كما هي الآن ، بلاد الهدوء والعمل والنشاط . والفضل في ذلك راجع للري حيث كان من الممكن زراعة اشياء كثيرة مختلفة ، حتى في الوجه القبلي . فثروة مصر وكنوز أرضها ، كانت ثمرة اعمال اولئك الفراعنة الاقدمين . فكان الفراعنة اصحاب الارض وتعهد فلاحة الارض لرعاياهم . على أن اولئك المزارعين المجهدين لم يكونوا تحت رحمة مطامع السيد بل كانت هناك قواعد نظامية والشريعة الدينية كالمدنية على السواء تحرم قطعياً أن يحمل الرجل فوق ما يتحمل وكان عمل الرجل مقرراً بقوانين ملكية

وكان النشاط عاملاً في طول البلاد وعرضها فكنت ترى في كل مكان فرقاً مؤلفة من خمسة أو عشرة مزارعين . وكان الرئيس في عمله كالعامل البسيط إلاَّ انهُ كان يعطى لهُ عمل أقل منهُ نظير مراقبته وكانت الاعمال واحدة سواء في ارض الملك الخاصة أو في الارض الممنوحة للموظفين الحربيين والدينيين . وكان يعمل عن الجميع حساب دقيق . فيقيد الفلاحون المشتغلون في فلاحة الارض كما تقيد الاراضي نفسها وما يستغل منها وكان للحسبة في كل الازمنة شأن خطير في الادارة وخصوصاً في الاقتصاد السياسي عند المصريين فعند القدماء كان الكتبة يقعدون القرفصاء وأما الكتبة اليوم فيجلسون على مقاعد والكل يشتغلون على الدوام بذات النشاط وبذات الايدي . فاذا ادى الكاتب الامتحان وحصل على الشهادة صار مرشحاً لتولي أعلا المناصب فيمكن أن يصبح وزيراً أو والياً أو قائداً ولو انهُ ابتدأ عاملاً بسيطاً

وكانت الاراضي الزراعية تحت مراقبة الملك مباشرة ويقوم بفلاحتها جماعة من المزارعين يرئسهم ناظر . وكانت هذه الجماعات تقدم محصولات الارض للملك . وعلى هذا النظام كان يسير القائمون بالاشغال العمومية واصحاب الحرف والصنائع فينقسمون فرقاً فرقاً عدد كل منها ٥ أو ١٠ رجال ويعطى لكل من العمال نصيبهُ من الغلة من مخازن الملك فكانت معاونة وتضامن الافراد ضرورية وخصوصاً في بلد كمصر حيث كان العمل الاشتراكي لازماً

وكان اول واجبات المصري الفلاحة وإقامة الجسور وحفر الترع والخلجان وغير ذلك ويلي ذلك واجباته نحو عائلته ومواطنيه أعني زملائه في العمل ثم واجبه نحو الجميع

وكان يفتخر ملوك وحكام المملكة في الزمن القديم بأنهم نشروا ألوية العدل والاحسان وآسوا الفقراء والأرامل والايتام غير تاركين فرداً يئن تحت اثقال الحاجة والفاقة وبأنهم كانوا ذوي دماثة ورقة في الاخلاق . وكان الملك بينهم إلهاً منظوراً هو المدبر لأمور الزراعة والصناعة بطريقة لا تدع محلاً لسخرية رجال الاجتماع في العصر الحالي

ولنا في حسن إدارة الوالي « أميني » من العائلة العاشرة مثال حسن . لما عين الملك الوالي رئيساً لاحدى العشائر قال انهُ فلح الارض جهد استطاعته لكي تنتج محصولا جيداً لغذاء الاهالي وكان في أيام القحط يعطي عند وفرة المحصول ويرسل الى الملك ما يأتي اليه ويترك الملاك ولرؤساء الفرق ما زاد من المحصول الذي استثمروه بمعاونة عمالهم

وقد آلت الأراضي الزراعية في عهد الامنوفسيين الديموقراطي الاصل الى ملكية الانتفاع وصارت في عهد الرعامسة شبه ملكية . أما أراضي الملك الخاصة فقد بقيت على حالها بدون أدنى تغيير لنفوذ السلطة الملكية . على ان ما أعطاه الملوك لأقاربهم وما منحه الملوك الفاتحون لولاتهم وما جادوا به ايضاً على أولادهم المستحقين من الاراضي المعفاة من الخراج — كل هذا كان سبباً للخروج عن القاعدة المألوفة وآل الى نزع الملكية تدريجيًّا من يد الملوك . وهذه الاحوال الاستثنائية الجديدة سهلت الاصلاح على عهد رمسيس الثاني وأدت الى ملكية الافراد وازداد ذلك تدريجيًّا الى ان أفضى الى الاصلاح الذي اجراه بوخوريس وأمازيس في هذا الشأن

وبإزاء مسألة الملكية تعرض مسألة الوراثة بواسطة العشائر فانهُ لم يحصل تغيير في عوائد البلاد من حيث حالتها الاجتماعية فالابن كان يجب عليه أن يكون كما كان ابوه ولا يمارس الا ماكان يصنع هذا الأب ولذلك نرى انهُ قد حافظ ابناء في عائلات كثيرة بطيبة وممفيس على عهد اجدادهم في الصفات مدة أجيال عديدة. وقد بين هيرودوت وسقراط وافلاطون واسترابون وديودور عدد تلك الطوائف المصرية وأقدم هذه الطبقات طائفة الكهنة وعلى مثالها ظهرت فيما بعد الطبقة العسكرية وانتظم حال هذه الطبقات في زمن الرعامسة واختص رجال الدين شيئاً فشيئاً بأسرار العلوم . وقبضوا على زمامها بأيديهم وأبوا ان يلقوا بمفاتيحها لمن ليس من طبقتهم وحفظوها لابنائهم من بعدهم وكان رؤساء هياكل ممفيس وسايس يقومون بتأدية الوظائف المختلفة للملك فكان للكهنة اعظم شأن بين الناس بعد الملوك اجراء العدل فكان معبوداً لهم فقويت بذلك شوكتهم لدرجة أمكن بها لقسوس طيبة وآمون خلع الرعامسة وأسسوا بأنفسهم بعدها العائلة الحادية والعشرين

أثبت التاريخ ان رمسيس الثاني هو أول من أسس نظام العسكرية ووضع لهُ خطة مخصوصة يسير بموجبها وقد أفرد لطائفة العسكرية قسماً كبيراً من الاراضي المصرية لتوزع على أفراد هذه الطبقة ويكون لهم حق الانتفاع بها ولم يفعل سيزوستريس ذلك الا مكافأة للعساكر لقيامهم بواجب الدفاع وحماية الوطن من الغارات الشعواء من جيرانه كما اثبت ذلك شاعر رمسيس الثاني في قصائده التي وجدت في جداول وقد وهب هذا الملك للعساكر جانباً كبيراً من املاكه وأراضيه الخصوصية التي آلت اليهِ من طريق الإرث . ووجدت من الآثار أوراق تثبت أن وظائف القيادة العسكرية كان يتوارثها الابن عن أبيهِ وكان يمكن لأحقر جندي أن يصير ضابطاً أو رئيساً كبيراً في الدرجات العسكرية اذا أظهر كفاءة او مقدرة في حمل السلاح والقيام بالمهام الحربية . وكان باقي الاهالي في عهد رمسيس الثاني لا يملكون في الحقيقة الأ المواشي واما الاراضي فكلها كانت ملكاً للمليك ولهم حق فلاحتها والانتفاع بغلاتها وثمراتها فقط. ولكن في عهد بوخوريس تغير هذا النظام حيث وزع هذا الملك الاراضي على الاهالي وجعل لها حدوداً معينة ونظاماً مخصوصاً ومن هذا الحين عرف المصريون حق الملكية بعد ان كانوا لا يعرفون غير حق زرع الارض فقط

وقد ترتب على تحويل حقوق الملكية والانتفاع لبعض الطوائف المصرية مثل العساكر والكهنة تقييد باقي الطبقات الاخرى من الاهالي وحصر الانتفاع في تلك الطبقات الممتازة

﴿ نظام الوراثة عند قدماء المصريين ﴾ إن انتقال حقوق امتلاك الاراضي والمواشي والمحاصيل من ذرية إلى ذرية بلا انقطاع كان من شأنه أن يزيد في الخصوبة والنماء . هذا هو السبب الحقيقي في تقوية تلك الطوائف المصرية التي تملك الاراضي فان حصر الوراثة في ذريتها كان على الدوام سبباً لخصوبة الارض وتكاثر محصولاتها وزيادة عدد المواشي وحسن تربيتها وقد يخطيء الذين يظنون ان السبب الوحيد في تقوية هذه الطوائف هو لأغراض سياسية أي حصر حق الملك وحوزة الاراضي في أيدي فئة من الناس استأثروا بكل مرافق الحياة وخيرات الارض

وعلى كل حال فان تقسيم الشعب المصري إلى طوائف مختلفة ترتب عليه تقسيم الاراضي التي كان يملكها الملك ذاتها والكهنة والعساكر وبهذه الطريقة تحولت الاملاك الذاتية الى شبه التزامات متجددة

وفي حكم العائلة الثانية عشر سلمت بعض الممتلكات الخاصة بالملك وبالكهنة الى بعض الاخصاء للانتفاع بها واستغلال ريعها ولا شك في ان هذه الاملاك نفسها هي التي جرد منها فرعون موسى الرعاة كما جاء في التوراة . — وبعد طرد هؤلاء الرعاة ابتدأ تقسيم الاراضي على الصورة التي مرَّ ذكرها ومن المرجح أن فرعون مصر هو رمسيس الثاني او سيزوستريس

— ١٠ —

وهذا الملك هو الذي يعزى اليه تقسيم الاراضي المصرية وتوزيعها على طوائف مختلفة ووضع ضرائب مخصوصة لها

ومع ان البلاد كانت منقسمة في ذلك العهد الى قبائل وطوائف فان روح التعاون وتبادل المنفعة كان سائداً بين هذه الطوائف والقبائل حتى يخيل للناظر الى حالتها العمومية أنها أفراد عائلة واحدة

وفي عهد العائلة الحادية والعشرين الدينية والعائلة الاثيوبية التي اعقبتها كان الملك الحقيقي والاله في مصر (آمون) الذي كان قابضاً على السلطتين الدينية والمدنية معاً . وفي ذلك العهد أخذت تتقلص المبادىء الاقتصادية التي وضعها ملوك مصر في عهد رمسيس وكذلك سقط مبدأ فصل السلطات المختلفة عن بعضها . واختلطت اموال الملك بأموال الكهنة وأصبح رجال العسكرية بمثابة خدم ومنفذين لأوامر الكهنة ، وأما طائفة الاشراف فأخذت في الزوال والاضمحلال

وفي ذلك العهد صار رب كل عائلة هو صاحب النفوذ الاعلى والمرجع الاخير هو بالاشتراك مع زوجته الشرعية يستخدم من شاء في فلاحة ارضه واستغلال خيراتها

وفي عهد آمون الاله والملك في العائلة الحادية والعشرين والعائلة الاثيوبية كان له اخصاء واصدقاء في منزلة أشراف المملكة هم بمثابة حاشية خصوصية له

وأما باقي المزارعين والعمال وغيرهم من طبقات الشعب فلم يكونوا وقتئذٍ الا خداماً للاله . وكانت توزع عليهم سنوياً الاراضي للاشتغال فيها . وكان الوسيط بين هؤلاء الفلاحين وبين الملك هم هؤلاء الاخصاء والاصحاب . وقد وجد هذا النظام في عهد أمازيس ايضاً وهذا الحاكم كان يمثل صورة رب العائلة في طبقات عامة . وقد ترك هذا النظام الخاص بطبقتي الاشراف والعامة اثراً ظاهراً محسوساً في أخلاق الامة

وبالجملة فان شكل تقسيم الامة الى طوائف وقبائل مختلفة الطبقات في وادي النيل ابتدأ في عهد ابوخوريس ، ثم في عهد امازيس ، الذي في وقتهِ انشىء نظام الطوائف والقبائل ووضعت القوانين لحماية العمال من اضرار مبادىء الاستقراطية (سطوة الاشراف)

وقد وضع امازيس في قوانينه كل ما يهم في النظامات الخاصة بالاقتصاد السياسي وبين هذه القوانين الاقتصادية السياسية وضعت قوانين خاصة بالعمل وقد استعان الملك أمازيس في عهده بجمعية وطنية للنظر فيما يلزم إدخاله من الاصلاحات العمومية في البلاد . وهذا ما ساعد على حفظ مركزه أمام رجال الدين وأصحاب المبادىء الارستقراطية

ومن مآثر هذا الملك أيضاً أنه وضع نظاماً آخر لتوسيع دائرة الحرية الشخصية ، وبيان

ذلك انه كان يوجد قبل عهده في كل هيكل من الهياكل المصرية سجل خاص تذكر فيه احصائيات دقيقة عن عدد الاهالي في كل قسم والاراضي التي يمتلكونها

وكان في كل قسم هيكل خاص كان الهه هو سيد هذا القسم وحاكمه فرأى أمازيس ان يلغي هذا السجل ويجعل الاقسام كلها موحدة وتابعة لسلطته العليا . ولكن سجلات الهياكل بقيت طول مدة حكم العائلات الاثيوبية موجودة الى جانب السجلات الملكية التي انشأها ذلك الملك

﴿ طريقة التعامل والبيع والشراء ﴾ كان المصريون القدماء يتعاملون في أسواقهم بطريق التبادل بالاشياء مع جعل القمح الاساس في المعاملة لانهُ من أهم الحاجيات وأما المعادن ذات القيمة فكانت تحفظ لذوي السلطة والمقام

وقد أخذ المشرعون الاحتياطات اللازمة ليجعلوا النقود من مظاهر الابهة والعظمة في أيدي الكبراء. وفي اول عهد المصريين القدماء لم تكن النقود معروفة بالمرة وبقيت طريقة التبادل بالاشياء ذات القيمة جارية ومستعملة عندهم مدة طويلة وعلى ذلك كانت مبادىء الاقتصاد السياسي في عهدهم غير مؤسسة على مبدأ المعاملة بالنقود باعتبار انها مقياس لقيمة الاشياء والمبنية على قاعدة الاخذ والعطاء بل كانت مبنية على مبدأ الواجب والاحسان

ومن جملة المبادىء الاقتصادية التي تقررت في ذلك الوقت انه لا يجوز تثمين الاراضي وبيعها بالنقود وعليه لم تستعمل النقود في المعاملات إلاَّ في عهد أمازيس ومن ثمَّ صارت العقود كتابية وبالنقود

على ان كل هذه النظامات والقوانين الجديدة لم تغير شيئاً من نظام الاقتصاد السياسي الذي كان معروفاً منذ القدم في هذه البلاد بل ان مصر بقيت مدة طويلة تتخذ القمح اساساً لمعاملاتها الاقتصادية حتى انهُ بعد استعمال النقود بقي القمح حافظاً قيمته باعتباره من أهم الاشياء المستعملة في التعامل والتبادل وبقي في مصر القديمة خزينتان احداها خزينة النقود والاخرى خزينة الغلال وهي المخازن الملكية

ويظهر ان التقاليد والمبادىء الاقتصادية التي كان يعوّل عليها المصريون القدماء هي التي جعلها الرومان واليونان فيما بعد أساساً لمعاملاتهم وخصوصاً في عهد الملك قسطنطين . وقد وجدت في آثار البطالسة كتابات كثيرة ذكرت فيها كيفية تقسيم الارض في ذلك الزمن القديم . ووجدت مثل هذه الآثار في رشيد

وقد اقتبس الرومانيون من مشايعة امازيس كل ما يتعلق بسلطة اصحاب الاموال وأسياد القبائل والعائلات وتحديدها وما يتعلق بتوسيع دائرة الحرية الشخصية بعد ان كانوا قد تركوا هذه النظامات وصارت منسية

ان آثار هذه المبادىء الاقتصادية بقيت معمولاً بها في مصر الى نحو القرن الثامن عشر وخصوصاً فيما يتعلق بممتلكات الملك الحاكم حيث كانت الارض توزع سنوياً وكان نظام الحاسبجي والمحتسب والملتزم عندهم من بقايا ذلك النظام المصري القديم

والاراضي التي كانت توزع على الفلاحين سنوياً يقومون هم بفلاحتها وزراعتها ويدفعون الخراج عنها وكذلك في الوجه البحري وإلى ذلك العهد اتبع النظام نفسه الذي كان معمولاً به في عهد الملك « امازيس » وهذا مما يدل على ان علم الاقتصاد السياسي كان في ابان تقدمه في ذلك العصر القديم وهو كغيره من الفنون والعلوم المصرية القديمة بلغ اوج التقدم والنجاح ومنهُ اقتبست الامم والشعوب المتأخرة ما مهد لها السبيل في جعل هذا العلم من العلوم العصرية المستقبلة وقد وضعت في هذه الايام المؤلفات الكبيرة والمجلدات الضخمة في شرح مبادىء هذا العلم والفضل في ذلك كله لاجدادنا المصريين القدماء كما يشهد التاريخ



تراث مصر الفنى والمعمارى

للأستاذ محرم كمال
الامين المساعد بدار الآثار المصرية

ان اللذة المتصلة بدراسة الفن المصري القديم آتية عن طريق توغله في القدم . ولا عجب فاننا نرى فيه المحاولات الاولى لتمثيل ما بلغ فيما بعد ، وفي بعض البلاد الاخرى ، درجة عظيمة من الكمال والاتقان . ويمكننا أن نرى فيه النواة الاولى لشيء كثير ، درج به قوم ، يقدرون الشعور ويشعرون بالجمال ، في طريق التمدن والتحسين . فمصر ، منذ العصور الاولى ، قد تركت أثراً ظاهراً من حيث فني الزخرفة والعمارة وغيرها في الاقوام الآخرين الذين كانوا على درجة من الرقي أقل من درجتهم ، او الذين بدأوا ينفضون عنهم غبار البربرية والتوحش . وأن النقوش المتعارفة من أزهار اللوتس ورسوم أبي الهول وغير ذلك من الحيوانات الخرافية التي كانت ترسم على الخزف الاغريقي وعلى الجدران ، شأنها في ذلك شأن الفهود وغيرها من الطيور والحيوانات التي كانت ترسم على الاواني وغيرها من الادوات ، يظهر ان لها صلة بالخيال المصري القديم ، أو بعبارة أوضح وأصح أنها مأخوذة عنه ومستعارة منه .

لقد كانت عادة الناس ، كما هي الآن ، أن يستعيروا فنونهم وصناعاتهم من غيرهم ممن وصلوا الى درجة من الرقي والحضارة تفوق درجتهم ، وعلى ذلك فقد كانت الامة المتفوقة على غيرها في الفن هي التي تقود باقي الامم . وعلى الرغم من أن بعض هذه الامم قد أدخل تغييراً على ما استعاره من فن من الخارج لكي يكسبه طابعاً خاصاً به الا أن الفكرة الاصلية يمكننا دائماً ان نتتبعها وأن نتعرفها وأن نرجعها الى المصدر الذي أخذت عنه .

ولقد استمرت مصر مدة كبيرة الامة السائدة غيرها . ولقد ادى اختلاطها بغيرها من الامم ، سواء أكان ذلك الاختلاط للتجارة أو في الحرب ، إلى أن انتشر الذوق المصري ، ذوق اعظم أمة متمدينة في ذلك العهد في بلاد عديدة ، فها هو رخام ومرمر نينوى الذي يرجع عهده الى عصر سنحاريب ينطبع عليه رسم الشمس ذات الجناحين وغير ذلك من الرموز المصرية المعروفة التي أسست عليها عناصر فن الزخرفة الاشوري .

وخلاصة القول أنه بينما كانت اليونان تغط في نومها كانت مصر تحمل علم الفنون ومصباح المعرفة تنير بقبسه البلاد المجاورة . بل بينما كانت اليونان في مهدها كان ذكر مصر ، من حيث عظمتها وبهائها ، ثروتها وقوتها ، قد طار فعم البلدان ، واعترف لها الجميع بالتفوق ، بل بمنصب الاستاذية في الحكمة والمدنية . فلا غرابة اذن ، والحالة هذه ، في أن أخذ الاغريق عنهم كثيراً من الاشكال المصرية . صحيح ان ذوق هؤلاء القوم المطبوعين الفني هو على درجة كبيرة من الجلال والروعة ، اولئك القوم — ونعني بهم الاغريق — الذين سرعان ما ارتقوا بالفن إلى درجة من الابداع لم يصل اليها مصري ولا غير مصري من قبل ، ولكن لمن الفضل في ذلك ؟

الفضل للمصري بلا نزاع . فاذا اردنا أن نتعرف نواة الفن والعمارة الاولى فيجب علينا ان نبحث عنها ، ونبحث عنها في وادي النيل

***

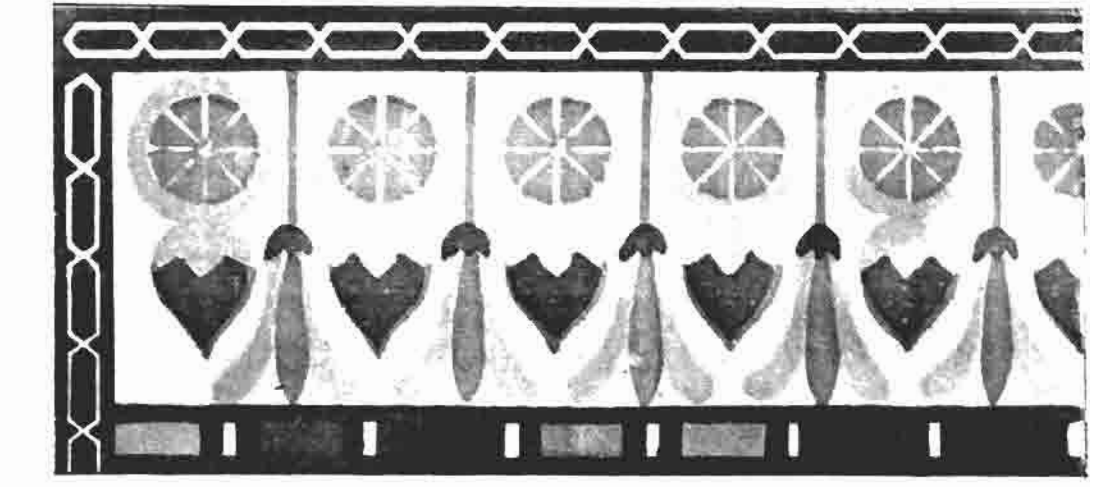
الآن وقد انتهينا من هذه المقدمة يجدر بنا ان ننتقل الى ذكر اكتشاف غيّر وجه التاريخ وزاد في رخاء العالم وتقدمه ، اعني اكتشاف المصريين للنحاس وما ترتب على ذلك من صناعة الاسلحة والادوات التي لم يكن الفن ليرقى الا بواسطة استعمالها في مختلف شؤونه ومظاهره

فحوالي عام ٤٠٠٠ ق . م على اقل تقدير خرج مصري فضرب خيامه وأوقد ناراً فاذا بالنار تلتهب ، واذا به يجد في اليوم التالي مكانها معدناً يتوهج بانعكاس أشعة الشمس عن سطحه البرّاق. أثار الامر عجبه وسروره فكرر العملية فاذا به يحصل على نفس المعدن وإذا به يصنع منهُ الحلى اولاً ثم يتدرج فيصنع منهُ نصل مديته لكي تحل محل مدية الظرّان التي كان يضعها في حزامه

وفي لحظة واحدة انتقل العالم من حال الى حال ، فقد كان هذا المصري المتجول واقفاً على باب عصر جديد ، عصر المعادن . وكانت هذه القطعة الصغيرة من النحاس اللماع التي التقطها من رماد النار بشيراً برؤية بهجة ، بحلم جميل تصطخب فيه معامل اوربا وامريكا بآلاف الآلات ، وتمتلىء فيه الطرق الحديدية بملايين القاطرات . فكل مظاهر حضارة العالم الحديث وما تعنيه لنا لم تكن لتظهر في الوجود لولا هذه القطعة الصغيرة من المعدن ، التي حملها المصري الجوال في يده لاول مرة في ذلك اليوم العظيم منذ آلاف السنين

فمصر باكتشافها معدن النحاس أحدثت حدثاً كبيراً ظهر أثره في آسيا واوربا على السواء . اما في مصر نفسها فقد بدأ ارسال الحملات الى الحدود لجلب النحاس والخشب وغيرهما من المواد اللازمة للصناعات . فمنذ عصر الاسرة الاولى ابتدأ المصريون في استغلال مناجم شبه جزيرة سينا لاستخراج النحاس الخام وفي الالف الثالثة قبل المسيح كانت اساطيل مصر تتاجر في البلاد الاجنبية ، فتستجلب خشب الارز من لبنان في الشمال وكانت البعثات ترسل لجلب المر والراتينج والخشب والذهب من بلاد بنت في الجنوب ويذهب المؤرخ ماير Meyer الى اكثر من ذلك فيقول أن فلسطين والساحل الفينيقي كانا في عصر الدولة القديمة مستعمرات مصرية

ومما لا شك فيه ان اختلاط الاجانب بالمصريين قد أحدث أثراً كبيراً ، ليس في المصريين فحسب ، وانما على الاخص فيمن اختلط بهم من الاجانب . فان اهالي القسم الشمالي من سورية تعلموا استعمال النحاس دون شك من أثر هذا الاختلاط ولا ريب في ان معرفة هذا الاستعمال قد انتشرت بعد ذلك سريعاً ، شرقاً في بلاد ما بين النهرين ، وشمالاً في آسيا الصغرى ، ثم ان هؤلاء الاسيويين أدخلوا استعماله في اوربا — ولم يكن هذا هو الطريق الوحيد لانتقال فنون

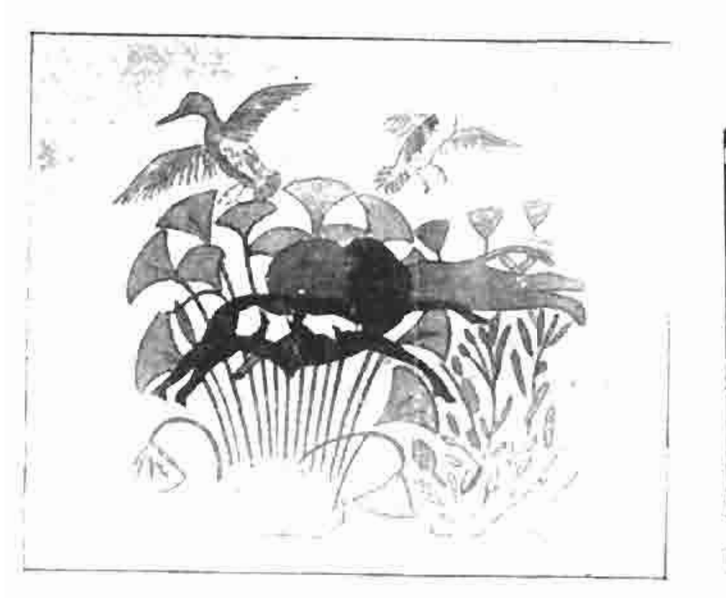


صورة رقم ١ (أ) — شريط يمثل الوريدات او الزهيرات الصغيرة المستديرة

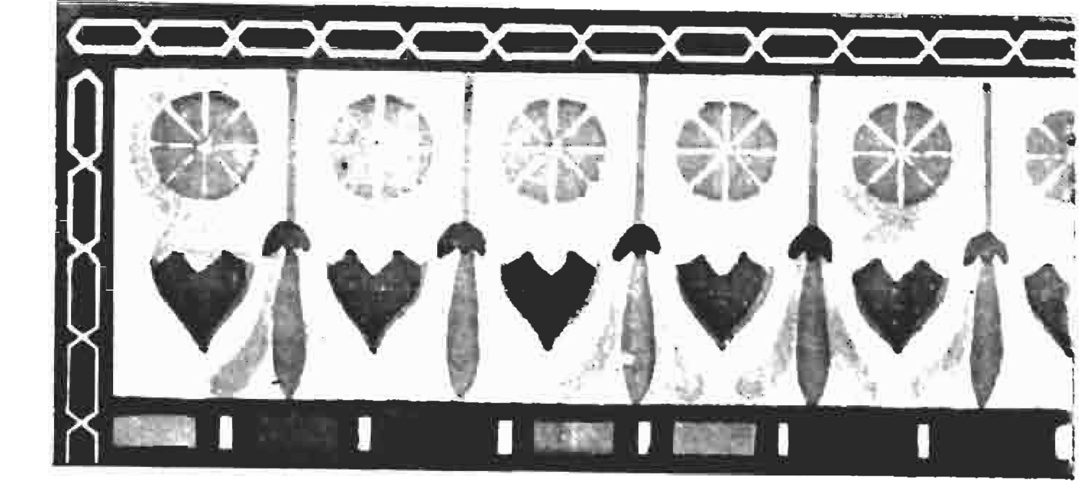
صورة رقم ١ (ب) شريط يمثل زهرة اللوتس في وضع مقلوب ثم ورقة العنب والعنقود



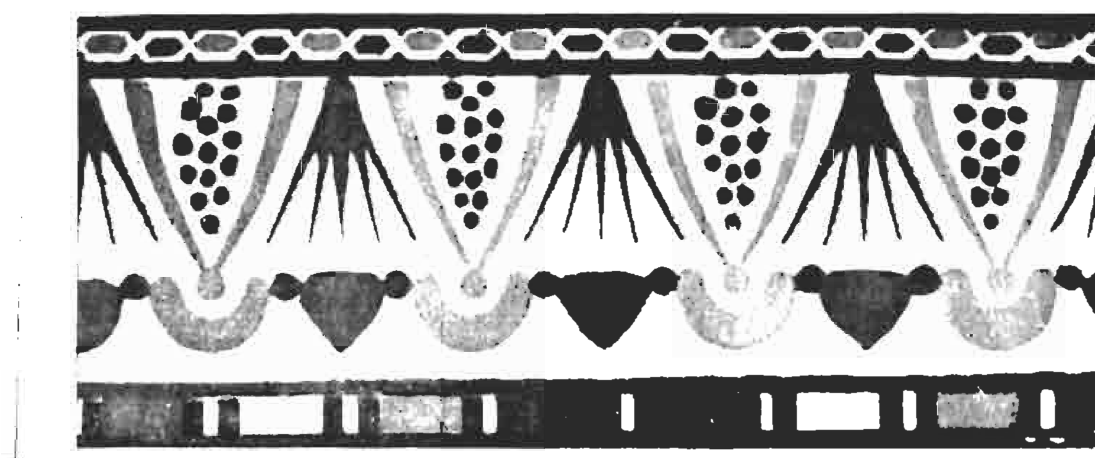
صورة رقم ٤ — (أ)



صورة رقم ٤ — (ب)



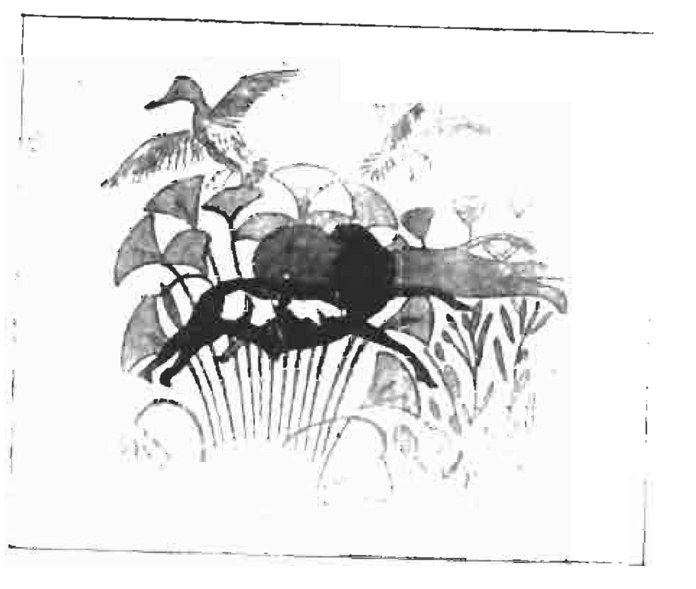
صورة رقم ١ (أ) - شريط يمثل الوريدات او الزهيرات الصغيرة المستديرة



صورة رقم ١ (ب) شريط يمثل زهرة اللوتس في وضع مقلوب ثم ورقة العنب والعنقود



صورة رقم ٤ — (أ)



صورة رقم ٤ — (ب)

(ص ٨١)

قدماء المصريين وصناعاتهم الى العالم الغربي إذ ان هناك ساحل افريقية الشمالي وهو الذي قد تكون انتقلت منهُ الحضارة ايضاً الى كريت وبلاد الاغريق وصقلية وغيرها من الجزر ثم الى سردينيا

ونحن لا ندّعي هنا ان حضارة اوربا كلها مأخوذة من مصر ، وانما نقول ان مصر في ذلك الوقت كان مثلها مثل العضو الاكبر في عائلة يأخذ عنهُ باقي افراد العائلة الكثير من عاداتهم وأخلاقهم، فلما انتقلت مصر من العصر الحجري الى عصر المعادن ترتب على ذلك تقدمهم السريع في مدارج الحضارة ، فكان لمهارتهم في مختلف الصناعات والفنون أثر كبير تناقله العالم من جار الى جار فرفع مستواهم هم ايضاً . وليس أدل على ذلك من ان اهالي جنوب ايطاليا بعد ان كانوا يدفنون موتاهم في حفر يهيلون عليها التراب ترقوا فحفروا مقابرهم في الصخور او اقاموها من الأحجار . فهذا الترقي الذي هو صورة طبق الاصل من طرق قدماء المصريين في دفن موتاهم في العصر الواقع بين الاسرتين الرابعة والسادسة لا يترك مجالاً للشك في انهُ مقتبس عن المصريين القدماء

نحن نعلم انه منذ عصر الأسرة الثالثة بدأت المباني العظيمة من الحجر في مصر، فاذا وصلنا الى الاسرة الرابعة وجدنا خوفو وخفرع ومنقرع يقيمون أهرامهم الهائلة من كتل عظيمة من الأحجار ، هي ومعابدهم الجنازية المجاورة لها . لذا فانهُ من المفهوم أن تحاول الامم الاخرى التي كانت تنظر لمصر كمهد للوحي والارشاد أن تقلد مباني المصريين الهائلة ، دون أن تكون لديهم المهارة والمقدرة الكافية لاتقانها ، ودون ان يفهموها تماماً في بعض الاحيان . وأظن أن القراء الآن قد أصبحوا مستعدين ومهيئين لسماع تفصيلات هذا التقليد وهذه الاستعارة أو بعبارة أخرى تفصيل ما أعطتهُ مصر للعالم أجمع في فني الزخرفة والعمارة

فمن حيث الزخرفة لا نكون مغالين إذا قلنا أن العالم مدين في زخارفه للمصريين . فهناك زخارف عديدة اقتبسها الاشوريون والفرس من مصر ثم انتقلت منهما الى الاغريق ثم الى الرومان ثم انتشرت بعد ذلك في جميع انحاء أوربا . وليس في وسعنا أن نحيط هنا بجميع أطراف الموضوع وانما نكتفي بايراد بعض الأمثلة ، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

فمثلاً زهرة اللوتس المصرية انتقلت الى كثير من الشعوب الاخرى وظهرت في فنونهم في أشكال مختلفة ، فقدت في بعضها مشابهتها للطبيعة وأصبحت رسماً هندسيًّا بعيداً عن محاكاة الطبيعة . وهذا الأمر نفسه ، أعني به التقليد دون فهم، يحمل في جوانبه الدليل الكافي على الاقتباس والاستعارة

فالرسمان اللذان نقدمهما هنا أولهما يبين زهرة اللوتس في الزخارف المصرية . وهنا أرجو ملاحظة زهرة اللوتس في وضع مقلوب ثم ورقة العنب والعنقود في الشريط السفلي (انظر الصورة رقم ١—ب) كما أرجو ملاحظة الوريدات أو الزهيرات الصغيرة المستديرة في الشريط العلوي (صورة رقم ١—ا)

قدماء المصريين وصناعاتهم الى العالم الغربي إذ ان هناك ساحل افريقية الشمالي وهو الذي قد تكون انتقلت منهُ الحضارة ايضاً الى كريت وبلاد الاغريق وصقلية وغيرها من الجزر ثم الى سردينيا

ونحن لا ندّعي هنا ان حضارة اوربا كلها مأخوذة من مصر ، وانما نقول ان مصر في ذلك الوقت كان مثلها مثل العضو الاكبر في عائلة يأخذ عنهُ باقي افراد العائلة الكثير من عاداتهم واخلاقهم، فلما انتقلت مصر من العصر الحجري الى عصر المعادن ترتب على ذلك تقدمهم السريع في مدارج الحضارة ، فكان لمهارتهم في مختلف الصناعات والفنون أثر كبير تناقله العالم من جار الى جار فرفع مستواهم هم ايضاً . وليس أدل على ذلك من ان اهالي جنوب ايطاليا بعد ان كانوا يدفنون موتاهم في حفر يهيلون عليها التراب ترقوا فحفروا مقابرهم في الصخور او اقاموها من الأحجار . فهذا الترقي الذي هو صورة طبق الاصل من طرق قدماء المصريين في دفن موتاهم في العصر الواقع بين الاسرتين الرابعة والسادسة لا يترك مجالاً للشك في انهُ مقتبس عن المصريين القدماء

نحن نعلم انه منذ عصر الأسرة الثالثة بدأت المباني العظيمة من الحجر في مصر، فاذا وصلنا الى الاسرة الرابعة وجدنا خوفو وخفرع ومنقرع يقيمون أهرامهم الهائلة من كتل عظيمة من الأحجار ، هي ومعابدهم الجنازية المجاورة لها . لذا فانهُ من المفهوم أن تحاول الامم الاخرى التي كانت تنظر لمصر كمهد للوحي والارشاد أن تقلد مباني المصريين الهائلة ، دون أن تكون لديهم المهارة والمقدرة الكافية لاتقانها ، ودون ان يفهموها بتاتاً في بعض الاحيان . وأظن أن القراء الآن قد أصبحوا مستعدين ومهيئين لسماع تفصيلات هذا التقليد وهذه الاستعارة أو بعبارة أخرى تفصيل ما أعطتهُ مصر للعالم أجمع في فني الزخرفة والعمارة

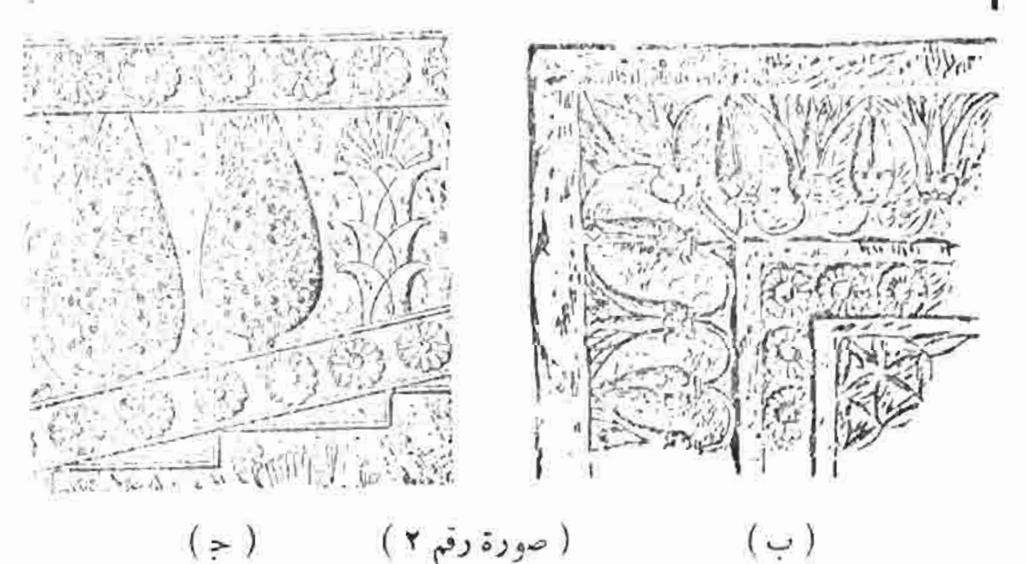
فمن حيث الزخرفة لا نكون مغالين إذا قلنا أن العالم مدين في زخارفه للمصريين . فهناك زخارف عديدة اقتبسها الاشوريون والفرس من مصر ثم انتقلت منهما الى الاغريق ثم الى الرومان ثم انتشرت بعد ذلك في جميع انحاء اوربا . وليس في وسعنا أن نحيط هنا بجميع أطراف الموضوع وانما نكتفي بايراد بعض الامثلة ، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

فمثلاً زهرة اللوتس المصرية انتقلت الى كثير من الشعوب الأخرى وظهرت في فنونهم في أشكال مختلفة ، فقدت في بعضها مشابهتها للطبيعة وأصبحت رسماً هندسيًّا بعيداً عن محاكاة الطبيعة . وهذا الأمر نفسه ، أعني به التقليد دون فهم، يحمل في جوانبه الدليل الكافي على الاقتباس والاستعارة

فالرسمان اللذان نقدمهما هنا أولهما يبين زهرة اللوتس في الزخارف المصرية . وهنا أرجو ملاحظة زهرة اللوتس في وضع مقلوب ثم ورقة العنب والعنقود في الشريط السفلي (انظر الصورة رقم ١ — ب) كما أرجو ملاحظة الوريدات أو الزهيرات الصغيرة المستديرة في الشريط العلوي (صورة رقم ١ — ا)

اما الرسم الثاني (صورة رقم ٢) فانهُ يرينا زهرة اللوتس بعينها كما نقلها الفينيقيون وأهالي جزيرة كريت «وهذا في الصورة العليا (ا) » أما في الصورة اليمنى (ب) فنراها بعد أن انتقلت الى الاشوريين ، نرى الزهرة بشكلها المصري تماماً كما نرى ايضاً الوريدات الصغيرة المستديرة التي سبق رؤيتها في الشكل المصري ، ثم نرى في الصورة اليسرى (ج) كيف تطورت زهرة اللوتس عند الفرس فأصبحت شبيهة بالزنبق ، وهذا الشكل نفسه شكل مصري آخر لزهرة اللوتس ظهر في فن تل العمارنة على الخصوص . اما الوريدات المستديرة فهي ظاهرة في هذه الصورة ايضاً وهي تدل على انتقالها من مصر الى هذه البلاد بعينها التي أعطتها بدورها الى اوربا

(ا)



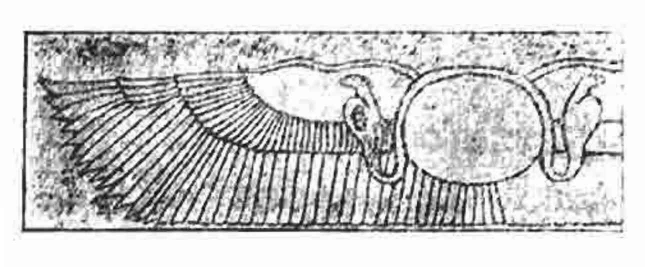
(ب) (صورة رقم ٢) (ج)

ثم هناك ايضاً الخطوط المنحنية او المنحنيات في الزخرفة كما نجدها في سقف مقبرة نفر حوتب فهذه ايضاً قلدها اليونان تقليداً هندسيًّا أعمى لم يفهموا فيه دقائق هذه الزخرفة المصرية فظهرت غريبة كما نجدها في حلية صدر من مسينا

وهذا كله يكفي للدلالة على أن زخارف الفن المسيني (الاغريقي) هي بنفسها زخارف الفن المصري القديم ، وان التغيير الذي أدخل عليها فبدَّلها من الشكل الطبيعي الى الشكل الرمزي

والهندسي كله حدث من جانب الفن المسيني وهذا يوصلنا حتماً الى النتيجة الآتيه : ، وهي ان الفن المسيني هو الذي استعار هذه الزخارف والرسوم من الفن المصري ، وأنها لم تنشأ مستقلة قائمة بنفسها في بلاد الاغريق

لنترك زهرة اللوتس الآن والوريدات المستديرة والمنحنيات أو الموجيات وننتقل الى شكل زخرفي آخر نجده مرسوماً على ابواب المعابد وغيرها من المباني الفرعونية أعني قرص الشمس الممتد منهُ أجنحة على الجانبين . فهذا الرسم الزخرفي الذي كان يمثل في الاصل عند المصريين الهم الذي على شكل صقر وهو اله الشمس مرفرفاً بأجنحته عند ما يطير في السماء «صورة رقم ٣ (ا) » نقلهُ الحيثيون (اعني أهالي آسيا الصغرى) ومنهم انتقل الى اشور بشكله المصري في رسم على الحجر الاسود اقامهُ ملك اشوري بقصره على نهر دجلة حيث يرى قرص الشمس ذو الاجنحة



صورة رقم ٣ (ا)



صورة رقم ٣ (ب)

يرفرف امام ملك اشور الذي وقف يتقبل فروض الطاعة من ثلاثة من اليهود ، ونجده بشكل متغير معدل في رسوم أخرى نرى فيها قرص الشمس وقد رسموا فيه صورة الههم اشور ، اله الحرب الذي وحدوه بالشمس ورسموه وهو يطلق سهامه ، يحيط به جناحان كالجناحين اللذين يحيطان بقرص الشمس المصري« صورة رقم ٣ (ب) » . ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب ، بل ان هذا الرسم الزخرفي قد انتقل ايضاً الى الفرس حيث نجده في الرسوم التي عملها دارا الاول على صخور بهستون ، وذهب الى أبعد من ذلك فظهر في بلاد المكسيك

فاذا أجهدنا البحث والاستقصاء عن قرص الشمس بعد أن تتبعنا تطوره الى امريكا عدنا بسلام الى مصر ومسينا نعقد بينهما الموازنة (صورة رقم ٤) فنجد خنجراً مسينيًّا « الرسم (ا) » على مقبضه رسم يمثل فهداً يجري في اثر احد الطيور وقد أمسك بواحد منها بين الاعشاب وسيقان البردي النابتة في ارض مستنقعة . فهذا الرسم لهُ نظير ، بل اذا اردنا الدقة قلنا لهُ اصل في النقوش المصرية«انظر الشكل رقم ٤(ب)» . هذا الاصل هو قطعة من ارضية قصر تل

العمارنة نجد فيها رسم فهد يصارع ثوراً بين سيقان البردي والطيور ترفرف من حولها

فالمقابلة بين هذين الرسمين ، ولا سيما بين القوائم الخلفية للفهد في كلا الرسمين وهو يقفز جارياً وراء غنيمته بشكل امتدت فيه هاتان القائمتان الخلفيتان بشكل مستقيم الى الخلف ، نقول تلك المقابلة تفضي بنا لا شك في آخر الأمر الى اليقين بما بين الفنين من صلة ، نعني صلة تقليد الفن المسيني للفن المصري القديم تقليداً عظيماً . ورب شخص يتساءل بعد هذا فيقول : لم أتكلم عن فن الزخرفة والرسم هذا فأورد عنه الأمثلة دون ان اتحدث عن الفنون الصناعية ؟ فهذا اعتراض وجيه اخاف إن انا اهملته ان يظن البعض ان المصريين القدماء لم يقدموا للعالم شيئاً في هذا الفن

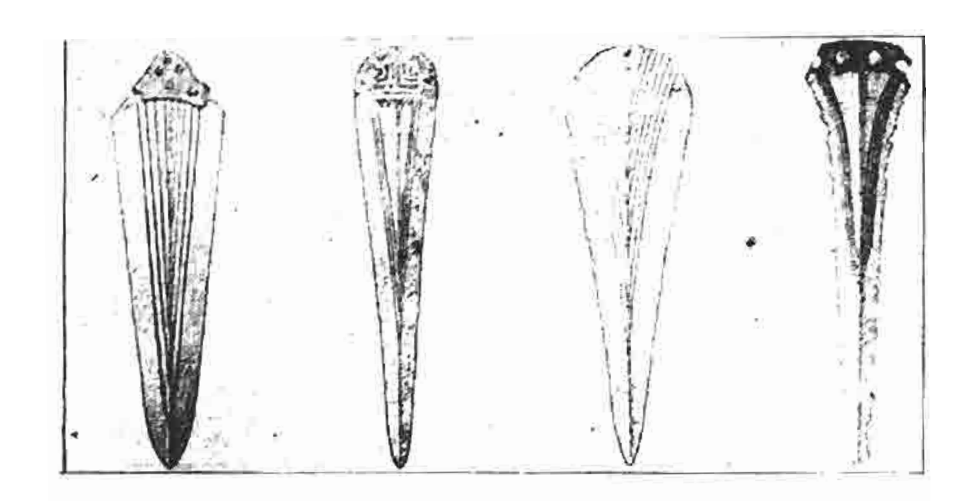
والواقع ان المصريين القدماء قد قدموا الشيء الكثير وهاهو المثال عليه : لدينا آنية مصرية «صورة رقم ٥ (ا)» وجد رسمها في مقبرة رخمارع في طيبة ، فهذه الآنية نفسها« رقم٥ (ا)» نجدها مقلدة في آنيتين ذهبيتين عثر عليهما في مسينا احداها (هي رقم ٥ ب) تتفق في الشكل مع الآنية المصرية وعليها المستطيلات العمودية الزخرفية التي تشاهد على الجزء الاسفل من الاناء المصري ، وفي الاناء المسيني الآخر صورة رقم ٥ (ج) نجد نفس الوريدات المستديرة التي في القسم الاعلى من الاناء المصري . اما غطاء الاناء المصري الذي عمل على شكل رأس حيوان من المعدن فيذكرنا برأس ثور من الفضة عثر عليه في مسينا ايضاً ، ربما كان هو ايضاً غطاء لاناء

وليس هذا هو الاناء الوحيد المشابه لآنية مسينية بل ان هناك اواني مسينية كثيرة تشبه عدداً كبيراً من الاواني المرسومة على جدران هذه المقبرة في الشكل والزخرفة



(صورة رقم ٦)

والآن فلنذكر مثالاً آخر (صورة رقم ٦) لاوان وقنان صنعت من الزجاج الملون ومن المرمر ، أصلها مصري (كالذي في اقصى اليسار) ثم انتقلت بعد ذلك الى بلاد بابل (وهو الاناء الذي في الوسط) والى ايطاليا القديمة (وهو الذي الى اليمين) ثم انتشرت بعد ذلك بين امم حوض البحر الابيض المتوسط حيث اصبحت هي الشكل المتداول استعماله لوضع العطور والطيوب وغيرها . في هذا المثال الذي نتكلم عنه نجد ان الاواني المقلدة في بابل وايطاليا القديمة هي في مطابقة شكلها وزخرفتها تمام المطابقة للاواني والقناني المصرية

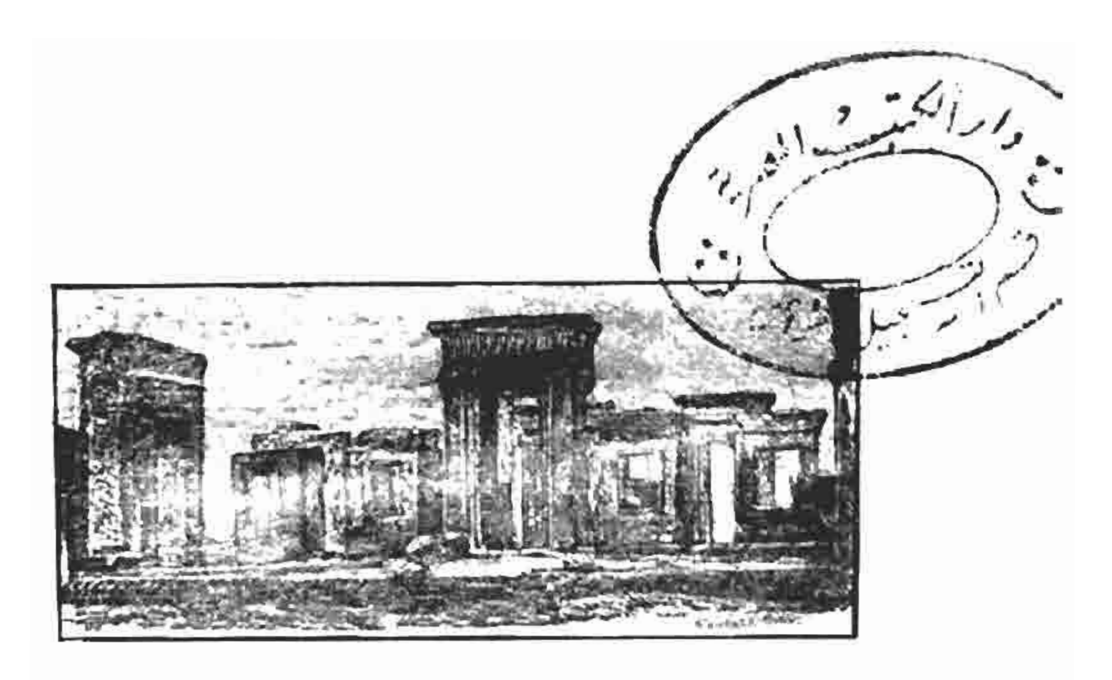


صورة رقم ٨

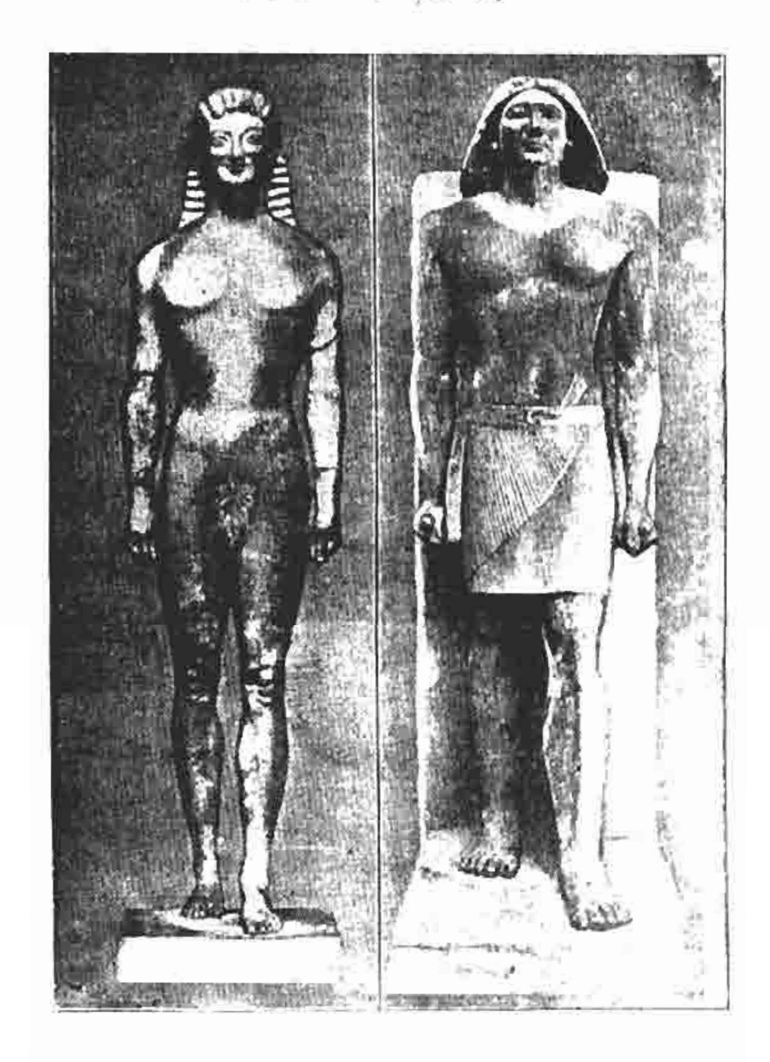




صورة رقم ١٠



صورة رقم ١٨ — (ب)



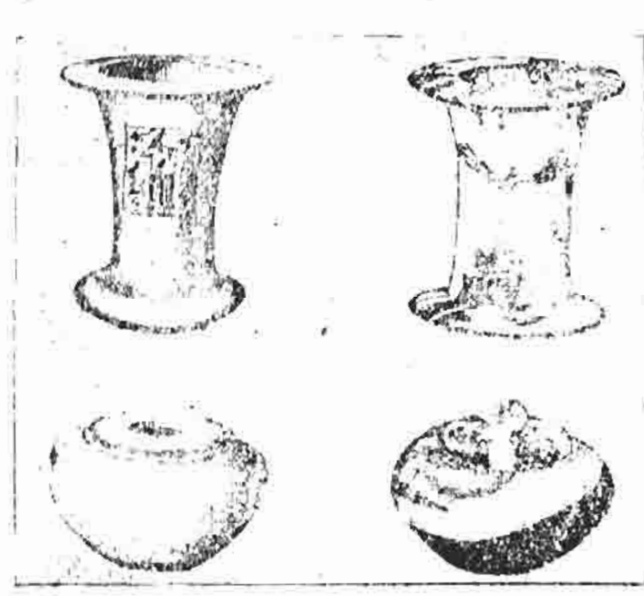
صورة رقم ١٩

وليس هذا هو كل ما في الامر بل إن لدينا أواني من الفضة والبرونز كان الفينيقيون يصنعونها في صور وصيدان (صيدا) ويزخرفونها بأشكال مصرية تمثل موضوعات مصرية كما يتضح لنا ذلك في آنية من الفضة محلاة بالزينة المصرية (صورة رقم ٧) نرى فيها (في الدائرة الوسطى الداخلية) ملك مصري يظلله قرص الشمس ذو الاجنحة وهو يرفع دبوسه باحدى يديه ليهوى به على رؤوس الاسرى الراكعين أمامه وهو (اي الملك) يمسكهم من شعورهم باليد الاخرى

بل ان هناك ما هو اكثر من ذلك . فالمجموعة الظاهرة بالصورة (رقم ٨) مكونة من اربعة نصال من النحاس والبرونز فقدت مقابضها فهذه الاسلحة ترينا كيف انتقل الشكل المصري من مصر (اقصى اليسار) الى إيطاليا (يليه جهة اليسار) ثم الى جبال جورا ..... (يليه الى اليمين) ثم الى دانمارك والبلاد السكندنافية (اقصى اليمين) وهي من الوضوح بحيث يمكن المرء من اول نظرة الحكم بمقدار تأثير الفن المصري في ذلك

ونحن لا نضيف الى الكلام الصامت الذي تنطق به هذه الصورة سوى ان السيوف التي ظهرت في اوربا الغربية بعد ذلك بزمن ان هي الا خناجر مصرية قديمة قد زادوا سلاحها طولاً

والآن لنتجه بأفكارنا إلى حضارة اخرى اعني بها حضارة جزر بحر ايجه . فالجزيرة التي كانت حلقة اتصال بين هذا البحر من الشمال وبين مصر من الجنوب كانت جزيرة كريت التي قامت حضارتها متأثرة كل التأثر بالنفوذ المصري وذلك بين عام ٣٠٠٠ ٢٠٠٠ ق . م . فحوالي عام ٣٠٠٠ ق . م ظهر في كريت النحاس (منقولاً عن مصر) وتبعه البرونز . وبدأ اهالي الجزيرة خطواتهم في طريق التقدم فنقلوا عن المصريين جيرانهم استعمال العجلة لصنع الفخار ، والافران المقفلة (التي يبلغ طولها طول الانسان) . فأمكنهم ذلك ان يصنعوا الاواني والجرار من الطين المحروق وتدرجوا فقلدوا الأواني المصرية المصنوعة من الاحجار بعد ان اكتسبوا



صورة رقم ٩

من المصريين طرق نقشها ونحتها فصنعوا الجرار والاواني والاقداح وغير ذلك بأشكال جميلة والصورة (رقم ٩) توضح ما نقول . فالأواني الحجرية التي الى اليسار مصرية صنعت في

مصر . فنحن اذا قارناها بالاواني الكريتية اي التي صنعت ووجدت في كريت (وهي التي إلى اليمين) لوجدنا ان الصانع الكريتي قد نقل اشكال الاواني المصرية الشائع استعمالها في الجزء الاخير من عصر بناة الاهرام (حوالي ٢٧٠٠ — ٢٦٠٠ ق.م)

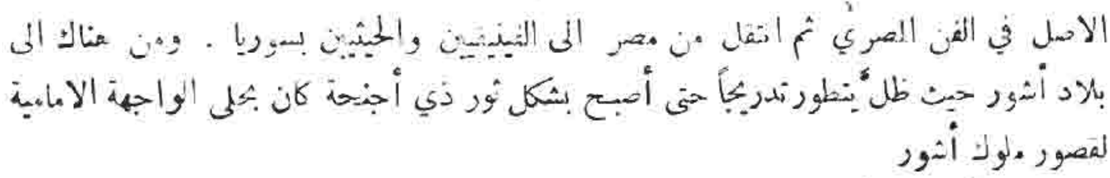
والآن لننتقل الى صناعة اخرى هي صناعة الفسيفساء او بعبارة اخرى ذلك الفن الذي يقوم على وضع قطع صغيرة من الاحجار المغطاة بالمينا أو قطع الزجاج بعضها الى جانب بعض لتكون اشكالا ورسوماً . فهذا الفن هو مصري قديم في الاصل اتخذه الاغريق الاسكندرية صناعة فرقوه وساروا به شوطاً بعيداً فحذقوه واستعملوه في عمل أرضيات بديعة الشكل واقتبسه عنهم الكثير من الامم الاخرى

والصورة رقم ١٠ تريبا ان الاغريق لم يكتفوا بنقل فكرة هذه الصناعة فحسب ، بل انهم قد نقلوا الرسوم ايضاً . فالى اليمين نرى مثالا جميلا من الفن الاسكندري لصناعة الفسيفساء يظهر فيه قط يلتهم طائراً بفمه ومن حوله طيور اخرى . فهذا الرسم منقول بنصه عن الرسم المصري الظاهر الى الشمال وفيه نرى نفس القط وهو يلتهم الطائر وتحت ارجله الامامية والخلفية طائران آخران . فالمطابقة هنا تامة بحيث تعطينا برهاناً جلياً على تأثير الفن المصري القديم من حيث صناعة الفسيفساء على ما ظهر من فن بعد ذلك



(صورة رقم ١١)

ننتقل الآن الى اشور فنضع تحت الانظار قطعة من العاج (صورة رقم ١١) وجدت في قصر آشوري تمثل ابا الهول بشكله المصري ناشراً أجنحته . فهذه القطعة العاجية وامثالها كانت ترصع أثاث القصور كالمقاعد وغيرها ، التي كان يقوم بعملها صناع فينيقيون كان يستخدمهم ملوك آشور . فهؤلاء الصناع كانوا يستخدمون دائماً اشكالا ورموزاً مصرية بعد ان يمزجوها برموز أشورية . ويجدر بنا ان نذكر هنا ان ابا الهول ذا الاجنحة وجد في

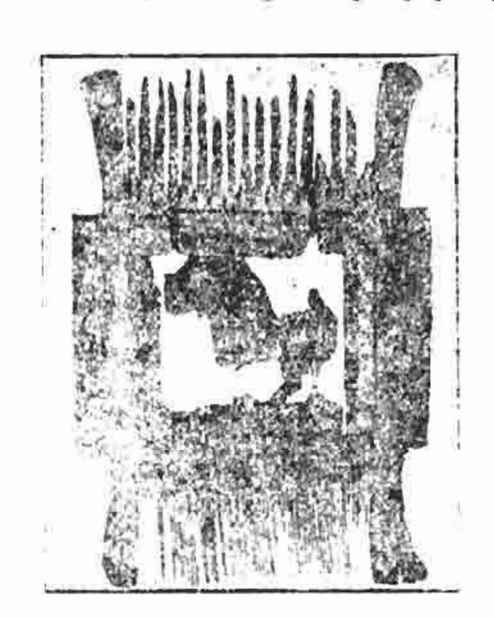


الاصل في الفن المصري ثم انتقل من مصر الى الفينيقيين والحيثيين بسوريا . ومن هناك الى بلاد آشور حيث ظل يتطور تدريجاً حتى أصبح بشكل ثور ذي أجنحة كان يحلي الواجهة الامامية لقصور ملوك آشور

وفضلا عن ان آشور كانت تعتمد في فنها وصناعها على ما تقتبسه من مصر بدليل ما نقله الصناع الفينيقيون من اشكال الاثاث وما عليه من حلي وزخارف مأخوذة كلها عن الفن المصري القديم كما رأينا ، فان هناك صناعات اخرى نقلوها ايضاً عن مصر ، نذكر منها على سبيل المثال

صناعة الزخرفة بالمينا حيث كانت تنشر طبقة من الزجاج المتعدد الالوان على قوالب من الطوب تحلى بها جدران المنازل والقصور . فهذه الصناعة المصرية انتقلت الى آسيا ولعبت دوراً كبيراً في تزيين قصور ملوك أشور وبابل بأزهى الالوان كما نرى ذلك في آجر محلى بالمينا مرسوم عليه أسود ، هو جزء من جدار قصر « نبوخذنصر »

والآن ماذا نزيد على ذلك فيما يختص بالفنون الصناعية ؟ لاشيء سوى كلمة بسيطة عن صورة (رقم ١٢) نرى فيها الى اليمين (الشكل ا —) مشطاً مصرياً (رقم كتالوج المتحف المصري ٤٤٣٣٤) وجد بصقارة مصنوعاً من الخشب والعظم ، نرى في القسم الاوسط (المفرغ) منه شكل أسد والى اليسار (الشكل — ب —) نرى مشطاً فينيقياً من العاج بشكل المشط المصرى تماماً يطابقه حتى في القسم الاوسط منه حيث نجد رسم الاسد ايضاً بطريقة التفريغ . فأمثال هذه الامشاط والادوات ظاهر فيها تأثير مصر بشكل واضح لا يترك مجالاً للشك ، وهي وان كانت قد صنعت في صور وصيدون (صيدا) وأمثالها من المدن الآن الفينيقيين قد نشروها في بلاد حوض البحر الابيض المتوسط حتى وصلت غرباً الى اسبانيا حيث وجدت امثال هذه الامشاط في مقابر هناك



صورة رقم ١٢ (ا)



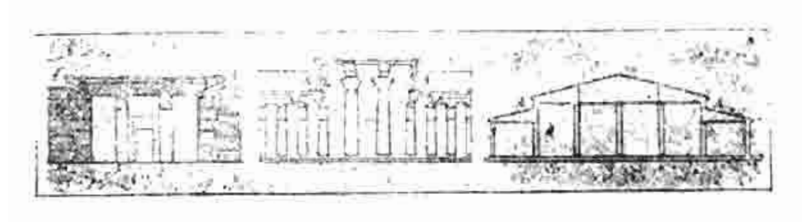
صورة رقم ١٢ (ب)

الآن ننتقل الى النقطة التالية وهي : ما الذي قدمته مصر للعالم في فن العمارة والبناء ؟

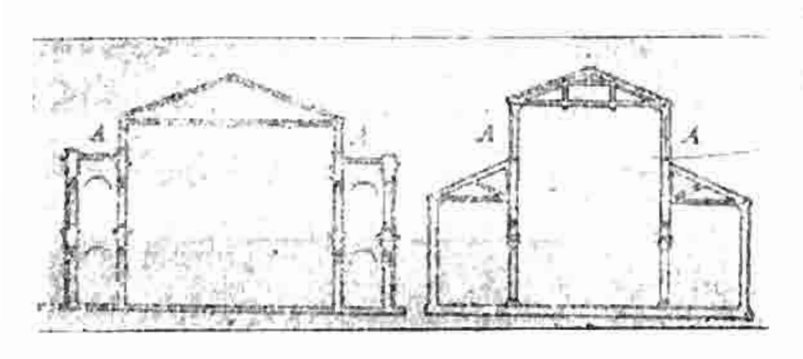
نبدأ مبحثنا من عاصمة البلاد : مصر القاهرة

فالى جانب ابي الهول يقوم معبد بني من الجرانيت نطلق عليه الآن معبد ابي الهول . فهذا المعبد أقامه الملك خفرع ليكون معبداً جنازياً لعبادته ، وليس هذا هو الذي يعنينا إنما الذي يعنينا بل ويهمنا هو ما اتخذ في هذا المعبد من وسائل انارته ، وبخاصة انارة قاعة الاعمدة

فقاعة الاعمدة في هذا المعبد (انظر صورة رقم ١٣ (ا) الشكل الايسر) ينفذ اليها الضوء من نوافذ ضيقة قليلة الارتفاع في سقف الجزئين الجانبين من القاعة . وهما الجزءان اللذان يقلان في الارتفاع قليلاً عن القسم الاوسط حيث وضعت هذه الكوات لينفذ منها الضوء (مشار اليها في الرسم بحرف (ا)



صورة رقم ١٣ (ا)



صورة رقم ١٣ (ب)

مضت مئات السنين فتدرجت هذه النوافذ وتدرجنا معها فتركنا الدولة القديمة وسرنا اشواطاً حتى بلغنا معبد الكرنك بالاقصر حيث نقف الآن فيه خاشعين امام جلال قاعة اعمدته الكبرى ، فاذا اجلنا الطرف فيها (وهي ظاهرة هنا في الشكل الاوسط من الصورة العليا رقم « ا ») وجدنا القسم الاوسط يعلو باعمدته الاثني عشر (المرتبة في صفين) عن الجناحين او القسمين الجانبين فنشأ عن ذلك فرق بين علو السقفين او ان شئت دقة التعبير ، بين علو سقف القسم الاوسط وسقفي الجناحين ، وهنا لا نستطيع مغالبة التساؤل عما قصدوه من ايجاد هذا الفرق . السر في ذلك بسيط ، فقد قصدوا بايجاد هذا الفرق أن يضعوا فيه قطعاً من البلاط مشقوق فيها نوافذ طولية عمودية تسمح بدخول الضوء الى داخل المكان فهذه النوافذ الطولية التي تطورت فلم تعد ضيقة قليلة الارتفاع كما رأينا في معبد ابي الهول ، وانما نجدها مرتفعة عالية ، انتقلت الى اليونان ثم الى روما كما نرى ذلك في باقي الاشكال ثم صارت بعد ذلك مظهراً متميزاً من مظاهر الكنائس المسيحية الضخمة في اوربا في الشكل المسمى الآن بالـ Basilica

الى هنا أجد القراء يهمسون في اذني همساً يزداد قوة يطلبون مني شيئاً يخلو من التعقيد شيئاً يخلو من اجبارهم معي على كد الفهم ودقة التتبع ، فلهم عليّ حق الامر ، وعليّ واجب الطاعة

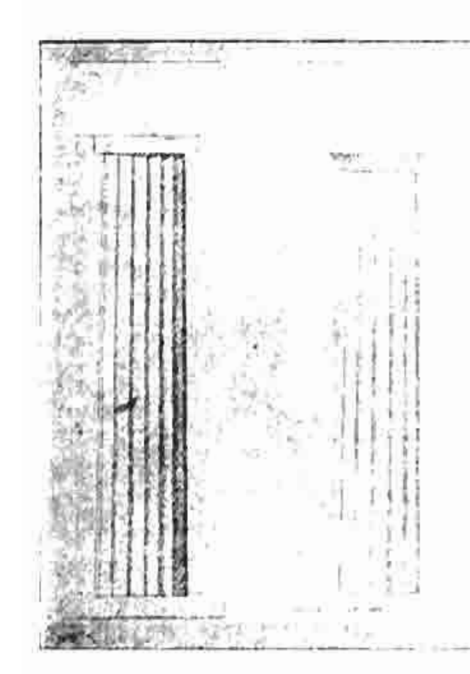
رأيتم معي تلك الاعمدة الهائلة الضخمة التي كانت تملأ الابهاء في معابد مصر الشامخة التي ما زالت تقوم عظيمة على ضفاف النيل ، وفهمتم معي ضمناً ان تلك الاعمدة وفكرتها قد تناولتهما

يد التقليد في الامم المختلفة حتى وصلنا الى بلاد الاغريق ، وهناك اتخذت الاعمدة اسماً اطلق عليها هو الـ Doric حيث نجده في أقدم معبد وجد ببلاد الاغريق أعني معبد (هيرا) بالاولمبيا

فما هو هذا العمود « الدوريك » ؟

هو أقدم وأول عمود استعمله الاغريق في مبانيهم يتكوّن سطحه من تموجات طولية او أضلاع محفورة في جذع العمود . فهذا العمود يماثل تماماً الاعمدة التي وجدت في مقابر بني حسن التي يرجع تاريخها الى حوالي ٢٠٠٠ سنة ق.م كما وجدت اعمدة مصرية بهذا الشكل في سقارة وجدها فرث ويرجع تاريخها الى الاسرة الثالثة اي انها قد ظهرت قبل فدياس بنحو خمسة وعشرين قرناً

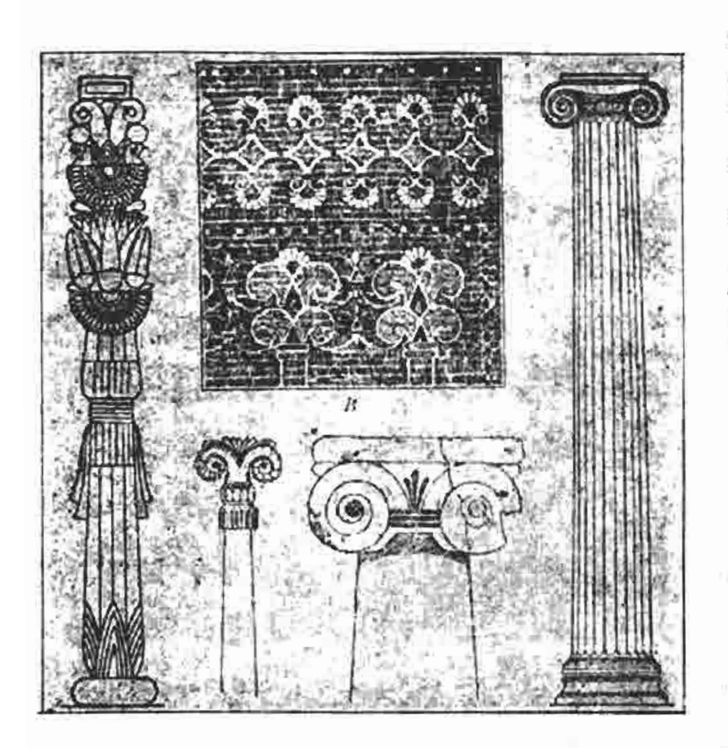
وهنا ننتهز الفرصة فنعرض على القراء شكلا واحداً جمعنا فيه رسمي كل من العمود «الدوريك» الاغريقي الى اليمين (صورة رقم ١٤) والاصل المصري الذي نقل عنهُ الذي يعرف بالـ (Proto-Doric) الى اليسار والذي وجد في مقابر بني حسن



(صورة رقم ١٤)

ننتقل الآن الى طراز آخر من الاعمدة هو الطراز الذي يطلق عليه اسم Ionic فهو وان كان يشبه الـ Doric السابق شرحه الا انهُ أرفع منهُ ويمتاز عنه بوجود قاعدة له وتاج ذي شكل ممتاز . فتاج هذا العمود يرجع في شكله الى اصل مصري (كما يرى بأعلى العمود المصري في الشكل رقم ١٥ الى اقصى اليسار) ثم انتقل الى بابل كما نرى ذلك في رسم على الميناء من جدران قاعة عرش نبوخذنصر ببابل (في وسط الصورة الى الاعلى مشاراً اليه بحرف B) ثم انتقل الى آسيا الصغرى في اوائل عصر فن العمارة الاغريقي هناك (الى اليسار في الجزء السفلي من القسم الاوسط) ثم اقترب من شكله الاخير في عمود وجد بالاكربوليس بأثينا اختفت فيه شكل الزنبقة تقريباً وبقيت حلقتاها الجانبيتان (الى اليمين في الجزء السفلي من القسم الاوسط) ، ثم تطوّر واتخذ شكله الاخير في العمود الايوني Ionic (الى اقصى اليمين) الذي تلاشت فيه الزنبقة وظهرت بدلها حلقتان جانبيتان فقط وهذا العمود الاخير اخذ رسمه عن معبد النصر بالاكربوليس بأثينا

بعد هذه الاعمدة البسيطة الشكل شعر المصريون بحاجتهم الى وضع تاج للعمود يزينهُ واتخذوا هذا التاج على شكل النباتات فظهر العمود الذي تاجه على شكل البردي والعمود الذي تاجه على

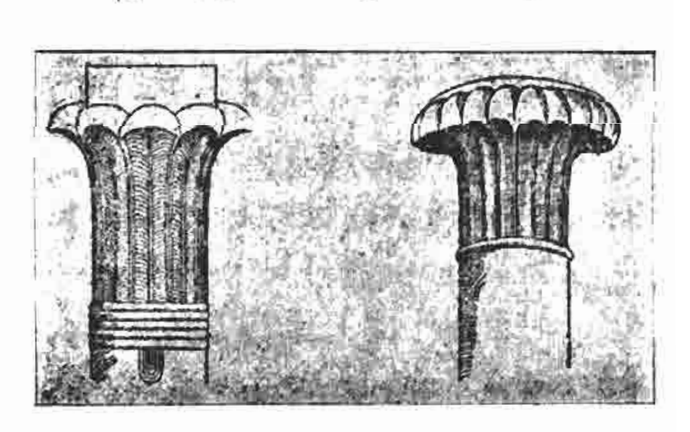


(صورة رقم ١٥)

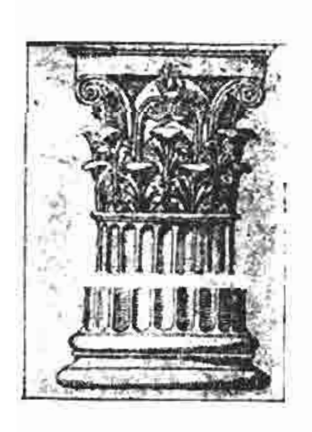
شكل اللوتس ، والعمود الذي تاجه على شكل أغصان النخيل ، وهذا الأخير هو الذي يهمنا الآن . وترى صورته (رقم ١٦ « ا ») ، ووجه أهميته أنه انتقل بنصه وفصه الى الخارج حيث نقله (شكل ب) معماريو برجاموم في العصر الهيلاني. وهذا المثال يرينا بوضوح أن فكرة اتخاذ أشكال زخرفية معمارية نقلاً عن النباتات والزهور اكتسبها الأغريق من الخارج ، وأن العمود الكورنثي (صورة ١٦ « ج ») هو دون شك مقتبس بالطريقة نفسها

الآن وأنا أراكم قد سأمتم ذكر الأعمدة والمقارنة بينها انتقل الى ذكر روما ، روما العظيمة الخالدة ذات التاريخ المجيد

ولكن ما لروما وفن العمارة المصري القديم ، هذا ما يتهامس به الكثيرون الآن



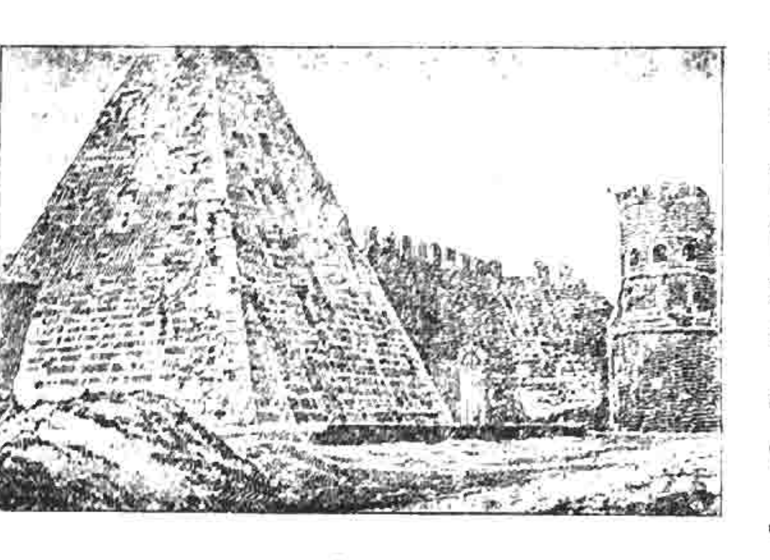
(ب) — صورة رقم ١٦ — (ا)



صورة رقم ١٦ — (ج)

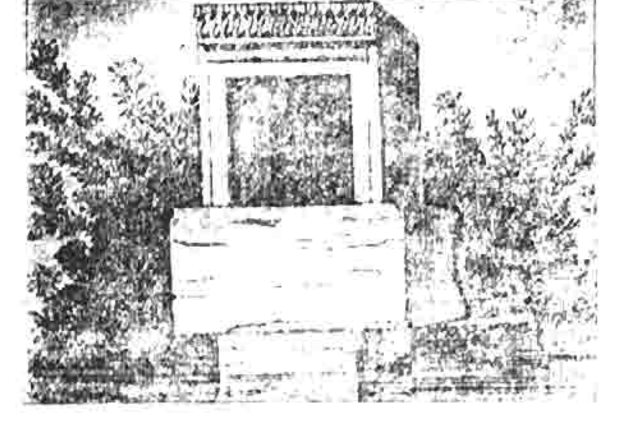
لا أنتوي ان أدخل في تفصيلات عميقة جديدة ، فليس ما ألقيه درساً في جامعة ، وانما اكتفي بأن اقول ان كثيراً من الرومان الأثرياء الذين تعوّدوا على الشرق أخذوا يبنون

مقابرهم في نفس روما على الطراز الفرعوني ، كما فعل النبيل كستوس الذي أقام لنفسه مقبرة على شكل هرم في عصر اغسطس خارج المدينة، ثم بعد ثلاثمائة سنة تقريباً اراد Aurelien بناء سور يحيط بروما ليقيها غزوات الفاتحين فدخل هرم هذا النبيل ضمن ذلك السور الذي نرى جزءاً منه في الصورة على كلا جانبي الهرم (صورة رقم ١٧)



صورة رقم ١٧

الآن خطوة الى الوراء لنعود إلى الفينيقيين ، فهؤلاء القوم أخذوا عن المصريين الكثير من قواعد فن عمارتهم، فنحن نرى في الآثار الفينيقية القليلة التي نجت من الدمار منظراً مصريًّا خالصاً ، فالناووس « صورة رقم ١٨ — (١) » الذي عثر عليه المسيو رينان بالقرب من امريت التي هي مارات القديمة ، يعتبره الانسان لاول وهلة مصريًّا محضاً لو كان اكتشافه على ضفاف النيل



صورة رقم ١٨ — (١)

وايضاً فان بعض الاجزاء في قصر دارا الفارسي بمدينة برسپوليس « صورة رقم ١٨ (ب) » توشك ان تكون اطلال احد المعابد المصرية ، فان جميع الابواب محلاة من اعلاها بأطناف (جمع طنف وهو افريز الحائط وما اشرف خارجاً عن البناء ويقابله في الفرنسية لفظة Corniche) تشبه الأطناف المصرية في شكلها وصلابتها ، وفي هذا دليل على انتقال الكثير من مظاهر فن العمارة المصرية الى فارس التي أعطتها بدورها لغيرها من الامم

ونختتم البحث بكلمة موجزة عن فن النحت وصناعة التماثيل في مصر وأثر ذلك الفن في الخارج

الواقع أن مثالي الاغريق تأثروا تأثراً شديداً في أول عهدهم بالتماثيل المصرية القديمة التي رأوها . والدليل على ذلك أن تماثيل الاغريق الاولى التي صنعوها من الحجر كانت ظاهرة التقليد كما يتضح ذلك من الصورة (رقم ١٩)

فهذا الشكل يرينا تمثالين ، الايمن منهما هو تمثال مصري للكاهن رع نفر (الاسرة ٥) اما الايسر فهو تمثال اغريقي . فالتمثال المصري أقدم من التمثال الآخر بما لا يقل عن ألفي سنة ، يمثل صاحبهُ واقفاً بالطريقة المتعارفة وذراعاهُ ممتدان إلى جانبيهِ ، وهو يقدم الرجل اليسرى . فنحن إذا قارنا التمثال الاغريقي بهِ لوجدنا أن شكل وقفة هذا التمثال الاخير تماثل تماماً نظيرتها في التمثال المصري ، كما ان الذراعين بوجودهما إلى الجانبين يماثلان تماماً التمثال المصري ، وكيفية اطباق اليد مع ترك الابهام خارجاً هي واحدة في التمثالين

وفوق هذا كله فان التمثال الاغريقي فيه الرجل اليسرى مقدمة كالتمثال المصري تماماً ، هذا بصرف النظر عن ان التمثالين ينظران الى الامام بكيفية واحدة

الى هنا أراني قد أطلت الشرح ، لذا فاني انتهي راجياً ان اكون قد وفقت الى ابراز صورة صحيحة واضحة لأثر مصر في الامم القديمة من حيث الفن على وجه العموم



تراث مصر الفكري والفلسفي

في عهد الفراعنة

للأستاذ سلامه موسى

ثم يصف برستد نفسه بأنهُ « بشري » ولكن الذي يقرأ مؤلفاته عن مصر يشعر بأن هذا الوصف ينطبق عليه . فانهُ من أولئك القائلين بأن الاخلاق أو التمييز بين الخير والشر لم يحدث بتوفيق وإلهام . وانما حدث — مثل اللغة — بجهود بشرية . وكتابه « فجر الضمير » هو عرض وافٍ لهذه الجهود لاولئك المصريين الاولين الذين ابتكروا للعالم حضارته وعلموا الانسان القراءة وفتحوا لهُ بذلك أبواب الثقافة الادبية والدينية والاجتماعية والاخلاقية . ونحن ابناء الفراعنة لم نستبد بهذا التراث كما يشهد بذلك الف دليل . فان حروف الهجاء في انجلترا والمومياءات المحنطة في أمريكا الجنوبية وتقديس البقرة في الهند وشعائر الاديان المختلفة من التطهر بالماء أو الفردوس إلى الثالوث بل حتى عبارة « ابن الانسان » قد عرفها آباؤنا قبل أربعة آلاف سنة ونشروها في أنحاء العالم مع فن الزراعة الذي أخرجوا به الانسان من حياة الغابة والبداوة الى حياة الحضارة والاجتماع

وبرستد واحد من هؤلاء الرجال الذين يرصدون حياتهم لخدمة العلم على نحو ما يرصد الرهبان حياتهم لخدمة الدين . فان في الدنيا هذه الايام عبادة جديدة تقتضي من صاحبها نسكاً وإنكاراً للنفس وإرصاد الفكر والصحة والمال للبحث عن ماهية الانسان وأصوله في التاريخ القديم وعن مستقبله . وهؤلاء الناسكون الصوفيون يمارسون صوفيتهم في المعمل الكيماوي أو السيكلوجي كما يفعل الكسيس كاريل أو بافلوف ، أو في المعمل الأثري كما كان يفعل برستد

ولا يحسبنَّ أحد أن هذا الكلام يعني المادية أو أنهُ يدعو الى نبذ الدين . فان من لا دين لهُ لا شرف لهُ على حد ما يقول هذا الصوفي العظيم برناردشو . وأما عن المادية فان تاريخ الانسان يصيح باستنكارها. وقد أخرج لنا برستد من « شق الرحا » الذي وجدهُ في احدى مدن الصعيد ما يكشف عن بذرة الاخلاق والاتجاه الذي اتجههُ الانسان الاول لكي يضع أسس الاجتماع

فهذا الشق يعود الى عصر بناء الاهرام أي نحو ٣٣٠٠ سنة قبل الميلاد . وهو أول لوح مكتوب في العالم لم يعثر على اقدم منهُ . وهو يذكر أصل الاشياء ويبين لنا أصل الاخلاق . وهو يذكر القلب بمعنى العقل والفهم . كما لا تزال عليه بعض اللغات .وهو يقول بالنص: «كل شيء نشأ وتكوّن لان القلب (العقل) أرادهُ واللسان نطق به » أي كانت الفكرة ثم كانت الكلمة . وهذه العبارة تدل على أن المصري القديم شعر أن العقل فوق المادة

وشعوره هذا عجيب جداً . وهو يدلنا على أن طبيعتنا ليست مادية وان الانسان نفسٌ قبل أن يكون جسماً . وهذا الكاتب لشق الرحا لا يعرف من الخير والشر أو الفضيلة غير هذه الكلمات :

الرجل الذي يعمل ما يحبهُ الناس لهُ الحياة
الرجل الذي يعمل ما يكرههُ الناس لهُ الموت
وهذه هي الاخلاق الاولى كما عرفها الانسان قبل ٥٣٠٠ سنة . وهي تدل على شيئين :
الاول : أن مهمة الاخلاق الاولى هي خدمة الاجتماع بان يعمل الفرد ما تحبهُ الجماعة
والثاني : أن المعنويات فوق الماديات لان القلب (العقل) فوق كل شيء

وهذه البذرة الساذجة للاخلاق والفلسفة ما زالت تتطوّر حتى وصلت بعد ألفي سنة (١٣٠٠ ق.م) الى فلسفة التوحيد والاخاء البشري عند اخناتون . وقد أصابت في عصر الدولة القديمة ثم عصر الاقطاع من نوبات الارتفاع والانحطاط شيئاً كثيرا . ولكن سلسلة هذا التطور تبدي لنا ناحيتين احداهما ناحية الشعب الذي يقوم أبناءه من الملوك والصعاليك والكتّاب والصنّاع بابتكار الاخلاق الجديدة للعصور الجديدة والارتفاع بالانسان الى مدارج سامية من الرقي والدقة في معاني الفضيلة والرذيلة . وفي الناحية الاخرى نجد الكهنة الذين يحيلون الاخلاق الى شعائر جامدة لا تقبل التنقيح لانها مقدسة . فالابتكار يأتي من الشعب والجمود من رجال الدين

***

ولكن شق الرحا ليس أول ما كتب من الاخلاق . وانما هو أول ما وجد في عصرنا من النقوش القديمة لا يعرف أقدم منهُ . ولكن عصر الاهرام حافل بالنقوش العديدة التي تعطينا صورة من الاخلاق الاولى كما فهمها الانسان لاول اصطدامه بحقائق الدنيا وبالمسائل الاجتماعية

فمن ذلك ان المصري الاول لم يستطع أن يروّض نفسه على السكون الى الموت . فهو لا يذكره باسمه إلاَّ حين يدعو على عدو. اما حين يذكر حبيباً فانهُ يؤكد انهُ لم يمت وانهُ سيعيش وسيعيش . وهذا يقال مع المومياء المحنطة . وهذا الخوف من الموت هو الذي ألهم بناء الاهرام وألهم التحنيط وألهم الفردوس المصري القديم . فان الميت لم يمت . بل هو يعيش في الفردوس . هذا الفردوس الذي نرى اوصافه في كثير من الفراديس التالية

ولا يمكن أن يقال إننا نحن نسكن إلى الموت ونسلم بهِ . فان الرغبة الحادة التي تجعلنا أحياناً نعقد المجالس « لمناجاة الارواح » تدل على أننا ما زلنا عاجزين عن التسليم بالموت . وان اختلافنا من المصري القديم الذي كان يرفض أن يلفظ بلفظة الموت وكان يبني الاهرام قصد الخلود انما هو اختلاف في الدرجة فقط

٢ — وفي عصر الاهرام هذا نجد هذه العبارة في التزكية « محبوب من الاب ممدوح من الأم يحبه اخوته » وهذا يدلنا على أن الأسرة كانت أساس الحب الاجتماعي . وهي لا تزال كذلك . واشتقاق الرحمة من الرحم في اللغة العربية يدل على أن هذه الفضيلة نشأت أولاً لخدمة ذوي

الارحام أي الاقارب . وكذلك كان الشأن عند المصريين القدماء . بل السيكلوجية الحديثة تدل على أن حب الطفل لأسرته هو النواة لحبه للهيئة الاجتماعية . واتفاق السيكلوجية والمصرولوجية برهان على عظم المكانة التي تحتلها الاسرة من الاجتماع

٣ — نجد في عصر الاهرام حِكَم بتاح حوتب تدعو الى النجاح الشخصي ولكن مع الاستقامة . كما نجد ان الناس يحتاجون إلى التزكية بأعمالهم لكي ينالوا السعادة الابدية . بل الآلهة المصرية نفسها كانت تحتاج الى التزكية . وهناك ما يسمى « نصوص الاهرام » وهي النقوش التي وجدت في قبر بيي من ملوك الأسرة الخامسة والسادسة . وفي هذه النصوص نجد هذه الكلمات

يفعل الملك بيي شراً . وانها لكلمة كبيرة في عينك يا رع »

فنفهم من هذه الكلمة أن الملك كان في حاجة لان يزكي نفسه أمام ربه ويثبت انهُ كان صالحاً لا يظلم الناس . ويمكن ان نستخلص من عصر الاهرام أربعة مبادىء في الاخلاق الاولى التي عمت مصر قبل ٥٢٠٠ سنة تقريباً :

١ — المبدأ الاول هو الخوف من الموت وأثر ذلك في ايجاد الكهانة ومحاولة الخلود بالتحنيط والاهرام . وقد كان لهذا الخوف اثره الحسن في انبعاث المصريين الى السياحة لجلب مواد التحنيط والدفن فانتشرت بذلك الحضارة الاولى كما عرفت مبادىء الصناعات والعلوم . ولكن كان لهُ أثر سيء هو سلطان الكهنة وإرصاد الجهود الكبيرة لبناء الاهرام وتوجيه العقول إلى عالم آخر

٢ — المبدأ الثاني اننا نعرف من قصة شق الرحا ان الفضيلة كما فهمها المصري الاول هي ما أحبهُ الناس . والعكس بالعكس

٣ — والمبدأ الثالث ان الاسرة هي أساس الاخلاق للاجتماع

٤ — والمبدأ الرابع هو أن كل انسان مسئول وأنهُ يحتاج لهذا السبب الى التزكية ولو كان ملكاً

كل هذا نراه واضحاً فيما بين سنة ٣٣٠٠ ق . م الى سنة ٢٥٠٠ ق . م

ولكننا بعد ذلك نبدأ بالشعور بأن الشك أخذ يتسرب الى العقائد . ومنذ حوالي سنة ٢٥٠٠ نجد المصريين ينظرون بعين الشك إلى قيمة الاهرام في تخليد الميت . ولا بدّ ان كثيراً من هذه الاهرام التي كانت تعد بالعشرات قد بلي وتفتت كما تهدمت المعابد التي أقيمت بجوارها فتقلقلت العقائد الدينية وأصبح الناس يتساءلون — كما نتساءل — من هو الرجل الفاضل ؟ هل هو المصلي المتعبد أم هو الرجل العادل الذي لا يظلم الناس ؟ ونجد أحد الفراعنة ينصح لابنه مريك رع (٢٥٠٠ ق . م .) فيقول لهُ « ان فضيلة الرجل المستقيم تجد من القبول اكثر مما يجده ثور الضحية الذي يقدمه الرجل السيء » وبكلمة أخرى الدين المعاملة . ولكن الشك في ثور الضحية هو شك في الدين

وفي هذا الوقت أيضاً نجد أن الله يوصف بأنهُ خفيٌ يعرف كل شيء . وفي هذا الوصف ما يعني ان لهُ رقابة على العالم. وهذا هو البذرة الاولى للتوحيد . والمصري القديم الذي يؤمن هذا الايمان يعدُّ بلا شك زنديقاً من ناحية ايمانه بالآلهة الاخرى

وحوالي سنة ٢١٠٠ ق . م نجد الشك يزداد . فان الثقة العمياء التي دفعت الملك خوفو الى ان يعبيء قوات الدولة لبناء الهرم الكبير لكي يعيش في العالم الآخر الى الابد قد زالت وجاء مكانها روح جديد يشبه روح عمر الخيام . فاننا نسمع شاعراً مصريًّا ينشد« ليس أحد يأخذ معهُ أمواله وليس أحد من الموتى يعود » وهذا القائل كان يعرف الاهرام وكان بعضها قد مضى عليه ١٢٠٠ سنة . فكان ينظر اليها ويقول : « ما الفائدة ؟ . لقد ماتوا وكل هذا عبث ! »

ويقول هذا الشاعر في قبر الملك انتيف من الاسرة الحادية عشرة (٢١٠٠ ق.م) :

«لا يعود أحد من هناك (من الآخرة)
لكي ينبئنا عما جرى لهم وعن الحظ الذي لاقوه
حتى ترضى نفوسنا الى ان نرحل نحن أيضاً الى المكان الذي ذهبوا اليه»

ثم يحضُّ على الاستمتاع بالدنيا لان الآخرة لا تعرف فيقول :

« أشعِرْ قلبك الشجاعة وانسَ الموت
وامتلىء سروراً واتبع رغائبك ما دمت حيًّا
ضع المرَّ على رأسك (تطيَّب) والبس الاقمشة من الكتان الحسن المهيأ بألوان الترف »

وزد مسراتك ولا تجعل قلبك يذبل . واتبع رغائبك وما تحب ، ولتنتظم اعمالك على الارض كما يشتهي قلبك حتى يأتي اليك يوم الرثاء حين لا يسمع القلب الساكت هذا الرثاء »

***

هذا التفكير الجريء الفاجر نجد منهُ كثيراً بعد سقوط الدولة القديمة. فان الاستقرار الذي بنيت فيه الاهرام والذي بقي نحو الف سنة قد تقلقل وجاء عصر الفوضى والاختلاط وحكم الامراء المستقلين وتزعزع السلطان سواء أكان في الدين أم في الحكومة . وهذا العصر الذي يخسر فيه النظام يكسب فيه الذهن ، لان الانسان في مثل هذه الظروف يتساءل : ما السبب لهذا الفساد؟ ولماذا كان أسلافنا صالحين ؟ ولماذا نحن غير صالحين ؟ وماذا ينقصنا ؟ وما هو مستقبلنا ؟

وهذا التفكير يكثر في الازمات . ولا بد ان أسلافنا قاسوا في هذا العصر ألواناً من القحط والحرمان للفوضى السائدة . وعندئذ نجد أنهم يفكرون في المنقذ الذي سوف يأتي فيعمم بين

الناس الرخاء والعدل ويخفض الظالم ويرفع المظلوم . وقد أدّى بهم هذا التفكير الى فكرة أصبحت تقليدية في جميع الأديان تقريباً هي ان «المنقذ» في شخص ملك أو نبي سيأتي وينقذ الناس من جميع الشرور التي حاقت بهم . وهذا المنقذ قد وصفوه بهذا الوصف العجيب « ابن الانسان » ولا يمكن أن يفسر هذا الحلم الذي حلمه آباؤنا قبل ٤٠٠٠ سنة الا انه ثمرة الحرمان والقحط وتفشي الفوضى والعجز عن علاجها

كانما يعرف ان التفكير الديني انتهى ايام اخناتون الى التوحيد الصريح وهدم الاصنام واستنكار تعدد الآلهة ومكافحة سلطان الكهنة . ولذلك يحسن بنا ان نتتبع الدرجات التي انتهت الى هذه النتيجة

في أيام بناة الأهرام كانت الدولة مستقرة والنظام سائداً والمعابد تبنى وترمم بكل عناية في كل مكان . والايمان بالخلود بعد الموت عظيماً جداً تؤيده أهرام ما زالت لايامنا قائمة . وفي مثل هذه الظروف لا يمكن أحد أن يكون حراً في تفكيره وهو لا يستطيع ذلك . ثم يجب ان نذكر ان الآلهة كانت آلهة مصر فقط

فلما كثرت الاهرام والمعابد والاضرحة أصبح من المحال ترميمها وتجديدها كلها فصارت تبلى وتهدم وتترك على هذه الحال فيراها المصري القديم فيفكر في قيمة الخلود المزعوم والقوة الالهية المفروضة . ويشك فيهما. ثم يؤمن بأن الموت لاغش فيه ولا تخالطهُ حياة فيقول كما قال هذا الشاعر على جدران قبر إنتيف : « أستمتع بالدنيا »

ثم يأتي عصر الفوضى والقحط وقطع الطرق فيحلم آباؤنا عن المنقذ « ابن الانسان » الذي يعمم العدل . وكأنهم يئسوا من آلهتهم

ثم يستتب النظام من جديد في الدولة الجديدة. ولكنه ليس كنظام الدول القديمة جاء على فطرة وسذاجة وخوف من الموت . وإنما هو نظام يستند الى أفكار تختمرة متصارعة قد اختلط فيها الفكر بالايمان. والدين ظاهرة اجتماعية لا يختلف عن أي ظاهرة أخرى. ولذلك نجد تحطمس الثالث حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م. ينشىء أمبراطورية فيحتاج الى أن يجعل آلهتـه امبراطورية ايضاً فيصف رع بأنه يرى الدنيا جميعها في كل وقت . وهذا هو المعقول لانهُ اذا كان فرعون قد ملك الدنيا فيجب ان يملك آلهة الدنيا ايضاً. ومادام إلـه رع يملك الدنيا فما قيمة الآلهة الاخرى؟ أذ ماذا يملك الى جانبه ؟ وهذا المنطق يؤدي الى التوحيد

وبكلمة أخرى نقول ان التوسع الامبراطوري الذي قام بهِ تحطمس الثالث هو الذي هيّأ الافكار للتوحيد . لان إلـه مصر لم يعد خاصًّا بمصر بل صار إلهاً للامبراطورية : للدنيا

فاذا وصلنا الى اخناتون نجد أن مصر قد مضى عليها ٢٠٠ سنة وهي تتولى الحكم في امبراطورية

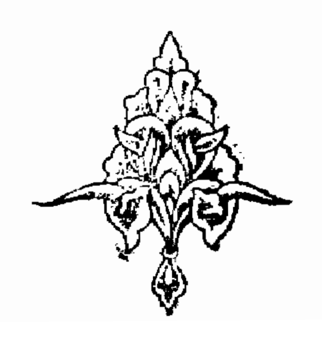
واسعة فيتسم التفكير فيها بالسمة العالمية . ويدعو اخناتون دعوة صريحة الى التوحيد . وهو يجد في رع أليق الآلهة لان يتبوأ مكان الإله الواحد.وهو يسميه اتون من اسمائه القديمة ويدعو نفسه اخناتون أي الراضي بأتون

وقيمة التوحيد كبيرة جداً لانها تعني الاخاء البشري وان الناس كلهم سواء أمام الله اذ هي الديموقراطية الدينية للبشر . فليس لشعب ان يقول هذا ربي وليس ربكم. بل الكل سواء

ولكن التوحيد الذي دعا اليه اخناتون في مصر أخمده الكهنة وعادوا الى عبادة الاصنام. ولكن دعاة اخناتون نجحوا في نشر التوحيد في آسيا

هذه هي قصة الفكر المصري الى عهد اخناتون (١٣٠٠ ق . م) وما بعد اخناتون ليس له قيمة كبيرة.وهذه القصة إن دلت على شيء فهي تدل على ان الشعب هو الذي يفكر وهو الذي ينكر المذاهب والاديان الصالحة في حين ان الكهنة يجمدون ويقاومون كل تطوّر

ان كثيرا من الامثال والحكم التي نعتقد ان العرب او الاغريق قد اخترعوها انما هي من مخترعات مصر . مثال ذلك المثل القائل « القتل أنفى للقتل » فانهُ مثل مصري قديم . وكذلك المقابلة بين القلم والسيف وان الاول أعظم من الثاني هو مثل مصري قديم .وما يسمى الآن أمثال سليمان التي بالتوراة انما هي أمثال امينو موب المصري . وكثير من الادب الاغريقي في الياذة هوميروس يعود الى قصص مصرية . والمصريون هم أول أُمة عرفت أن الدماغ هو مركز العقل وانه هو الذي يسيطر على حركات الجسم



مظاهر الفكر

عند قدماء المصريين

للاستاذ سامي جبره
أحد أمناء المتحف المصري والاستاذ بكلية الآداب

أشعر بأني أخذت على نفسي بحث موضوع كنت أعتقد في باديء الامر أنّ من السهل تعريفه والالمام بشيء من دقائقه ولكني أرى اني طلبت أمراً صعب المنال مترامي الاطراف كلما أحاول الدنوّ منهُ يبتعد عني وتحول بينهُ وبيني عقبات كأداء وأشباحٌ مظلمة تكاد تصرفني عن الغرض الذي أسعى اليه

اذا كنا نعرّف في هذه الايام كلمة « فكر » بالنهاية القصوى التي يصل اليها العقل عند ما يريد التعبير بكلمات مختارة وجمل وجيزة عما يثيره الحسّ من شعور وصور . واذا كان الفكر هو الصورة البارزة وترجماناً عما يشغل النفس من شك ويقين فكل هذه الاحوال النفسية لا يستقرّ لها قرار كما تعلمون . وقد نحكم اليوم بطريقة ما على شيء عرفناهُ وقلّبناهُ على وجوه شتى ثم نأتي في اليوم التالي ونحكم على هذا الشيء بطريقة تختلف عن التي اتبعناها في اليوم السابق لان أفكارنا مبنية على صور قد يتغير ما يحيط بها من ضوء فيتغير شكلها تبعاً لذلك . فمن الصعب اذاً أن نقتفي سيرَ هذه التغيرات وأن نقيدها بأسلوب ما . يفكر الرجل العصري بطريقة تحيط فكره بسياج من المنطق ويحاول الكاتب ان يضع حدًّا ونظاماً يقيد به مظاهر الاحساس المتقلبة فيخرج من هذا المنبع المتفجر نهراً صافياً مستقيمَ المجرى فيصبح لتفكير الافراد قياساً ولتفكير الشعوب نظاماً ايضاً . هذه حالة وصلت اليها الشعوب المتمدينة بفضل ما اكتسبتهُ من ثقافة الاقدمين وبعد ان عاشت قروناً عديدة يقاسم أفرادها بعضهم بعضاً ساعات السرور والالم تحت سماء واحدة وبقيادة سلطة واحدة ، فكان لهذه الامم شعور عام وكان لها تفكير عام ايضاً . غير ان مظاهر الفكر هذه لم تكن موجودة بشكلها الاكمل عند الامم القديمة مهما وصلت مدنيتها من الرقي. فقد كانت الأمم القديمة في بدء حياتها مؤلفة من عناصر مختلفة وقبائل رحالة يخاصم بعضها بعضاً فتحطّ القبيلة المنتصرة رحلها اينما وجدت للعيش سبيلاً فيتدفق سيل عقائدها وقصصها على البلد المغلوب أو تقتبس القبيلة الظافرة أحياناً ما تراهُ ملائماً لعقائدها ومطابقاً لمشاربها من البلد المغلوب ولا سيما اذا كان أرقى منها مدنية

نعم كانت توجد رابطة الوحدة بين هذه القبائل ولكنها وحدة مبنية على العنف والشدة . ولم ينل السيف سبيلاً من أرواح هذه الشعوب ولم تفز القوة بطائل يمكنها من تعديل أفكار الناس وتحويل عقائدهم فالزمن وحده هو العامل الاقوى للتغير والتطور . رغم هذه الاعتبارات وما يترتب عليها من مظاهر متناقضة للحركة الفكرية عند الامم القديمة ورغم مظاهر فكر اختلط فيها الساذج بالفلسفي يمكننا أن نجول جولة مثمرة في مظاهر الفكر المصري لان مصر طبعت بطابع خاص كلّ ما دخل عليها من العناصر الاجنبية بل نقدر أن نلمس هذا الطابع في كثير من أطوار تاريخ الامة المصرية

مظاهر الفكر المصري في الدولة القديمة ، وأعني هنا بالدولة القديمة خلافاً للتقسيم المتفق عليه في بعض كتب التاريخ ، العصر الذي يبدأ من الاسرة الاولى وينتهي في الاسرة العاشرة وهو عصر يشمل مدة الانحطاط والفوضى التي تلت الاسرة السادسة . يبتدىء هذا العصر في القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد وينتهي في القرن الحادي والعشرين

كانت مصر في عصر ما قبل الأسر كما هي الآن واقعة على حدود ثلاث قارات : قارة افريقيا في الجنوب ، وآسيا في الشرق ، ثم تتصل بالجزر اليونانية واوربا بواسطة البحر الابيض المتوسط الذي كان يغمر الجزء الاكبر من الدلتا . ولست في حاجة هنا الى أن ابسط أمامكم تلك المناقشات المملة التي يريد أصحابها ان ينسبوا المدنية تارة لسكان الجزء الشمالي الشرقي لمصر وهي بلاد اشور وبابل وتارة لسكان الجزء الجنوبي الشرقي أو منطقة بلاد العرب الحالية . وذلك لاننا لم نعرف للآن مدنية أقدم عهداً من المدنية المصرية ، ولان المدنية المصرية نشأت وازهرت في وادي النيل . وأرى من المجازفة الاخذ بهذه النظريات والاعتماد عليها . ولكن هناك فكرة واحدة اتفق عليها علماء التاريخ ويهمنا ذكرها ، وهي ان سكان مصر من الشلال الثاني الى ممفيس كانوا مؤلفين في العصر السابق للاسر من الجنس الابيض أو الجنس الليبي المصري ولم تزحف القبائل السوداء على منطقة الشلال الا في عهد الاسرة السادسة

تدل الجماجم المصرية التي وجدت في عصر ما قبل التاريخ وما بعده كما تدل أقدم التماثيل على أن الاجناس المصرية التي سكنت وادي النيل من قديم الزمن تنقسم الى الاقسام الآتية : (١) الرؤوس الطويلة Dolicocephale وهم العنصر الاكثر عدداً في مصر ويقال عنهم انهم حسنو التماثل ليّنو العريكة (٢) أصحاب الجبهة العريضة Brachycephale وكانوا يسكنون الجيزة وهم خشنو الطباع شداد المراس راجحو العقول اذا نالوا قسطاً من المدنية (٣) أصحاب الرؤوس المتوسطة Mesaticephale ونجد عندهم صفات مشتركة من صفات أصحاب القسمين السابقين

استوطنت هذه العناصر صعيد مصر وشمالها وعاشت في بادىء الامر معيشة قبائل همجية متفرقة ومنعزلة بعضها عن بعض . غير أن وادي النيل لا يصلح لمعيشة القبائل المتفرقة على أرضه فلا يصلح السكن في مصر الا في أماكن قريبة من ماء النيل . وفيضان النيل يحتم على الافراد الخروج من أوكارهم ووحدتهم وقت الفيضان ويتطلب مجهوداً عظيما يتعاون فيه العدد الاكبر من السكان لبناء الجسور وحفر الترع ولدفع غارات الفيضان . فالوسط دعا سكان مصر وهم في فجر تاريخهم الى التعاون والاختلاط ثم الوحدة . وقد كان استعداد المصريين الفطري للتفكير أقوى باعث لهم على النهوض بسرعة من حالة الهمجية الى حالة أُمة ذات مدنية راقية . وكان من مزايا نشاطهم العقلي انهم عرفوا وهم في فجر حياتهم التاريخية كيف ينتفعون بهذا الفيضان وكيف يجعلونه

مصدراً لخيراتهم ونعمهم . وقد مكنهم هذا النشاط الفكري من التوصُّل قبل غيرهم من الامم القديمة الى ضبط اصواتهم واشاراتهم فجعلوا منها صوراً ثم مقاطع صوتية ملتصقة ثم أحرفاً صوتية مستقلة وبعبارة موجزة توصلوا بعد جهاد مثمر الى ان يوجدوا لغة يتخاطب بها سكان وادي النيل ويتفاهم بها الناس لقضاء شؤونهم المهمة

أردنا أن نشرح ما لسكان مصر من الصفات العقلية قبل ان ننتقل الى البيئة وتأثيرها حتى ندرك اتجاه الفكر في مصر ومظاهره . ولا بدَّ من دراسة الاثنين معاً حتى يتحدد ما لكل منهما من التأثير في حياة الامة . فالبيئة الحسنة لا تجدي نفعاً من دون النشاط العقلي ، والنشاط العقلي قد يعتريه الخمول ان لم يجد بيئة حسنة ومجالاً يساعدهُ على تحقيق ما يفكر فيه

ففي جنوب افريقيا وفي اواسطها أودية خصبة لم يقدر أهلها على تعميرها لان عقولهم لم تنضج، وفي الصحراء عقول راجحة لم تثمر لان الوسط كان اكبر عائق لها . اما من جهة البيئة فقد كان للنيل أثر كبير في تطوُّر الفكر المصري فهو الذي وجّه جهود المصريين الى الحياة الزراعية والى العلوم الهندسية بل وقد كان النيل يتحكم احياناً في حركات المصريين فيجعلهم يعملون كالنحل بصبر وجلد متكاتفين كلما حلّ فصل الفيضان والزرع . غير ان لهذه النعم تأثيراً عكسيًا فالمعيشة في ارض خصبة تتجدد فيها فصول الفيضان بنظام دقيق لا يتغير أوجدت في نفسية السكان روح التواكل واستعداداً شديداً للمحافظة على العادات والتقاليد . ومن يذكر أمة زراعية يذكر أمة ذات تقاليد قديمة . وقد كان هذا المظهر الفكري الاخير ملازماً للمصريين في كل تطوراتهم . ولا اقصد هنا ان الصناعة والفكر لم يتطورا في مصر بل كان القديم يعيش مع الجديد جنباً الى جنب فيحول دون الوصول الى المثل الاعلى

توصل المصري كما ذكرنا وهو في فجر حياته الى انشاء لغة مؤلفة من أحرف صوتية كباقي اللغات الحية ولكنهُ احتفظ وقت الكتابة بالصور أو بمخصصات يضعها في آخر الاحرف الصوتية وأحياناً كان يستعمل المقاطع الصوتية غير المنفصلة. وهذه طرق كان يستعملها من سبقوهُ قبل ان يصلوا الى ترتيب الاصوات وتوزيع الحروف . ثم كان لذلك الوادي المسطح الارجاء تأثير آخر في عقلية المصري . وادٍ تظللهُ سماء صافية وتغمر أرضهُ شمس مشرقة دائماً تظهر الاشياء فيه على خط واحد واضحة الاشكال فيراها الناظر كما هي لا يدخل عليها ظل أو غموض فاذا صوّرها كانت الصورة طبق الاصل واذا وصفها كان الوصف بسيطاً رشيقاً متأثراً بجمال الطبيعة

قويت ملكة الملاحظة عند المصري تحت هذا الضوء حتى استطاع ان يستمد من مشاهداته اليومية معاني لكلماته ونماذج لصناعاته ودروساً لعقائده فمثلاً كان يكتب كلمة لحظة ثم يرسم في نهايتها صورة مخصصة لمعناها هي رأس فرس البحر لانهُ شاهد فرس البحر يطفو على سطح الماء

لحظة صغيرة من آونة الى أخرى . وكان يكتب كلمة مائة الف بأحرف صوتية تقرأ Hefen ويردفها بمخصص وهو الضفدع الصغير الذي تسبح المئات منهُ على سطح الماء في الترع وقت ايام الفيضان

للمصري شغف شديد بالملاحظة وحب الاستطلاع وقد وجد في هذا الاديم الصافي مجالاً واسعاً وبدأ يرصد الكواكب والنجوم فقسمها الى قسمين قسم سماهُ بالنجوم السيارة وقسم آخر اطلق عليه اسم النجوم الثابتة ثم لاحظ نجماً يظهر في أفق ممفيس مرة واحدة في السنة قبل شروق الشمس بربع ساعة وكان من حسن الحظ ان اتفق ظهور هذا النجم مع بدء فصل الفيضان فسمى هذا النجم بكلمة سبد Saped المجهز أو المبشر بموسم الزرع وجعل يوم ظهوره فاتحة السنة الزراعية وهو أول يوم توت . ويقول لنا علماء الفلك أن هذا النجم كان يظهر مرة واحدة بعد كل ٣٦٥ يوم وربع وقد ظهر لاول مرة في مكانهِ في القرن الثاني والاربعين قبل الميلاد وهو التاريخ الذي عرف فيهِ المصريون السنة الشمسية . غير ان كهنة هليوبوليس وممفيس كانوا يعلمون تمام العلم ما لعقائد الشعب وما لعاداتهِ من قوة فاكتفوا بتسجيل هذا التاريخ في المعابد وتركوا الشعب يؤرخ حوادثه بالسنة العادية المؤلفة من ٣٦٠ يوماً. ولما اراد الكهنة ادخال خمسة أيام حتى يقربوا السنة العادية من السنة الشمسية التجأوا الى بدعة خرافية لا أرى داعياً لذكرها هنا وقد أطلقوا على هذه الايام الزائدة أيام ولادة الآلهة حوريس وأوزيريس وايزيس ونفتيس وست حتى لا يفزع السواد الاعظم من هذه التغييرات . هذه هي أهم مظاهر الفكر المصري وهو في بدء حياته التاريخية ويمكن أن نلخصها في ما يأتي : (١) استعداد فطري للتفكير نجدهُ في العناصر النشيطة التي عمرت مصر في عصر ما قبل التاريخ (٢) بيئة ملائمة لتوحيد السلطة ونور وضاح يقوي ملكة الملاحظة فيجعل المصري محققاً في صناعتهِ بسيطاً في عباراتهِ (٣) ميل الى التواكل والمحافظة على التقاليد والعادات

ولنبسط الآن كيف نمت هذه الصفات المتناقضة وما مظاهرها في تطور الفكر المصري

اذا رجعنا الى تاريخ مصر قبل ان توحد السلطة فيها تحت لواء ملك واحد وجدناها منقسمة الى امارتين امارة الوجه القبلي وامارة الوجه البحري وكانت تنقسم كل منهما الى اقاليم ومدن ولكل من هذه الاقاليم والمدن إلٰـه وقصص واساطير مختلفة تفسر تارةً تاريخ مصر وتارةً مسألة الخليقة ولكن هذه الاساطير لم تكتب بل كان يتناقلها الابناء عن الآباء عن طريق الحديث الشفوي ولم تدوَّن هذه الاساطير والقصص والعقائد الاَّ في عهد ملوك الاسرة الخامسة على جدران حُجَر الاهرام في دهشور وصقارة

تشتمل نصوص الاهرام على فصول عديدة لم يراع فيها التبويب والتقسيم بل نجد فيها تضرعات وصلوات للملك المتوفى واوصافاً لعقائد قديمة واناشيد لاوزيريس إلٰـه الموتى ولإلٰـه

النيل حابي وتعاويذ سحرية وقد كتبت بشكل خطاب موجه تارةً للملك وتارةً للإِلـه

وما زلنا في حاجة الى الصبر والأناة لنصل الى تفسير هذه النصوص تفسيراً مُرضيًّا غير اننا نعرف أنها كتبت في جُمل قصيرة حتى يراعى فيها الالقاء والاوزان الشعرية التي تشبه التراتيل ومن وقت لآخر نجد في هذه الاناشيد جملاً لا تخلو من الصور الجميلة والخيال الشعري. فمثلاً نجد الجمل الآتية في خطاب موجه لاوزيريس وكلمة اوزيريس يقصد بها الملك المتوفي وهو بلفائف التحنيط :

«قم وحـلّ هذه اللفائف . إنها ليست لفائف تضم جسمك. بل هي خصلة من شعر نفتيس أختك التي تبكيك . تبكيك السماء . تتصدع الارض أسىً لفراقك . يتلبد الجو بالغيوم وعطر النجوم حزناً . ويقف الحراس خاشعين عندما يمرُّ روحك »

ونجد في نصوص الاهرام رقم ١٥٥٣ - ١٥٥٤ وصفاً للنيل :

« تضطرب القلوب خوفاً عند تلاطم أمواجك يا حابي (اله النيل) . ولكن تضحك الحقول وتزدهر الضفتان . فاؤلئك هبة السماء للارض تجعل الناس يسجدون لك بقلوب طروبة »

نعم لم تدوّن عقائد المصريين وقصصهم الاّ في عهد الأسرة الخامسة ولـكن لنا من حسن الحظ كثيراً من الآثار التي يرجع تاريخها الى الأسرة الاولى والثانية أو قبل الاسرة الخامسة بخمسمائةسنة .وقدأراد المصريون في كثير من هذه الآثار أن يصفوا لنا بعض الحوادث السياسية او الاعياد الدينية ، واستعراض بعض هذه الحوادث وتفسيرها يمكننا من الاطلاع على أول مظاهر الفكر وطريقة التعبيرعنه. وأول شيء يلفت أنظارنا في بعض الآثار المأخوذة من الاسرة الاولى وما قبلها هو اكثار المصري من استعمال الصور والرموز لوصف هذه الحوادث وهذه الاعياد اذ كان من العسير عليه ان يلجأ الى لغته المكتوبة لان الكلمات المكتوبة لم تزل قليلة ولأن وصف هذه الحوادث يتطلب اسلوباً مرناً لم يكُ من السهل العثور عليه في لغة حديثة العهد . ومع ذلك تزداد دهشتنا عندما نلاحظ ان كثيراً من هذه الصور كان متقن الصنع وقد راعى الصانع فيه بعض القواعد الفنية كتناسب الاوضاع وبساطة الصور مع خفة الحركة فكان الصناعة الفنية وُلدت قبل صناعة الكلام

ومن هذه الصور صورة تمثل اميراً من أمراء الوجه القبلي يراس حفلة زراعية بعد انتصاره على سكان الدلتا ومن بقي من سكان الوجه القبلي. نجد هذا الامير واقفاً على ضفة نهر قابضاً على فأس يشق به الارض الى ان يصل الى العمق المحدود فتتفجر المياه وتنساب في الارض حتى تضحك الحقول وتزدهر ضفتا النيل كما يقول لنا المصري في نشيده للنيل . ولا شكَّ في ان هذه الصورة الرمزية تبرهن لنا على ما للحياة الزراعية من المقام . حتى ان أمير البلاد يرأس

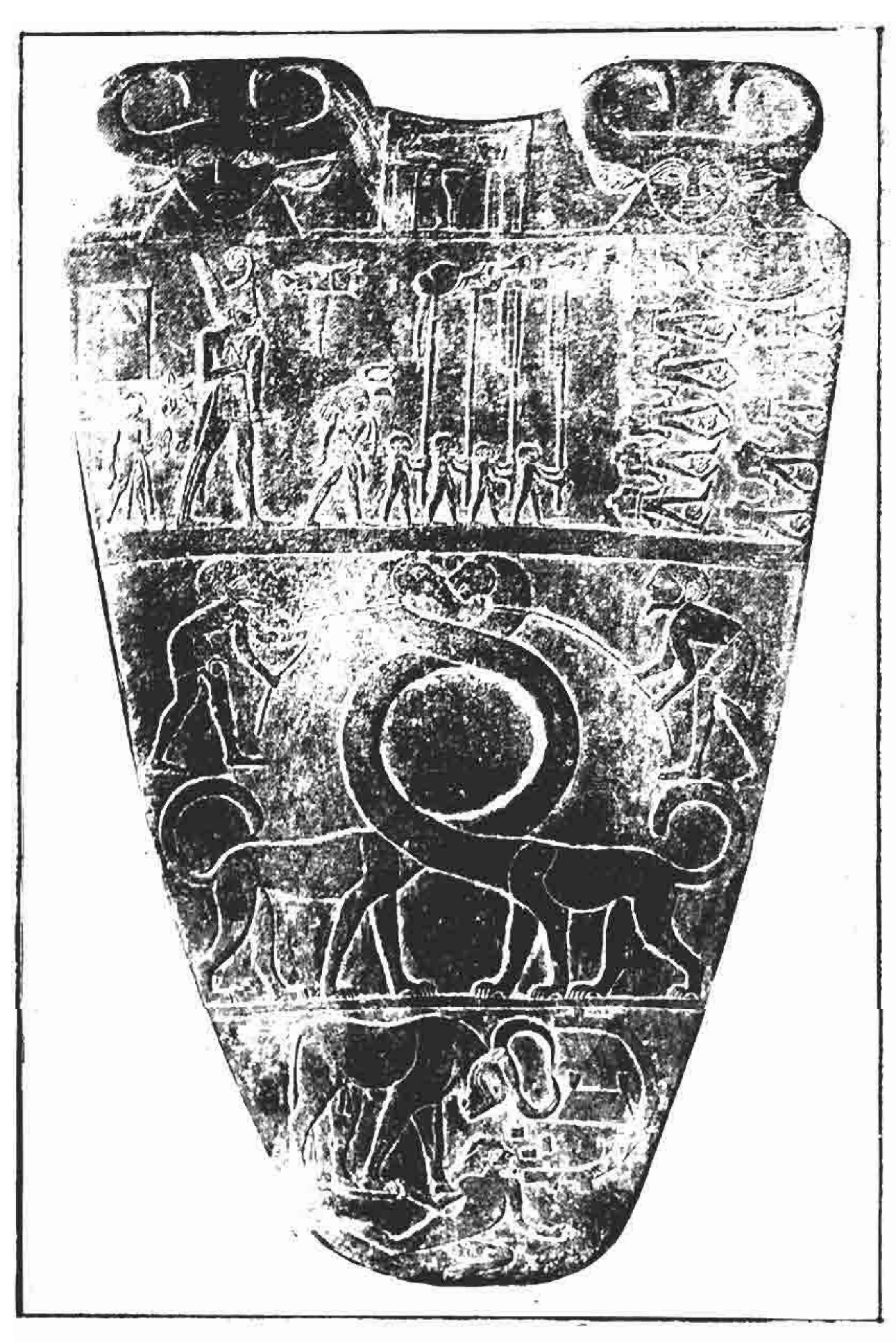
هذه الحفلة بنفسه . وقد قيل لي ان في بلاد الحبشة عادة تقرب من هذه العادة وهي ان الملكة تذهب الى الحقول وقت الحصاد وتفتتح فصل الحصاد بيدها

وثمة صورة اخرى تصف لنا المرحلة النهائية لتوحيد السلطة في الوجهين القبلي والبحري فنرى الملك نارمر اومنا متوّجاً بتاج الوجه القبلي يتأهب لضرب احد الاعداء في الشمال الشرقي بالدلتا وأعداء آخرين يتأهبون للهروب . وعلى الجانب الآخر من هذه اللوحة نجد الملك متوجاً بتاج الوجه البحري تتقدمهُ اعلام القبائل التي اتحدت معهُ وعاونتهُ في مهمتهِ ثم نجد اجساماً قطعت رؤوس اصحابها ووضعت الرؤوس بين الأرجل ولما اراد الصانع ان يحدثنا عن شدة عزيمة الرئيس وبطشه في ساحه القتال شبهُ بثور يدمر حصون قلعة بقرنيه

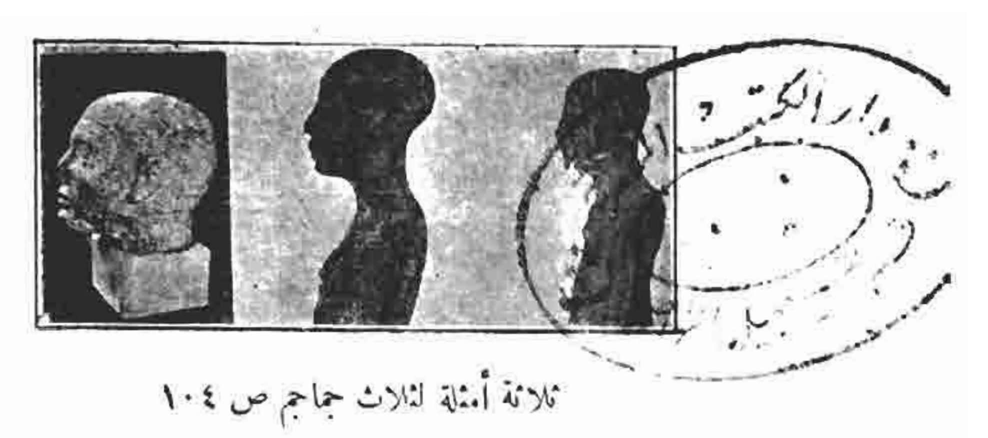
ولوحة ثالثة مأخوذة من قاعدة تمثال الملك خاسنحم احد ملوك الاسرة الثانية ، وقد اراد الصانع هنا ان يصف لنا انتصار الملك على قبائل الليبين والنوبيين فثل لنا معركة واجساماً وقعت على الارض تحت سهام قواد الجيش وها نرى منهم من يفزع ومن يحتضر ومن يهرب . في كل هذه اللوحات الثلاثة لا نجد ما يزيد على العشر كلمات وكلها اسماء اشخاص او اسماء بلاد او عدد الاسرى

بدأ المصري اذاً يعبر عن افكاره بصور ورموز ظهرت فيها قوة الملاحظة ودقة الرسم ولكن اتى وقت اضطرَّ فيه ان يعالج بعض المسائل الدينية والادبية التي تحتاج الى كثير من الاسترسال والامعان فنجده ينتقل من المرحلة الاولى ويستعين بالكتابة بل يكثر من الكلام المكتوب غير انهُ لم يسع في الخلاص من الرموز بل كان يكتب الرمز كتابة ويصوره تصويراً يعقبهُ بجمل قصيرة متكررة فيخيل للناظر السطحي ان التعبير ركيك وان المعنى ساذج مع ان لهذه الرموز والصور مغزًى فلسفيًا يدل على الاسترسال والتعمق في الفكر

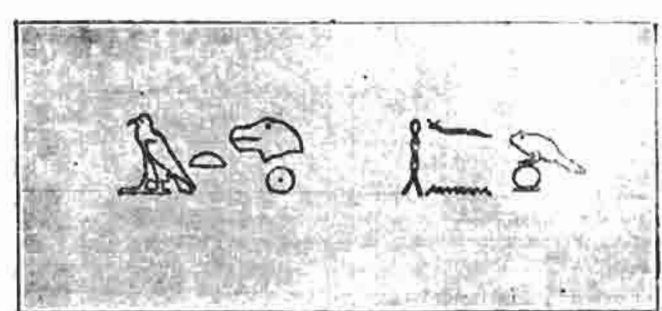
سأل Porphyre احد تلامذة المدرسة الافلاطونية في الاسكندرية التي كان رئيسها افلوطين في سنة مائتين وخمسين بعد الميلاد صديقاً لهُ مصريًا وكاهناً اسمهُ Anibo (مشتقة من Anibus الاله المصري) لماذا يستعمل المصريون رموزاً منظورة للتعبير عن قوة الاله الكامنة وغير المنظورة؟ فأجابهُ الكاهن المصري ان قوة الخالق تظهر لنا في كل مخلوقاتهِ وان جمال هذه القوة يتحقق في كثير من هذه الرموز التي يستعملها الكهنة المصريون في عبادتهم . يمثل لنا المصريون الاله جالساً فوق زهرة اللوتس وزهرة اللوتس مقدسة عند المصريين لأن حبوب هذه الزهرة تنمو داخل غلافها ثم تمزق هذا الغلاف وتتخذ الماء عرشاً ثم تزهر على سطحهِ ولأن شكل اللوتس يشبه الدائرة والدائرة تشبه قوة العقل التي تدور حول نفسها في كل مظهر من مظاهر النشاط العقلي والعقل نفسه مظهر الاله الاكبر في خليقتهِ



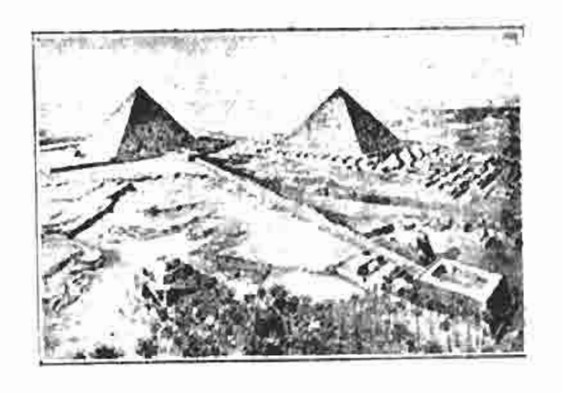
... فكانت الصناعة الفنية ولدت قبل صناعة الكلام
(ص ١٠٧)



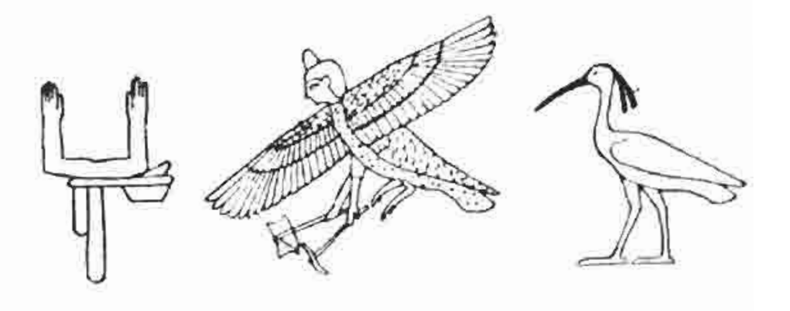
ثلاثة أمثلة لثلاث جماجم ص ١٠٤



التعبير عن المعاني بكلمات تردف كل كلمة منها بصورة مخصصة ص ١٠٦



فكرة اعادة حلقة الزمن في بناء الاهرام ص ١٠٩



للتعبير عن حياة الانسان في الحياة الأبدية ص ١١٠

عالج المصريون مسألتين كبيرتين وهما مسألة الخلود او الابدية ومسألة الخليقة

خلود او ابدية عند المصريين معناه تجدد دائم وتكرار حلقة الوقت والزمن وسلسلة الزمن لا يقطعها الموت، وما الموت الا طريق يعبر منهُ الانسان حتى يتمكن من تجديد حياة اخرى لا تخلو من الشبه بالحياة المادية السابقة

تقول ازيس في رثائها لاوزيريس نقلاً عن نصوص اهرامات الأسرة السادسة :—

أنت الذي رحلت عنا سترجع الينا مرة ثانية . أنت الذي مت ستستيقظ . أنت الذي مت ستحيا . قف فجسمك لا يَفنى الآن وستبقى للابد

ونجد في موقف آخر في نصوص الاهرام ما يأتي :—

لم يمت الملك تيتي بل يعيش الى الابد . من قال انك مت انك بلغت المرسى

قم قف فأنت نجم ساطع لا يفنى بل يعيش الى الابد

ونجد نظرية رجوع الزمن وتكراره الدائم حتى في قصص المصريين فنجد في قصة سينوحي وقد طالت بهِ الغربة في صحراء سيناء ما اسعد من يموت في بلدة وُلدَ فيها

نجد ايضاً فكرة إعادة حلقة الزمن في بناء الاهرام وفي صناعة التمثال

كلمة فرعون معناها صاحب البيت العالي . كان يمتاز فرعون وهو حي بعلو مسكنه وبجلال مكانته فهو خليفة الله على الارض وهو الوسيط بين الشعب وربه وفيه يجد المصريون رمز الوحدة والسلطان . فالاهرام العالية الذرى هي بيوت فرعون الابدية ومنها يشرق على شعبه كما كان يشرق عليهم وهو في حياته . ونري مقابر حاشيته تحيط به وهم عند قدم الاهرام كانهم يركعون خشوعاً ويشخصون اعجاباً كما كانوا يفعلون وهم على قيد الحياة

اما التمثال فهو مسكن الروح اذا فني الجسم وفي التمثال نجد صورة ناطقة للملك تلوح عليهِ سمات الجلال والسكون فهو جالس على عرش رسم على احدى جوانبهِ صورة اللوتس والبردي يتعانقان وهما رمزان لقوات الوجهين القبلي والبحري

لم يفرق المصري بين الابدية المطلقة التي لا علاقة لها بالزمن حيث لا توجد بداية ولا نهاية وبين ابدية زمنية يتوقف امدها على الطبيعة ولما اراد ان يفسر لنا مصير الانسان في الحياة الابدية قسم الجسم الى ثلاثة اقسام Akh و Ba و Ka ويلوح لنا من غموض النصوص التي تشرح هذه الاقسام ان المصري جمع شتات عقائد منتشرة في وادي النيل وحاول ان يدمجها في عقيدة واحدة . يقصد المصري بكلمة كاء مظهر العقل والخلق في الانسان . يرافق الكاء الانسان في هذه الحياة الدنيا ويقوده في الآخرة ولكن لا بد ان يلتقي الكاء بالجسم او ما يحل محله والا كان مصيره الفناء وقد مثلوهُ بشكل ذراعين مرفوعتين للفضاء للتضرع والحماية . وما زلنا نجد في

القرى المصرية عقيدة تشبه عقيدة الكاء في كلمة قرينة اما عند الامم الغربية فيعبرون عن كلمة كاء بكلمة الملاك الحارس Ange Guardian

اما الباء فصوره المصريون على شكل طائر بوجه انسان له ذراعان يقبض باحداها على علامة الريح وبالاخرى على علامة القوة . اما وجه الانسان فهو صورة الله واما الريح فمعناه ان الهواء روح الانسان وكلمة روح Ba. Animus لهما معنى واحد

يحكى في قصة مصرية معروفة بورقة Westea ان الملك خوفو كان حزين النفس فأحضرت له الحاشية عرافاً قديراً على قطع رقاب الحيوانات وردها الى الجسم قبل ان تفارقه الروح فطلب منه الملك خوفو ان يقطع رقبة اسير ويردها الى الجسم. فأجاب العراف: مولاي، ان الانسان صورة الله وهو حيوان مقدس. فلم يشدد الملك في طلبه وتركه يقطع راس طائر وردها . وجاء في سفر التكوين الاصحاح الاول : وقال الله نعمل الانسان على صورتنا وشبهنا ونفخ في انفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية . ونجد في نصوص الاهرام الجمل الآتية في وصف Ba

« انت روح . انت آله . ان روحك لك فلتعش ولن تموت »

اما كلمة اخ Akh فهي الحالة الكاملة التي يصل اليها الانسان بعد موته فيصير نجما ويصبح في مصاف الآلهة كان هذه الاقسام لا تنفصل بعضها عن بعض وعن الجسم او ما يحل محله فالكاء يعيش مع الجسم والروح لازمة للكاء ولا مندوحة عن هذا وذاك قبل ان يصير المخلوق اخ او يدخل في مصاف الآلهة

ترون مما تقدم ان المصري حاول التفكير والبحث فيما وراء الطبيعة وقد فكر في مسألة الروح والعقل فتارة يسمو الى جميل التعبير المعنوي وتارة يهوي الى الماديات فيخلط بين المادي والروحي ويفسر الروحي بالمادي ويتصور ملكوت السماء على شاكلة ملكوت الارض

كيف انتقلت حضارة مصر

للأستاذ عبد الهادى حمادة

الأمين المساعد بدار الآثار المصرية
ومدرس اللغة المصرية بمعهد الآثار

تناول حضرات من سبقوني تراث قدماء المصريين للحضارة العالمية ، فوفّوا المواضيع حقها من البحث ، وكشفوا لنا عن طرف هام من حضارة مصر ، وآثرها في حضارات العالم ، ولم يبق علينا الآن الاّ أن نستقصي أثر تلك الحضارة وكيفية انتقالها من مصر الى غيرها من الامم ، وهذا ما أحاوله في هذا المقال

ومن حسن الحظ أن الاكتشافات الحديثة قد هيأت لنا كل السبل اللازمة للبحث والاستقصاء ، مذ توجهت عناية الباحثين من علماء الآثار والمؤرخين الى الحفر في انقاض المدن القديمة . فمن أواخر القرن الماضي فصاعداً ، توالت الحفائر بمصر وسوريا وآسيا الصغرى والعراق وفلسطين وكريت وغيرها ، وكانت النتيجة أن وصلنا الى آراء تكاد تكون ثابتة عن أصول المدنيات الحديثة . وأضحت لدينا البراهين الملموسة على مبلغ ما أسدى الشرق القديم — وبالأخص مصر — الى أمم العالم أجمع ، في جميع نواحي المدنية من فن وعلم وفكر وثقافة

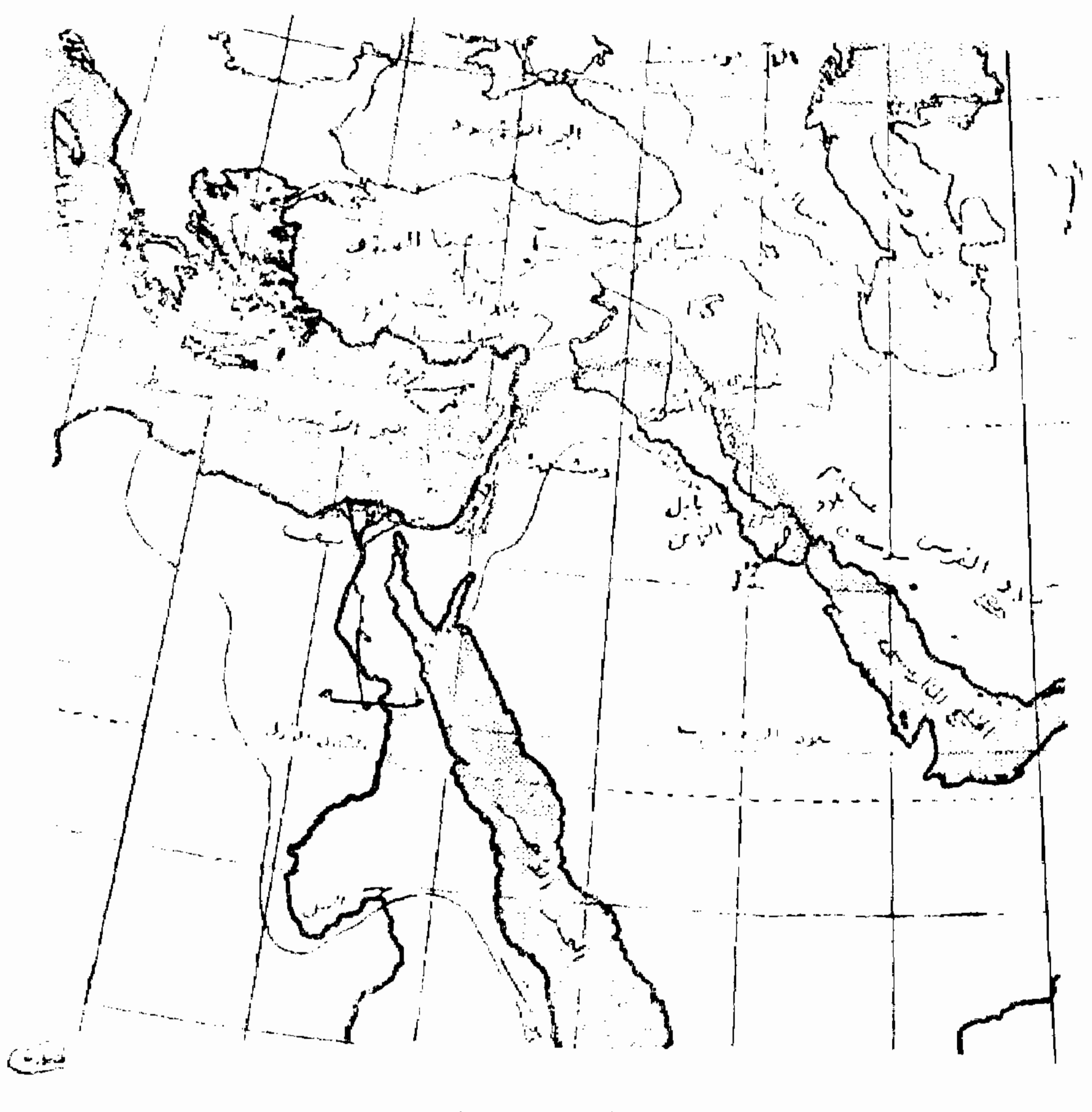
ولكي نتتبع أثر الحضارة المصرية في أدوار انتقالها الى الامم الاخرى في الازمنة المختلفة ، ينبغي علينا أن نرجع الى العصور الاولى لمنشأ تلك الحضارة ، وأن نتناول أيضاً طرفاً من تاريخ الامم التي كانت على اتصال بها

ولتشعب الموضوع رأيت أن أقسمهُ الى قسمين أطلقتُ على الاول منهما عصرَ التكون، وهو العصر الذي تكونت فيه الحضارات المختلفة التي ضربتْ الحضارة المصرية بسهم وافر في تكوينها ، واطلقتُ على الثاني عصر الانتشار ، وهو العصر الذي توثقت فيه عرى الاتصال بين مصر والامم الاخرى ، وانتقلت فيه حضارة ناضجة من مصر الى تلك الامم ، كما امتدت حضارات تلك الامم الى باقي انحاء العالم . ويقضي الترتيب الطبيعي أن نبدأ بالقسم الاول

قبل المسيح بنحو خمسين قرناً كان العالم كلّه لا يزال غارقاً في بحار الهمجية ، بالرغم من أنهُ كان قد بلغ العصر الحجري الحديث . ومنذ ذلك الوقت ، ابتدأت الحضارة تغزو بعض أجزاء العالم . فكانت كلما غزت بقعة من البقاع انتقلت من ظلمة الجهالة الى نور العرفان . وقد كان هذا بطبيعة الحال في عصور مختلفة وتحت تأثيرات متباينة . فبينما نرى نواحي من العالم قد قطعت شوطاً بعيداً في طريق المدنية والتقدم ، اذ بنا نجدُ نواحيَ أخرى منهُ قد ظلت في عصورها الحجرية عشرات القرون بعد ذلك

واذا أردنا أن نتكلم عن الجهات التي غزتها الحضارة في عصور مبكرة كان علينا أن نلقي نظرة على جزء من العالم يمتد من البحر الاسود وبحر قزوين شمالاً الى حدود مصر جنوباً ، ومن حدود الهند شرقاً الى بلاد ايطاليا غرباً . على أن مهد الحضارات الاولى يكاد لا يشمل الاّ

حوض نهر النيل في افريقيا وجزءاً خصباً يمتد على شكل هلال في الصحراء بين الخليج الفارسي والبحر الابيض المتوسط في آسيا ، ثم شواطيء اوربا الشرقية (انظر لوحة رقم ١)



(لوحة رقم ١)

في هذا الجزء من العالم نشأت حضارات مختلفة ونمت وازدهرت ثم تصادم بعضها ببعض فاندثرت حضارات وقامت مكانها أخرى ، واتحد بعضها الآخرُ ببعض فتكونت حضارات جديدة

وأهم هذه كلّها ثلاثُ حضارات تكونت في أزمنة مبكرة وفي أوقات متفاوتة . وتلك هي : حضارة المصريين في وادي النيل ، وحضارة البابليين في حوض نهري الدجلة والفرات وحضارة جزر بحر ايجى وأهمها جزيرة كريت

وكان أقدم تلك الحضارة ، الحضارة التي تكوّنت في وادي النيل ويرجع تاريخ منشئها

غالباً الى نيف وخمسة آلاف سنة قبل المسيح . ولا حاجة للتدليل على ذلك ما دام ثابتاً انهُ كان للمصريين تقويم فلكي في سنة ٤٢٤١ ق . م . فهذا ولا شك أثرٌ من آثار حضارة متقدمة جداً لا بد وأن تكون قد نشأت قبل ذلك التاريخ بعدة قرون . وقد سمعنا في المحاضرات السابقة الكثير عن الحضارة المصرية في نواحيها المختلفة . أما الحضارة الثانية فهي حضارة لا تقل عن حضارة مصر . وان ترجّح الآن انها تلوها في القدم وهذه هي حضارة بلاد ما بين النهرين

ففي أواخر الالف الرابع قبل المسيح ظهرت حضارة في شمال الخليج الفارسي عند مصب نهري الدجلة والفرات . ويظهر ان قوماً جبليين نزلوا من الجبال الشمالية الشرقية الى تلك الجهة. لم يكن هؤلاء القوم ساميين ، اذ كشفت الحفائر التي عملت في السنوات الاخيرة ببلاد التركستان، عن آثار لاتختلف في قليل أو كثير عن آثارهم . وهؤلاء القوم هم المعروفون بالصوميريين. وكانت لهم حضارة فزرعوا الوادي الخصب ، وعرفوا العجلات . واستخدموا لجرّها الثيران والحمير ، واستعملوا النحاس في صناعاتهم ، ونظموا دولة وتجارة، وأثبتوا لغتهم بالكتابة التصويرية ثم أخذوا في تبسيطها حتى أصبحت الكتابة المعروفة بالمسمارية . واستقر في شمال موطنهم قوم ساميون ، بارعون في الحروب ، يدعون الاكاديين . وبالرغم من أنهم كانوا أقل حضارة من الصوميريين الا أنهم أغاروا عليهم وتمكنوا من فتح بلادهم . ثم اتحد هذان العنصران وتكونت منهما أمة عظيمة ، هي الامة البابلية نسبة لبابل قاعدة ملكهم . وقد أثبت التاريخ في بطون صفحاته ملكهم العظيم « حامورابي » الذي عاش قبل المسيح بـ ٠٠٠ عام ، وما قام بهِ من الاصلاح والتنظيم في جميع نواحي الحياة ، لاسيما ما وضعهُ من القوانين

هذا هو الطوّر الاول للحضارة التي تكوّنت وازدهرت في حوض نهري الدجلة والفرات . وهي احدى الحضارات الثلاث التي أشرنا اليها . وكانت أساس حضارة الطور الثاني بتلك البلاد، كما كانت ذات اثر واضح في تكوين حضارات أُمم اخرى . وفي هذا الطور من تاريخ بلاد ما بين النهرين ، يرجح أنهُ لم يكن هناك صلات مباشرة بينها وبين مصر ، اذ ليس لدينا حتى الآن دليلٌ على أن الأمتين كانتا مختلطتين . غير أن حضارتيهما اتصلتا بالفعل عن طريق أمة أخرى كانت ذات أثر فعال في حضارات الامم القديمة وهي الأمة الفينيقية

والفينيقيون الذين اشتق اسمهم من كلمة Poivos ومعناها أحمر ، ويغلب أن يكون الرومان قد أطلقوها عليهم بسبب لون جلدهم ، قوم رحّل أتوا من جهة الخليج الفارسي ، واستوطنوا الجزء الشمالي من الشاطىء الشرقي للبحر الابيض المتوسط . وقد هيأت لهم الظروف المحيطة بهم نوع حياتهم ، فقد وجدوا طريق البحر بسواحله وما فيه من جزر قريبة منبسطاً أمامهم ، كما وجدوا في متناول أيديهم الاخشاب اللازمة لبناء السفن . فأصبحوا بحّارة وتجاراً من الطبقة الأولى .

لا سيما وأنهم بعد أن تعلموا الفلك من المصريين لم يوجهوه الى التنجيم والسحر ، كما فعل غيرهم من الأمم الشرقية بل انتفعوا به في حياتهم، واتخذوا منهُ أداة لجوب البحار ومعرفة سبلها ليلاً ونهاراً وقد أسسوا على شواطىء البحر الابيض مدناً أصبحت فيما بعد أعظم المراكز الهامة للتجارة وبقيت اسماؤها خالدة في التاريخ. ومن منا لم يسمع عن أرواد وصور وصيدا وجبيل وسمارا وعكا وبيروت ؟

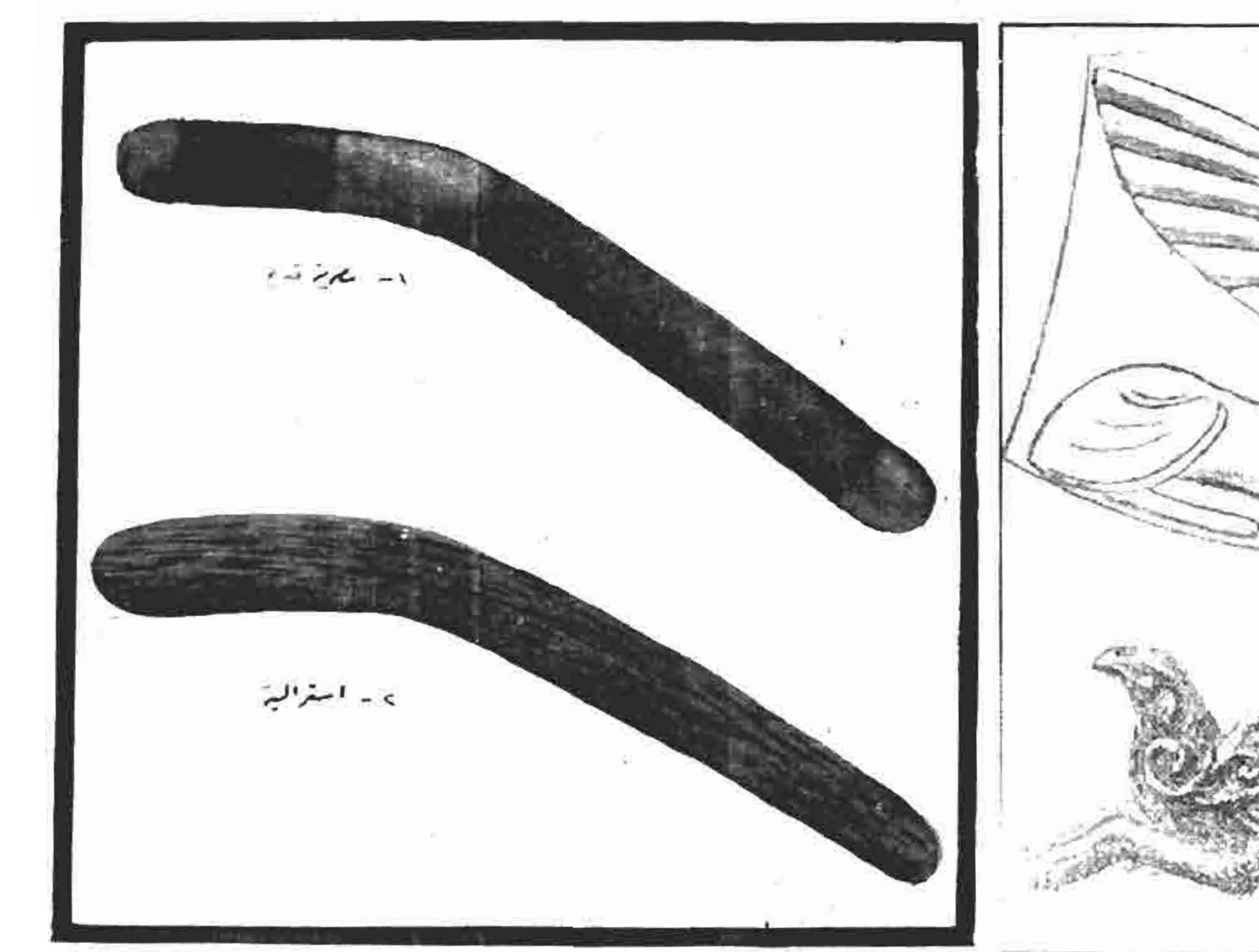
استقرّ هذا الجنس في فينيقيا منذ الالف الثالث قبل المسيح ، ولم تكن لهؤلاء القوم حضارة خاصة ، لكنهم اتصلوا بالمصريين وأخذوا عن حضارتهم ، كما اتصلوا بالبابليين واقتبسوا من حضارتهم ، وكوّنوا لانفسهم حضارةً قائمة بذاتها ، ولكنها في الحقيقة مزيج من الحضارتين المصرية والبابلية . وكما كانت لهم سفن تجوب البحر بمتاجرهم وتصلهم بالمصريين وغيرهم ، كانت لهم كذلك قوافل تسير على حافة الهلال الخصب بين البحر الابيض والخليج الفارسي وتتصل بالحضارات التي نشأت هنالك والتي كان على رأسها الحضارة البابلية

وقد أخذوا عن المصريين الكثير من أساليبهم في جميع شؤون الحياة من فن وصناعة وعلم وفكر ، فتعلموا منهم صناعة القيشاني والزجاج ونسج الكتان والصياغة وصناعة المعادن بأنواعها. وكان فنهم في الزخرفة مزيجاً من الفنين المصري والبابلي . ولكن أهم ما أخذوه عن مصر شيئان هما في الحقيقة عناصر الحضارة الاولى في ذلك العصر ، وهما استعمال النحاس والكتابة . فقد اقتبس الفينيقيون الحروف الهجائية المصرية وعددها اثنان وعشرون حرفاً من الخط الهيراطيقي وحوّروا في أوضاعها قليلاً للتبسيط واستعملوها لكتابة لغتهم التي كانت ولا شكّ لغة سامية . وقد أصبح واضحاً في الأذهان أن اتصال هؤلاء القوم بالمصريين يرجع الى أوائل عصر الدولة القديمة بمصر . وبلغ من شدة صلتهم بالمصريين بعد ذلك أن أقطعهم ملوك مصر حيًّا خاصًّا بهم في مدينة منف ليكون سكناً لهم ومركزاً لتجارتهم

والحضارة الثالثة هي حضارة جزر بحر إيجى . وأسبق هذه الى الحضارة وأعمها كانت جزيرة كريت . فبحر إيجى الذي يشبه بحيرة كان محاطاً من جميع جهاته بأرض تسكنها أمم متحفزة لأخذ قسطها من المدنية. وجزيرة كريت هي مفتاح هذا البحر، وتكاد تكون القنطرة الطبيعية بين الشرق والغرب. ومنذ الالف الثالث قبل المسيح ظهرت بها مبادىء حضارة أخذ في تكوينها جنس أبيض موهوب . وظهر استعمال النحاس في الجزيرة من أوائل الالف الثالث قبل المسيح. ولا شكّ أنهم اخذوه من مصر ما دام قد ثبت أن اتصالهم بالمصريين يرجع الى عصر بناة الاهرام بمصر او قبل ذلك . ويكفي دليلاً على ذلك ورود اسمهم « كفيتو » في النصوص المصرية منذ ذلك العصر. ومن منتصف الالف الثالث قبل المسيح ابتدأ الكريتيون يتعلمون من المصريين صناعة الخزف والصناعات المعدنية . غير أنهم — والحق يقال — عند ما جاء الالف الثاني قبل الميلاد كانوا قد

(١) — فوق — تمثل الحيوان المجنح عند المصريين

(٢) — تحت تمثل نفس الحيوان كما وجد في الصور المسينية

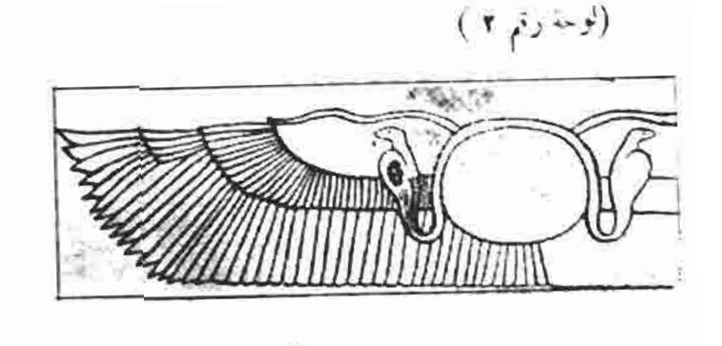




١ — صورة قطعة من الخشب من مقبرة توت عنخ امون ، كانت مستعملة عند قدماء المصريين لصيد الطيور في المستنقعات حيث يكثر نبات البردي

٢ — صورة لنفس هذه الآلة التي استحضرها المتحف المصري خصيصاً من استراليا المقابلة وهي تعرف هناك باسم البومبرانج ولا تزال مستعملة الى الآن

(لوحة رقم ٢)



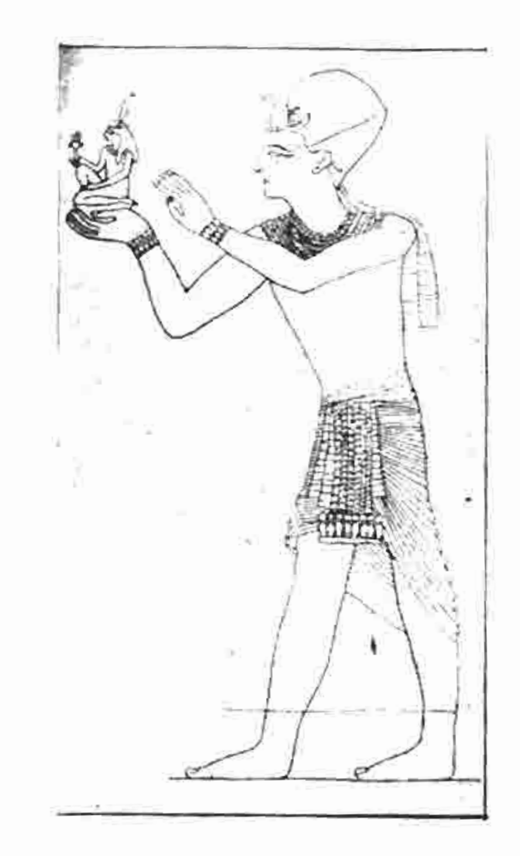
١ — مصرية

١ — تمثل قرص الشمس ذا الاجنحة تكتنفهُ من الجانبين الحية المقدسة



٢ — اشورية

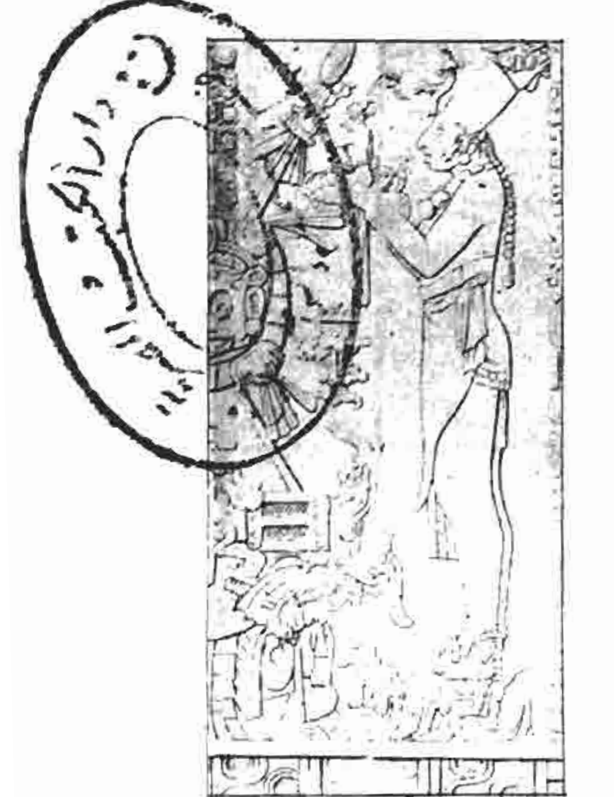
٢ — تمثل الاله الاشوري « اهورا مزدا » في دائرة على مثال قرص الشمس يكتنفهُ من الجانبين جناحاها



٣ — مصرية

١ — تمثل الملك ستي الاول يقدم رمز الحق « ماعت » لاحد الآلهة وهي منقولة عن معبد ابيروس

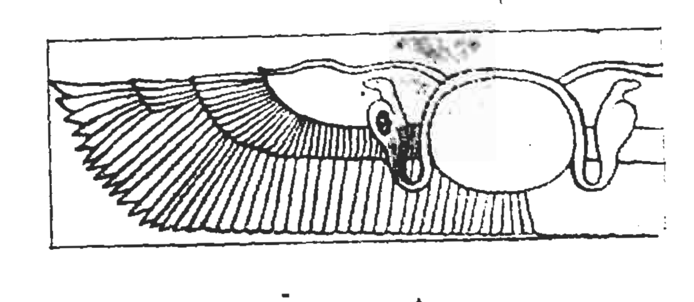
(لوحة رقم ٥)



٤ — مكسيكية

٢ — صورة منقولة من نقوش هيكل احد معابد الشمس في « بالفنك » بولاية «شياپاس» بالمكسيك الجنوبية وهي متأثرة ولاشك كل التأثر بالصورة الاولى

(لوحة رقم ٢)



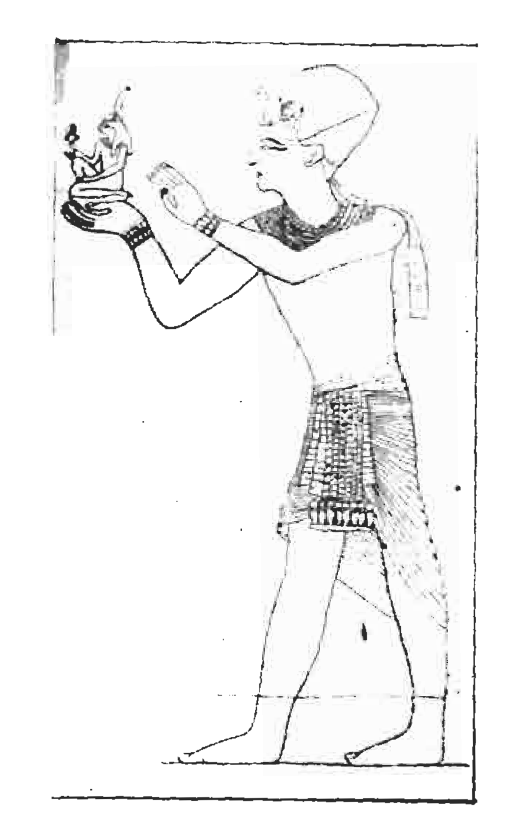
١ — مصرية

١—تمثل قرص الشمس ذا الاجنحة تكتنفهُ من الجانبين الحية المقدسة



٢ — اشورية

٢—تمثل الالهَ الاشوري « اهورا مزدا » في دائرة على مثال قرص الشمس يكتنفهُ من الجانبين جناحاها



٣— مصرية

١ — تمثل الملك ستي الاول يقدم رمز الحق « ماعت » لاحد الآلهة وهي منقولة عن معبد ابيروس

(لوحة رقم ٥)

٤ — مكسيكية

٢ — صورة منقولة من نقوش هيكل احد معابد الشمس في « بالفنك » بولاية «شياپاس» بالمكسيك الجنوبية وهي متأثرة ولاشك كل التأثر بالصورة الاولى

فاقوا أساتذتهم في تلك الصناعات وقدموا للعالم أواني فخارية ومعدنية تعتبر أرقى ما وصل اليه الانسان من البراعة في الصناعة والفنون . وقد أجريت في السنوات الاخيرة حفائر بالجزيرة أظهرت لنا عظم الصلة بين حضارتها وحضارة مصر ، وقد رأيتم التشابه الكبير بين أواني كريت وأمثالها من الاواني المصرية التي عرضها عليكم أحد الزملاء في محاضرة سابقة . أما في القصور التي بناها ملوك كنوسس فأثر الحضارة المصرية واضح جلي . وكما أخذ الكريتيون عن حضارة مصر اقتبسوا أيضاً من حضارات الامم الاخرى لاسيما الفينيقيين ، ولكنهم وجهوا تلك الحضارات وجهة خاصة بهم . غير أن الاصول المصرية ترى واضحة الظهور فيها

هكذا تكونت الحضارات الثلاث الأول التي تعتبر أسس حضارات العالم وقطعت شوطاً بعيداً في التقدم ولم يحل بعد الالف الثاني قبل الميلاد

فاذا كان أوائل الالف الثاني قبل المسيح . اذ بأمم أخرى في أدوار تكوين حضارتها . واذ بعوامل جديدة تشترك في تكوينها ، فقد اتصل الفينيقيون رسل الحضارة المصرية بأمم آسيا الغربية ، وكان أهم من اتصلوا به بعد البابليين هم الحيثيون الذين كانوا يسكنون آسيا الصغرى . وكان هؤلاء على اتصال دائم بمهدين للحضارة هما بلاد ما بين النهرين وجزر بحر إيجى . غير انهم تأثروا بتلك الحضارة الجديدة الوافدة اليهم ، وساعد على ظهور صبغة عالية لحضارتهم فيما بعد عاملان ، اولهما وجود معدن الحديد في جبالهم الواقعة عند سواحل البحر الاسود الجنوبية . وثانيهما معرفتهم للخيل . اذ كان لهذين العاملين اثر كبير في حروبهم وحضارتهم ، على أن اتصال الحيثيين بالحضارة المصرية لم يكن فقط عن طريق الفينيقيين . اذ أن الحيثيين قد اتصلوا ايضاً بفلسطين موطن اليهود في ذلك العصر . ولا داعي ان نذكر ان يهود فلسطين كانوا قد تحضروا بالحضارة المصرية من بدء تاريخهم اذ عاشوا اكثر من الف عام في كنف المصريين حتى خرجوا مع موسى وناهيك بما نقلوه عن المصريين في تلك القرون الطويلة من عوائدهم وأفكارهم وعلومهم على الوجه الصحيح

وإننا لو اعتبرنا حضارة الحيثيين أقل بكثير من حضارة مصر وبابل ، فإننا لا يمكننا أن ننكر أنها لعبت دوراً هاماً في مجموعة الحضارات المجاورة لبحر إيجي وحوض البحر الابيض المتوسط الشرقي . غير أن أهم دور لعبه الحيثيون كان في حياة الاشوريين . فأشور التي نشأت تحت نفوذ الصوميريين سكان دلتا ما بين النهرين كانت في ذلك الوقت في دور تكوين حضارتها . والأشوريون ورثة الحضارة البابلية كانوا على اتصال دائم من جهة الشمال والغرب بأمم أخرى كلها ذات صلة بالحضارة المصرية كالفينيقيين والحيثيين ويهود فلسطين . وقد عرض عليكم بعض الزملاء في محاضرة سابقة صوراً تبين أثر الحضارة المصرية في حضارة أشور ، وأرى أن أعرض عليكم الآن صورة أخرى يرى فيها الارتباط بين الافكار المصرية والأشورية (أنظر لوحة رقم ٢)

تحت كل هذه المؤثرات نمت وأينعت الحضارة الاشورية الكلدانية وكونت الطور الثاني من حضارة بلاد النهرين وكان لها تأثير عظيم في أمم آسيا على وجه عام وفي أمة الفرس على وجه خاص

ولعظم أهمية الامة الفارسية في تاريخ الحضارات نرى لزاماً علينا أن نشير بطرف الى شيء من حضارتها . فالفرس يمكن تسميتهم بحق أسلاف الاوربيين فهم من الجنس الآري الذي احتل الجزء الممتد من حدود الهند الشرقية الى المحيط الاطلانطيقي وكانوا يتكلمون لغة هي التي اشتقت منها اللغات الاوربية . انتشر هؤلاء القوم وتفرقوا فتطورت لغاتهم وأصبحت رطانات متباينة ومن ذلك الفارسية القديمة واليونانية واللاتينية والسنسكرت المعروفة في الهند الشرقية . وقد نزح بعضهم الى البلقان واستقر بعضهم بايطاليا . اما من بقي منهم في الشرق فقد رحل الى الهند واستوطن بها أو استقر غرب الخليج الفارسي . وهؤلاء الاخيرون ظلوا يدعون باسمهم « ايرانيون » . اختلط هؤلاء الايرانيون بالامم الشرقية بغرب آسيا وتكونت لهم حضارة خاصة لم تظهر الا في عصر الانتشار لكنها نمت تحت تأثير حضارة الاشوريين ببلاد ما بين النهرين . اذن فهي لا تخلو من عناصر مصرية . وقد زاد تلك العناصر المصرية في حضارة الفرس ما نقله الفينيقيون منها الى تلك البلاد عن طريق المحيط الهندي والخليج الفارسي كما نقلوا الى باقي أمم الشرق الاقصى في آسيا . وكان لحضارة الفرس أعظم الاثر في حضارة اوربا . وكما ساعد الفينيقيون على انتشار الحضارات لآسيا المصرية في أمم آسيا في هذا الطور . كذلك كان لهم صنع هام في نقلها الى شواطىء اوربا . فقد نقلوا الحروف الهجائية التي اقتبسوها من الحروف المصرية الى جزيرة كريت كما نشروها من قبل في غرب آسيا وامتد استعمالها من تلك الجزيرة الى شرقي اوربا أي الى بلاد اليونان ثم الى الرومان بعد ذلك وكانت هذه أول كتابة ظهرت على سواحل اوربا وربما يلذ لكم أن تروا هذه الكتابة في أطوار انتقالها : (انظر لوحة رقم ٣)

خط مصري قديم (الهيراطيقي)	خط فينيقي قديم	خط يوناني قديم	خط لاتيني
[illegible]	≮	Δ	A
[illegible]	9	8	B
[illegible]	1	1	C
[illegible]	Δ	Δ	D
[illegible]	∃	∃	E
[illegible]	Y	Y	F.V
[illegible]	Z	I	Z ..
[illegible]	H	H	H
[illegible]	⊕	⊗	..
[illegible]	7	≷	I

(لوحة رقم ٣)

قلنا إن كريت أخذت استعمال النحاس عن مصر وقد اتضح لنا الآن أنهم أخذوا الكتابة

أيضاً ، وهذان هما أهم عنصرين في انتقال العالم من العصور الحجرية الى العصور التاريخية أو عصور المدنية والتقدم . واذا ذكرنا الكريتيين وحضارتهم واتصالهم بالمصريين من العصور السحيقة في القدم فانما نذكر ذلك لان الكريتيين هم اسلاف اليونانيين في الحضارة . فقد غزت اساطيل الكريتيين التجارية من أوائل الالف الثاني قبل المسيح سواحل آسيا الصغرى من جهة بحر ايجي وظهر في منتصف هذا الالف قصور لامراء ايجيين في ميرانا ومسينا وهذا هو مبدأ عصر ازدهار الحضارة المسينية . وربّ معترض يقول : وأين مصر من تلك الحضارة وقد بعدت الشقة بينهما بعد هذه التطورات ؟ فلكي اصل ما انقطع في الاذهان من روابط تلك الحضارة رأيت ان أعرض احدى الصور (أنظر لوحة رقم ٤)

على ان برابرة اليونان الرحّل الذين كانوا قد استطابوا المراعي الخصبة في شمال بلاد اليونان ، أخذوا يتوغلون شيئاً فشيئاً الى ان تمكنوا من غزو كل سواحل اليونان الجنوبية وجزر بحر ايجي حتى جزيرة كريت نفسها . كان ذلك بعد منتصف الالف الثاني قبل المسيح . ونرى آثار تلك الغزوة ظاهرة في نقوش طيبة اذ نرى منظراً يمثل رمسيس الثالث في موقعة حربية مع الايجيين الذين فروا أمام غزاة اليونان وأرادوا النزول الى الشواطىء المصرية . وقد كانت هذه الغزوة المنكرة سبباً في ضياع الحضارة الايجية لاسيما في كريت . على أنه لم يمض الاّ فترة قصيرة حتى اتحد الغازون مع السكان الاصليين . وهما من جنس واحد ، وأنشأوا أكبر حضارة عرفها التاريخ وهي الحضارة اليونانية

الآن وقد ذكرنا شيئاً عن مهود الحضارت الاولى وكيفية تكوينها . ومبلغ ما أسدت حضارة مصر لذلك التكوين ، يجدر بنا أن ننتقل الى القسم الثاني وهو عصر انتشار الحضارة الناضجة والاتصال الوثيق بين مصر وغيرها من الامم وأودّ هنا أن أوجه التفات حضراتكم الى ان الاتصال بين الامم في عصر القسم الاول كان غالباً عن طريق التجارة أو الحروب . أما في هذا العصر فالاتصال وثيق جدّاً اذ هو عبارة عن اختلاط تام لأزمنة طويلة ، مكن الامم المختلطة من درس حضارات بعضها والاقتباس من بعضها في الصناعات والفنون والعوائد والافكار اقتباساً واسع النطاق

ففي هذا العصر انتشرت الحضارات التي تكلمنا عنها سريعاً الى الشرق والغرب فأخرجت الامم التي كانت لم تزل في عصور الهمجية الى عصور المدنية والتقدم

ويبدأ هذا العصر في عهد الدولة الحديثة بمصر ، أي قبل المسيح بألف وخمسمائة عام حيث كانت مصر في أوج عظمتها واحتلت جيوش فرعون معظم بلاد غرب آسيا فأصبحت فلسطين وفينيقيا وسوريا مستعمرات مصرية . وأصبح لمصر ولمدنية مصر القدح المعلى بين تلك الامم . وبلغ من نفوذ مصر هناك أن شيد ملوكها معابد في تلك البلاد كالمعبد الذي شيده رمسيس الثالث في كنعان

ومعبد تحتمس الثالث في رتنو وانتشرت الأفكار المصرية كما انتشرت الفنون والصناعات والعوائد في غرب آسيا . واستمر ذلك ثلاثمائة عام . فاذا كان عام ١٢٠٠ ق . م . نجد مصر قد انكمشت قليلاً ونجد الفينيقيين رسل حضارة مصر وقد عظم نفوذهم وزادت متاجرهم على شواطىء آسيا الصغرى كما انتقلوا الى شواطىء افريقيا الشمالية . ونجد اليونانيين وقد زادت حضارتهم وعمت جزر بحر ايجي وسواحل آسيا الصغرى ، وزاد اتصالهم بمصر حتى أسسوا بها مدناً خاصة لهم

فاذا جئنا الى القرن الثامن قبل المسيح وجدنا مصر وقد فترت عزيمتها من كثرة ما انتابها من غزوات الاجانب ووجدنا الدولة الاشورية وقد أشرق نجم عظمتها وامتد نفوذها الى ما حولها من بلاد غرب آسيا واستمر نفوذها يشتد حتى خضعت لها مصر وفلسطين وسوريا كما خضع لها اليديون في بلاد ايران . وهكذا حكمت الامبراطورية الاشورية الشرق كله

فاذا كنا في عام ٦٠٠ ق . م . إذ بالامبراطورية الاشورية ما زالت عظيمة غير ان مصر خرجت من يدها وابتدأ يغزو مصر النفوذ اليوناني كما غزا جزءاً هاماً من آسيا الصغرى وتساليا وأمتد الى ايطاليا وصقلية وشواطىء بلاد الغول (فرنسا). كما نجد نفوذاً آخر بدأ يجتاح أمامه نفوذ الامم الاخرى في حوض البحر الابيض وهو نفوذ الفينيقيين اذ نجدهم يؤسسون مستعمرة قرطاجنة في شمال افريقية ممتدة من تونس حتى جبل طارق وهي المستعمرة التي كان لها بعد ذلك بضع قرون أعظم تجارة في حوض البحر الابيض كما كانت أقوى منافساً لرومة في اواخر القرن الثالث قبل المسيح

فاذا انتقلنا الى القرن الخامس قبل الميلاد اذ بالامبراطورية الفارسية وقد نمت وعظم شأنها فيما بين حدود الهند شرقاً وحدود اليونان غرباً حتى عم سلطانها معظم هذه الامم . وأصبحت مصر وبلاد غرب آسيا وحول البحر الاسود من جهة اوربا مستعمرات فارسية. واصبحت وجهاً لوجه أمام اليونان والرومان من بعدهم . وقد ظلت هذه الامبراطورية العظيمة لم تخضع للامبراطوريات الاوربية اكثر من الف عام . وكانت حضارتها ذات أثر واضح في معظم أمم آسيا كالهند والصين وغيرها

فاذا كان أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، رأينا مقدونيا في شمال بلاد اليونان وقد كبرت وعظمت قوتها فاحتلت جيوش الاسكندر الاكبر كل آسيا حتى حدود الهند شرقاً كما احتلت مصر وأسس الاسكندر مدينة الاسكندرية

فاذا كان القرن الثالث قبل الميلاد نجد رومة وقد عظم سلطانها تحاول انتزاع النفوذ من قرطاجنة مستعمرة فينيقيا التي أصبحت خطراً يهددها. وفي هذا العصر يحكم مصر ملوك يونانيون أهمهم البطالسة ويستمر ذلك نحو الثلاثمائة عام

فاذا جاء أواخر القرن الاول للميلاد نجد رومه وقد تغلبت على منافسيها وأسست أعظم أمبراطورية عرفها التاريخ وأصبحت مصر إحدى مستعمراتها

وهكذا نجد الحضارات الاولى التي كانت حضارة مصر من أهم عناصرها قد انتشرت عن طريق هذه الامم في النصف الغربي من آسيا وفي كل اوربا كما انتشرت في شواطىء افريقيا الشمالية

الآن وقد انتهينا من هذا الاستعراض التاريخي . نود أن نذكر بعض العوامل الاخرى الهامة التي كانت من أسباب انتقال الحضارة المصرية في أطوار نضوجها إلى أوروبا المتحضرة

ومن أهم هذه العوامل مدينة الاسكندرية . فقد أصبحت هذه المدينة بعد تأسيسها أعظم مركز اتصال للحضارات المختلفة على وجه عام وللحضارة المصرية واليونانية على وجه خاص . ولا يتسع المقام هنا لذكر كل ما انتقل من مصر عن طريقها من أفكار وعلوم وصناعات وفنون ويكفي ان نذكر انه كان هناك فن خاص ذاع عند اليونان والرومان ويطلق عليه الفن الاسكندري

ولا نكر أن مصر اقتبست من الحضارات الجديدة التي تكونت على شواطىء البحر الأبيض الشمالية . غير أن ما اقتبسه اليونان والرومان من الحضارة المصرية الناضجة كان أعظم . وقد بلغ من تأثر اليونانيين بالافكار المصرية أن أصبحت عبادة الإلهة إزيس شائعة في بلادهم . وما اسم « إزيدورا » الذائع بين الاسماء اليونانية الا ترجمة لعبارة معناها « عطية ازيس » وقد كان لهذه المعبودة معبد قائم بمدينة دلفي

وقد نعرف مبلغ آثار الحضارة المصرية في الغرب كله اذا نظرنا الى آثارها عند الرومان فقد وجدت الافكار المصرية طريقها من اليونان الى روما وبلغ من تأثر الرومان بالديانة المصرية أن أقام الامبراطور « كاراكالا » معبداً فخماً للإله المصري « سيرابيس » وهو الإله أزريس متحد مع العجل « ابيس » وقد أقام الملك هدريان مسلة في رومة ونقش عليها تذكاراً بالكتابة الهيروغليفية . وما زال السائح على ضفاف نهر الرين والدانوب يرى تماثيل صغيرة للإلهة «إزيس» لا على أنها مصرية بل على أنها من مواطني تلك البلاد

على أن امتداد الحضارة المصرية لم يكن الى الشمال والشرق والغرب فحسب، بل كان ايضاً الى جهة الجنوب . فقد ثبت ان مصرياً ما قبل التاريخ كان يعرف شواطىء البحر الاحمر الجنوبية وقد تكلم عن ذلك أحد الزملاء

أما في العصور التاريخية فقد كثرت رحلات المصريين الى الجنوب وقد اهتم ملوك الدولة القديمة بارسال بعثات الى السودان والحبشة فتوغلت تلك البعثات في افريقيا ليأتوا بالاقزام الذين كان لهم حظوة عند ملوك مصر ، ونرى تماثيلهم منتشرة في المتحف المصري . على ان أهم ما حدا بالمصريين الى الاتصال بالجنوب كان الاهتمام باستجلاب المر والطيب وغيرهما من مواد التحنيط

من بلاد الصومال التي كانوا يدعونها « بونت » . وقصة البحار المصري الذي قام برحلات في البحر الاحمر وما في قصصه عن ذلك من خيال بديع هي من عصر الدولة الوسطى

وكان لاتصال المصريين بالجنوب أثر هام في نقل كثير من الحضارة المصرية الى أمم آسيا على الشواطىء الجنوبية والشرقية . أضف الى ذلك الرحلات الواسعة النطاق التي كان يقوم بها التجار الفينيقيون في المحيط الهندي منذ القرن الثامن قبل المسيح وينقلون في أثنائها من حضارتهم وحضارة مصر الى أمم الشرق الاقصى الشيء الكثير. وقد بلغ هؤلاء التجار في رحلاتهم المحيط الباسفيكي. فلا موضع للعجب اذا رأينا في الهند وفي برما واستراليا وحتى على شواطىء المكسيك آثاراً للحضارة المصرية وللافكار المصرية . وما نعت ملوك الشرق الاقصى بأبناء الشمس وأبناء السماء وعبادتهم للشمس وتمثيلهم لمعبود مركب من قرص الشمس ذي أجنحة باشق مع الثعبان ، الا من آثار تلك الحضارة

على أننا لو أردنا أن نبحث عن كل ما نقل من الحضارة المصرية الى جميع هذه الأمم لوقفت امامنا صعوبات عديدة . اذ أن معظم ما نقل لم ينقل كما هو بل اختلط بحضارات أخرى وتناولته يد التغيير في كثير من نواحيه

وبالرغم من ذلك فقد يستطيع المرء ان يرى في بعض نواحي حضارات البلاد النائية كاستراليا واميركا آثاراً واضحة للحضارة المصرية لم تطمس معالمها يد التغيير فتبرز له الاصول المصرية في النحت والتصوير وفي الافكار وحتى في أساليب الحياة (أنظر اللوحتين رقمي ٥ ، ٦)

الادب المصرى القديم

بقلم

جمال الدين الشيال

ليسانسيه في التاريخ من الجامعة المصرية

تقدمة

تدين الحضارات جميعاً للمصريين القدماء بالفضل العميم ، إذ كان المصري القديم أول من فكر في تسجيل خواطره وأفكاره ، وكانت لهُ محاولات جدية قديمة في هذا السبيل حتى وفق أخيراً إلى اختراع الكتابة ومن ثم أخذ يسجل هذه الخواطر وهذه الأفكار على الأحجار أولاً ثم على جدران المعابد والمقابر . غير أنهُ تبعاً لسنة التطور اتسعت آفاق تفكيره وتقدمت مرافق حياته وبالتالي أوجد لنفسهِ آداباً وعلوماً وأحبَّ تسجيلها في صحف يتناقلها الخلف عن السلف ، وأحبَّ تلقينها للمصريين جميعاً بل ولسكان العالم الانساني فألجأتهُ الضرورة إلى اختراع ورق البردي . فكان هذا الاختراع الهدية الثانية الى العالم كي يعرف نفسه ويدوّن ما عرف ليتركهُ للأجيال التالية جيلاً بعد جيل

سهلت إذن على المصري الكتابة . فالكتابة على ورق البردي أسهل من النقش على الحجر — ما في ذلك شك — وملأ الصحف بأدعياته الدينية ، وآغانيـهِ الغرامية ، وأناشيده الوطنية ، وقصصه الشعبية ، وآرائه العلمية والفلكية . فكان لنا مما بقي من هذه الصحف ذخر لا زلنا نجد في استقراء أسراره

إذن فقد كان للمصريين القدماء أدب حي استمر يتطور بتطور الحضارة المصرية حتى وصل إلى نوع من الأدب الرفيع المعبر عن العواطف والآمال . وقد وصل إلى علماء المصريات أوراق من البردي كتبت عليها قصص هي من أجمل القصص موضوعاً وخيالاً ووصل اليهم ايضاً شعر وغناء وأناشيد كلها كالقصص ممتع وجميل . وكان للمصريين إلى جانب هذا كله أدب ديني قائم بذاته كانوا يصلون فيهِ إلى مذهب أبي نواس حيناً فيناجون اللهو والساقي والخمر والراقصة وإلى مذهب أبي العتاهية حيناً آخر فيناجون القلب والروح والآلهة

وشبابنا المثقف يعرف أن لليونان القدماء أدباً مزدهراً يقرأونهُ بل ويدرسهُ الكثيرون منهم ، وشبابنا المثقف يعرف أن للفرس كذلك أدباً مزدهراً يقرأونهُ بل ويدرسهُ البعض منهم ، وشبابنا المثقف يعرف أن للعرب وللروس وللفرنسيين وللانكليز بل ولكل شعب من شعوب العالم القديم أو الحديث أدباً مزدهراً كذلك يقرأونهُ بل ويدرسهُ ويكتب عنهُ الكثيرون منهم

وبعد . فهل يعرف شبابنا جميعاً والمثقفون منهم خاصة أن للمصري القديم أدباً وُجد وازدهر وأينع قبل ان توجد آداب الشعوب جميعاً ؟

قال سقراط : «اعرف نفسك » فهذه الكلمة اليسيرة يجب أن تكون نبراسنا في هذه الحياة. يجب أن نعرف عن أنفسنا كل شيء قبل أن نسعى لمعرفة الغير.. ومصر القديمة بتاريخها وآدابها وعلومها وفنها تكاد تكون مجهولة لدى الغالبية العظمى — لا أقول من الشعب — بل من الشباب المثقف

﴿ توت إله العلم والحكمة والأدب ﴾ : كان المصريون القدماء يعتقدون أن مخترع الكتابة المصرية هو الاله تحوتي Tehuti أو توت Thoth — ومن هنا سميت الكتابة عندهم بالكتابة الهيروغليفية أو الكتابة المقدسة . . ومن عقائدهم ايضاً أن توت هو الذي اخترع علم الحساب وإذ كان هو الذي يتولى ضبط مدارات الشمس والقمر والنجوم وينظم الفصول فقد اعتبروه أول عالم بعلوم الفلك

كان توت إذن إله الحكمة والمعرفة في الأرض والسماء والمبتكر لكل محاولة حاولها الانسان في الرسم والتصوير والنحت . سيد الكتب وموجدها ، والكاتب الحاذق — كاتب الآلهة والأمين على سجلات البشر حيث تدوّن أعمالهم

علمهُ الغزير كان يمكنهُ من العثور على الحقيقة دائماً . وهذه المقدرة دعت المصريين إلى تعيينه قاضي قضاة الأموات

وتقول الرواية القديمة إن توت تولى هذا المنصب في الجنة عند محاكمة اوزيريس لما اتهمهُ أخوه «ست» إله الشر بارتكاب بعض الجرائم ....درس توت القضية درساً وافياً وأعلن رأيه للآلهة أن ادعاءات « ست » باطلة وأن قول « أوزوريس » هو الحق . . . ولذلك كان المصريون يصلون لتوت دائماً رجاء أن يحكم لهم يوم البعث كما حكم لاوزوريس ، ورجاء أن يطفف الكفة التي تحمل قلوبهم يوم الحساب

وتقول الرواية الشعبية القديمة إن كتب « توت » الدينية كانت تحوي كل أنواع العلم والمعرفة وإنها هي التي اكسبت مصر هذه الشهرة العلمية العالمية وإنها كانت تبلغ ٣٦٫٥٢٥ كتاباً

كان المصريون يبجلون الكتّاب الذين يدرسون هذه الكتب وينسخونها لاعتقادهم أن روح « توت » كانت تحل فيهم . . وكان للكاتب لديهم مقامٌ جليل لا يعدلهُ مقام انسان آخر لأنهُ رجل العلم والمعرفة

ويبدو « توت» على أوراق البردى والتماثيل في شكل رجل له رأس ايبس Ibis ويصحبهُ دائماً نسناس لهُ رأس كلب يدعى Asten

﴿ المملكة القديمة ﴾ : امتاز العصر الاول — عصر المملكة القديمة — بنوع خاص من الأدب الديني الخالص هو ثمرة من ثمار سيطرة الكهنة الدينية في هليوبوليس ، ويتكوّن

هذا الأدب من تلك الوثائق المعروفة « بنصوص الاهرام » التي تمدُّ بحق أوفى مرجع عن تاريخ وديانة هذا العصر

ويقصد بهذه النصوص النصوص الهيروغليفية الطويلة المنقوشة على جدران خمسة اهرامات في سقارة أقدمها بُني للملك « اوناس Unas » أحد ملوك الأسرة الخامسة . والاربعة الباقية بُنيت لتيتا Teta وببي الاول Pepi ومرفرع Merevra وببي الثاني Pepi II من ملوك الأسرة السادسة

وهذه النصوص أقدم صورة من صور الأدب الديني لأنها تتحدث عن عقائد ترجع إلى آلاف السنين قبل الأسرة السادسة

ومن المرجح أن قدراً كبيراً من هذه النصوص قد أنشأهُ قساوسة المصريين لصالح الأموات في عصور سحيقة جداً قبل ان يعرف المصريون الكتابة . وانهم كانوا يعيدون تلاوتها عند وفاة كل ملك .. وكان رجال الدين اول الأمر يحفظون هذه النصوص عن ظهر قلب ثم تناقلتها الألسن جيلاً بعد جيل حتى تعلّم المصريون الكتابة وخشوا ان تأتي عليها يد النسيان فسجلوها على جدران هذه الاهرام

وتحدّثنا نصوص الاهرام عن المعتقدات الدينية القديمة للمصريين الأول كما تروي لنا بعض الحقائق التاريخية التي لا نعثر عليها من مصدر آخر . ولكن بعض مقطوعات هذه النصوص تصور ألواناً من الحياة والأجواء وأشكالاً من الحضارات الغريبة التي لا نستطيع فهمها في عصورنا الحديثة .. كذلك معاني بعض كلماتها غير معروفة وتركيب بعض الكلمات والجمل غير مألوف والآراء التي تعبر عنها غريبة لأنها تمثل آراء العنصر المصري الافريقي الأول

وقد كتبت هذه النصوص لخير الملك الميت ولتجلب لهُ السعادة في العالم الآخر ولتمكنهُ من ان يكون ملكاً في هذا العالم الآخر كما كان ملكاً على الأرض قبل موته .. ولذلك كان موضوع كل صلاة أو أدعية أو أغنية في هذه النصوص يدور حول هذا المعنى « حفظ الحياة للملك في العالم الآخر ليتولى العرش هناك »

غير اننا لا نعدم العثور في مخلفات هذا العصر على بعض النصوص الادبية التي تتحدث عن الشؤون الدنيوية — وإن كانت هذه النصوص محصورة قليلة العدد كأغنية الراعي أو أغنية حملة الاثقال وكلتاهما منقوشتان على مقابر ممفيس فوق الصور التي تمثل نواحي الحياة الاجتماعية المختلفة

﴿ فترة الانتقال ﴾ : وفي فترة الانتقال بين المملكتين القديمة والوسطى نشبت ثورة اجتماعية خطيرة كانت النذير ببدء عهد أدبي جديد — فقد تحرر الشعب من القيود الدينية وتحرر من ضرورة الكتابة على الحجارة وجدران المقابر — وكانت له آلام وآمال بعثت في نفسه الشكوى

والرجاء فلجأ إلى طريقة سهلة يسيرة للتفريج عما في نفسه واستبدل الحجارة بأوراق البردي يمليها شجونه وشعوره

وكان شأن الشعب اثناء هذه الثورة شأن الشعوب جميعاً اثناء الثورات جميعاً فقد اصطدمت الاماني الروحية بالقوة الباطشة ، ولم تجد الفصول الادبية المجال للظهور والانتشار ، ولم يستطع الشعب إظهار بعض آثاره الادبية إلاَّ في عهد ملوك هراكليوبوليس (ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة) فظهرت (تعاليم الملك مريكارع) و « نقد التجارة » و « قصة الفلاح » وكلها تعد مرآة صادقة للظروف السياسية التي كانت تجتازها البلاد في ذلك الحين . .

ويمتاز أدب هذه الفترة بغياب الروح الدينية . وليس هذا غريباً إذا عرفنا أن العهد عهد ثورة وأن الأدب أدب ثورة . . ومع هذا فانا نجد لحادثات هـذه الثورة صدى نسمعهُ في « أغاني بيت الملك أنتف » التي يشترك المؤدون في تلحينها . . في هذه الاغاني يبدو الشك الفاشي ويكشف عن نفسهِ في نبوغ وأمن لا تهدده اضطرابات عهد الثورة

﴿ بعد الثورة ﴾ : وبابتداء عهد الأسرة الثانية عشرة كان النظام والأمن قد استتبا وعادت الحياة تسير سيراً هادئاً لا اضطراب ولا قلق فيهِ — وأُعدت للجماعات نظم تعتمد على القوانين العادلة وتلاشت الفوارق وغابت حقوق أوزوريس التي كانت تميز فريقاً على فريق وانتشر في مصر أدب ديني جديد كانوا يكتبونهُ على الأكفان والتوابيت وورق البردي . . هذا الأدب يتحدث عن المُثُل الصالحة وعن الحياة الطيبة الهانئة في العالم الآخر . . ونشأت في البلاد مدرسة أدبية خاصة تعمل على نشر أساليب اللغة البديعة وتعمل لايجاد أسلوب بديعي جديد . . وقد ترك لنا هؤلاء الكتَّاب بعض قصصهم الرائعة كقصة « سنوحي » وقصة « الملاح الغريق » كذلك امتاز هذا العصر بأنواع شتى من الأدب كأدب الذكريات والأدب الغنائي وأدب الحكم التي تنسب الى الوزراء والملوك السالفين

﴿ أدب جديد في الامبراطورية الحديثة ﴾ : حتى اذا انتهى عهد المملكة الوسطة وابتدا عهد الامبراطورية الحديثة فانا نجد أن الأدب يساير المجتمع في تقدمهِ ويتطور تطوراً سريعاً نحو الحرية ، ويحاول ان يبعد قليلاً عن أشكالهِ القديمة . . فان امتداد النفوذ المصري في انحاء الامبراطورية والاصلاح الديني الذي دعا اليهِ الملك « اخناتون » قد مهدا السبيل لايجاد أجواء جديدة من التفكير والخيال . . فنجد الأدب يحطم الاشكال القديمة ويفلت من قيود المدرسة الأدبية السالفة ويخرج آياته للمصريين في أسلوب سهل حي مستساغ . بل وسرعان ما تطرقت هذه السهولة وهذه الحياة إلى اوساط الموظفين ورجال الادارة والمثقفين من الشعب . وخير صور هذا الأدب الجديد تبدو في القصص الكثيرة التي وصلتنا عنهُ والتي يرجح المؤرخون

انها كتبت للأطفال والعامة من الشعب . . ولكننا — مع بساطتها — نقرؤها فنحس لحوادثها روعة وعذوبة لا نحسهما في أنفسنا عند قراءة أدب العصر السابق

﴿ الأدب الديني والاخلاقي في هذ العصر ﴾ : كذلك لم يخلُ هذا العصر من بعض صور للأدب الديني . فالحياة الدينية في مصر القديمة كانت تحتل المكانة الاولى من تفكير المصريين القدماء . ونلاحظ ايضاً ان هذا التطور الذي لحق أدب هذه الفترة قد شمل هذه الصور من الأدب الديني فامتازت هذه الصور بطابع خاص يميزها عن غيرها . . وخير مثال لها « أغنيات آتون » التي تتحدث عن حب العبد المخلوق وإخلاصه للاله القوي الواحد الأحد. كذلك امتاز أدب هذا العصر بظهور الدعوة الأخلاقية . استمعوا الى هذا الحكيم « آني » وهو يبين للابن واجبهُ نحو أمه :

« ضاعف الخبز الذي تعطيه لأمك . احتملها كما احتملتك . إنها عند ما ولدتك بعد شهور من حملك استمرَّت تحملك على عنقها . وبقيت أعواماً ثلاثة وثديها في فمك . انها لم تشمئز يوماً من أقذارك . انها لم تقل يوماً : « لم فعلت هذا ؟ » لقد أخذتك الى المدرسة حيث تتعلم القراءة . . واعتادت أن تنتظرك هناك كل يوم ومعها الخبز والشراب من المنزل . . فعند ما تنمو وتصبح ذا زوجة وبيت خاص ، أرجع بصرك إلى الوراء لتذكر الوقت الذي حملتك أمك . . هل لك ألاَّ تدعها تعايرك . . وألاَّ ترفع يديها الى الله فتشكو اليه منك . . »

كذلك استمعوا الى هذه القطعة الأخلاقية الجميلة :

« احترس من المرأة الاجنبية غير المعروفة في المدينة . . إنها كمجرى من الماء — عميق لا حدَّ لهُ . . لا أحد يعرف حدودها . . المرأة التي تلحُّ عليك كل يوم عند ما تكون وحيدة وزوجها غائب . « أناجميلة . . » من الخطيئة التي تستحق الموت أن تنصت اليها . . »

هذه أمثلة لأدب كتبهُ جماعة ذوو نصيب من الثقافة . . ولكننا الى جانب هذا الأدب المثقف نجد أمثلة حية من الأدب الشعبي في عهد الامبراطورية الحديثة . قصصاً رائعة كتبت بالخط الديموطيقي تتحدث عن مخاطرات بعض الجنود وكانت هذه المخاطرات تنتهي في الغالب بتسويدهم حتى يصبحوا ملوكا أو أمراء

﴿ أغاني الحب ﴾ : إلى جانب هذه القصص امتاز هذا العهد بظهور كثير من أغاني الحب . وهذا اللون من الأدب الغنائي الخالص يبين بوضوح ناحية جد طريفة من نواحي التفكير المصري . هذه الأغاني الغرامية وضعت « لإدخال السرور في القلب » على حد تعبير المصريين القدماء ، ولهذا كانت تغنى دائماً على القيثارة أو الناي . ومعظم هذه الشذرات الغنائية نوع من الحوار يتبادل فيه الرجل والمرأة الغناء «dialogue» ويدعو أحدهما الآخر « بأخي » و « أختي »

ونحن عند دراسة هذه الأغاني وتحليلها نلاحظ صدق ما رواهُ هيرودوت عن صور الإباحية في مصر القديمة فهو يخبرنا ان نساء مصر القديمة كنَّ يتمتعنَّ بنصيب كبير من الحرية في حياتهنَّ العادية وفي صخب الأعياد وضوضائها ، كما كنَّ يخرجنَ لشراء ما يلزم لبيوتهنَ في حين يبقى الرجال في المنازل للقيام بشئونها

وكانت العادة عند الغناء ان يبدأ الرجل ونصيبه — في الغالب — من الكلام قليل بينما تقوم المرأة بعده بالنصيب الأوفر من الغناء . . وها كم أغنية جميلة يتحدث فيها الرجل عن حبهِ . . يقول انهُ سيرتقي صفحة النيل متجهاً نحو ممفيس ، وهناك سيجد « اخته » في حديقة عطرة ، جالسة تحت الظلال ، وسيحس عند ما يرشف قبلة من شفاهها بالسعادة تسري في عروقهِ . إنهُ يحس وهو الى جانبها انهُ كالطائر الذي يقع راضياً في شراك الحب ، ولكن نشوة الحب غالبة عالية فهو خاضع لهـا . إنها أشد قوة في تأثيرها من الخمر . . ومالي أمسخ لكم كلام الرجل . . استمعوا إلى ألفاظ أغنيته : —

« سأرتقي صفحة النيل ومعي حزمة من الغاب أحملها على كاهلي . . سأذهب الى ممفيس ، وسأقول إلى بتاح — سيد العدالة « امنحني أختي هذه الليلة . فالنهر خمر ، وبتاح غابه ، وسخمت لوتسه ، وايارت براعمه ، ونفرتم زهوره . . انظر الى الفجر وممفيس تبدو كإناء مترع بالفاكهة وضع امام بتاح الالـه ذي الوجه الحسن

سأرقد في منزلي ، وسأتظاهر بالمرض كأني ضربت وسيأتي جيراني ليعودوني ، وحينذاك ستأتي أختي معهم وستكون اشفى من الاطباء لأنها تعرف موطن الداء . .

أرى أختي قادمة فيحس قلبي السرور ، وأفتح ذراعي لأضمها إليَّ . عند ما تأتي حبيبتي يخفق قلبي في موضعهِ . . إذا ضممتها إليَّ وذراعاها تتقبلاني يخيل إليَّ أننا في بلاد بنت . وإذا ما رشفت قبلة من شفتيها وهما مفتوحتان فأنا سعيد دون خمر . . »

هـذا هو حديث الرجل . . حديث ساذج بسيط ينبيء عن حب سهل يسير . هو يقع في الشراك سريعاً ، ويمكن استرضاؤه بسهولة . . اما حديث المرأة فسترون أنهُ يختلف عن حديث الرجل فهي أشد مكراً في حبها وأكثر كياسة في صبرها وأشد رضاء في فوزها . . انها تستعمل كل وسائل الاغراء . لقد اعتادت كل يوم الخروج لتنصب الشباك لصيد الطيور ، ثم تعود الى أمها محملة بالصيد . ولكنها تؤثر حبيبها على الطيور وأمها . . انها تفضل ان تقضي الوقت معهُ على ان تجلس لمراقبة الطيور وصيدها . بل انها لترجو ان تطلق الطير لتستمع الى شكواهُ وشدوه وحبيبها الى جانبها يشاركها السماع . فشعورها ملتهب ولكن افكارها عملية . كل ما تريد هو اتحاد خالد . هي تريد الزواج . وإليكم ألفاظ أغنيتها : —

« أيها الأخ الحبيب ! قلبي يتبع حبك وأنا اقول انظر ماذا افعل . . لقد اتيت ونصبت الشباك بيدي . كل طيور بنت تشرق في سماء مصر ودهن المر يغطيها . ولكن الطائر السابق هو الذي يلتقط الحب . وسيحضر العطر معهُ من بلاد بنت وستكون مخالبه محملة بالبخور . وكل بغيتي ان نطلق سراح الطائر معاً أنا وأنت وحيدين ثم نستمع الى صوته الشاكي المحمل برائحة المر . كم أكون سعيدة عند ما تكون معي وأنا أنصب الشراك ! صوت الاوزة يشكو عند ما تلتقط الطعم . . وحبك سيأخذني اليك — وسوف لا أفقده — بل سأغادر شباكي . ماذا أقول لأمي التي أعود اليها كل يوم محملة بالطيور . . ؟ ؟ واذا سألتني . . « ألم تنصبي شباكاً اليوم . . ؟ ! » لا . . بل أنا أسيرة حبك

قبلتك وحدها هي التي تبعث الحياة في قلبي . وعند ما أنالها سأدعو آمون ان يحفظها لي الى الابد

أيها الجميل ! كل ما يريد قلبي هو ان أستولي على اثاثك كسيدة لمنزلك وذراعي في ذراعك وإذا تحول حبك عني فإني أحدث قلبي « اخي العظيم بعيد عني الليلة . . » وحينذاك أصبح كميت في قبر

لم لا . . ؟ ألست لي الصحة والحياة . . ؟ ! »

وإليكم أغنية أخرى تناجي فيها فتاة اليمامة التي توقظها عند بزوغ الفجر بشدوها العذب وتضطرها إلى الاستيقاظ المبكر :

« صوت اليمامة يتحدث إليّ . . « انهُ الفجر — أليس في نيتك الخروج ؟ لا ايتها اليمامة لقد وجدت « اخي » في فراشه . قلبي يفيض بالسرور فقد قال لي : « سوف لا أتركك وستبقى يدي في يدك . سأكون معك في تجوالي في كل مكان جميل . . » لقد جعلني اولى الفتيات ولم يبعث الالم الى قلبي . . »

الى جانب هذه الاغاني الفياضة بالحب المتبادل والاخلاص نجد الكثير من الاغاني المملوءة بالشكوى — الشكوى من الرجل غير المخلص المتقلب في حبه . وفيها نلاحظ ان حب المرأة أغنى في التعبير وأوفر في ألوان العاطفة من حب الرجل . كذلك نلاحظ على هذه الاغاني ان الشاعر توفرت لديه عناصر الشاعرية ، فهو اذ يتكلم عن الحب يخلق للأغنية الجو الشعري الذي يلائم الحب . فيتحدث عن المرأة التي تمشي في البستان وتتهادى بين الورود والرياحين ، أو يصوِّر نبتاً او فاكهة تتحدث عن نفسها حديثاً يتصل بالحب ، او ينقل حديث الاشجار فهي التي تحمي المحبين تحت فروعها فتكون الامينة على أسرارهم . .

والى هذين الصنفين من الاغاني نجد صنفاً ثالثاً هو نوع من الغزل يتحدث عن الحب

فيتحدث عن المرأة وجمالها النسوي فيصفها عضواً عضواً . . ومن دراسة هذا الصنف الثالث نستطيع ان نلمح اي لون من الوان الجمال كان المصري القديم يفضل . كان المثل الاعلى للجمال عنده يتمثل في الشعر الاشد حلكة من الظلام ، والاسنان الاكثر صقلاً من الصوان ، والقد الأهيف ، والصدر المتزن الثابت

ونستطيع نحن بدراسة التماثيل والصور القديمة ان نعرف ان المصري القديم لم يكن ليعجب بالمرأة السمينة الضخمة ، بل كان يعجب كل الاعجاب بالمرأة النحيفة الرشيقة التي كانت تعده في العالم الآخر زوجة شابة صغيرة الى الابد

﴿ المغنّون والرّواة ﴾ : منذ عرف المصري الكتابة والكتّاب يورثون اسرارها واساليبها خلفهم جيلاً بعد جيل . ونشأت في مصر تبعاً لهذا طبقة من الكتّاب العلماء يتولون وظائف الحكومة الادارية ويديرون دفة الحكم في حذق ومهارة ويضبطون ميزانية الدولة ويراقبون جباية الضرائب ويشرفون على توزيع الاراضي وريّها وفلاحتها واصلاحها . ولذا كان لهذه الطبقة مكانة جدّ محترمة لدى الملوك والشعب . وقد حذق بعض هؤلاء الكتّاب فنه واغرم البعض الآخر بالعلم والبحث والدرس وشغف نفرٌ ثالث بالادب وقد وصلتنا عن هؤلاء جميعاً وثائق تشهد لهم بالعلم والثقافة والاسلوب الرفيع

والى جانب هؤلاء كانت في مصر طبقة من المغنين والقصاصين . وهؤلاء عاشوا للشعب ومن الشعب ، ولا زلنا نرى لهذا اللون من الادب اثراً حيًّا في مصر الحديثة نحسهُ في هذه الآهات الرعاشة وهذه الليالي العذبة التي يرددها الفلاّح في حقله او الملاّح في سفينته ، يستعين بها وبالاغاني الشعبية الساذجة الحلوة على اداء واجبه . وكثيراً ما سجل الحفارون المصريون القدماء بعض هذه الاغاني التي كان يترنم بها الصنّاع والفلاّحون والملاّحون فوق الصور المنقوشة على جدران المقابر والتي تمثل حياة هؤلاء جميعاً

وكثيراً ما نعثر على صور بعض العميان الذين يحترفون الغناء منقوشة على هذه الجدران وهذه دون شك صورة قديمة لازلنا نرى لها شبيهاً في حياتنا الحاضرة . وهؤلاء الفتيات الراقصات المغنيات اللاتي يطفن بالقرى والاسواق صورة واضحة للفتاة المغنية في « رحلة اوناءون Unamun »

ويرى A. Erman ان هذا الشاعر الذي يرتقي دكته العالية في المقاهي البلدية أثر مصري قديم انحدر الينا من مصر القديمة . حقًا ان جدران المقابر لم تحفظ لنا صورته ولم ترو لنا قصصه ولكننا لو عرفنا ان غالبية هذه المقابر المنقوشة كانت تبنى للملوك وكبار رجال الدولة وأن النقوش كانت لا تمثل الاّ حياة هؤلاء أو حياة خاصتهم وخدمهم في صناعتهم أو زراعتهم أو

صيدهم أدركنا لم لم تحفظ هذه الجدران صورة هذا الشاعر القصّاص الذي كان يتحدث الى الشعب في الشوارع والطرقات دون شك والذي كان يتحدث اليهم عن آمالهم وآلامهم مستمداً مادة قصصه وشعره من حياتهم أولاً ومن حياة الآلهة والابطال والملوك والرحالة ثانياً

ويعود Erman فيقول ان معظم القصص التي وصلتنا عن مصر القديمة تؤيد وجود هذا الشاعر لان القصص التي يتلوها شاعر مصر الحديثة تتحدث في الغالب عن شخصيات تاريخية لها مكانتها في الشجاعة والكرم والبطولة كقصة الظاهر بيبرس أو هارون الرشيد وكذلك معظم القصص التي وصلتنا عن مصر القديمة تتحدث عن شخصيات تاريخية لها هذا المقام . فقد وصلتنا عن العصر المسيحي قصة عن قمبيز . وعن العصر الاغريقي قصة عن نكتنبو Nektanebus ونقل هيرودوت كذلك قصة رامسينيتس Rhampsinitus ولدينا من عصر المملكة الحديثة قصص تحتمس الثالث وقصة الملك الهكسوسي « ابوفيس Apophis » ومن أواخر المملكة المتوسطة قصص « خوفو »

﴿ القصص المصري القديم ﴾ : وهذا موضوع خطير يحتاج الى مجلد وحده لبحثه بحثاً وافياً شافياً فقد وصلتنا عن مختلف عصور مصر القديمة قصص كثيرة بعضها يتحدث عن الآلهة والملوك والابطال ، وبعضها يتحدث عن السحر والسحرة والحيوانات الالهية كالتمساح والحية والبقرة ، وبعضها يتحدث عن أفراد الشعب وحياتهم وأحزانهم وأفراحهم وحبهم . وكل قصة من هذه القصص تحتاج الى بحث خاص لدراستها وتحليلها

وهناك ناحية أخرى أراها جديرة بالاهتمام وألفت اليها الانظار . تلك هي : الى اي حد تأثر القصص المصري في العصور الوسطى بالقصص المصري القديم ؟ واعني بذلك الى اي حد تأثرت الموسوعة القصصية « الف ليلة وليلة » او قصة « الاميرة ذات الهمة » او قصة « الظاهر بيبرس » . اقول الى اي حد تأثرت هذه القصص بالقصص المصرى القديم ؟

وانا من ناحيتي ارى ان الدراسة التحليلية لقصة « الملاح الغريق » ومقارنتها بقصة « السندباد البحري » أو لقصة « الشقيقين » ومقارنتها بقصتي موسى ويوسف وقصة « قمر الزمان » (إحدى قصص الف ليلة) او دراسة قصة « احزان الفلاح » وتحليلها ومقارنة نوع الحياة التي كان يحياها فلاح مصر القديمة بنوع الحياة التي يحياها فلاح مصر الحديثة . اقول إن دراسة من هذا النوع تكون طريفة كل الطرافة وجديدة كل الجدة . وعسى ان اوفق إلى بعض هذا في المستقبل ان شاء الله

مراجع

رأينا — اتماماً للفائدة ان نلحق بالكتاب ثبتاً بالمراجع التي يمكن القارىء ان يرجع اليها اذا شاء ان يستزيد من العلم بتاريخ مصر القديمة وحضارتها . ويلاحظ القارىء أننا اقتصرنا على أمهات الكتب وأوثقها لان ما كتب عن مصر القديمة اكثر من ان يحصيه كتاب كامل كهذا

Select Bibliography

I. General Works.

Breasted (J. H.) , A Hisrtory of Egypt (1 vol.) translated into Arabic by Dr. Hassan Kamal.

Baikie (J.) , A History of Egypt (2 vol.)

Brunton (W.) , Great Ones of Ancient Egypt (1 vol.)

Budge (E. A. Wallis) , a History of Egypt from the End of the Neolithic Period to the Death of Cleopatra VII.

Erman (A.) , Aegypten und aegyptische Leben in Altertum (1 vol.) reviewed by H. Ranke (1 vol.)

Herodotus, translated into English by H. F. Cary

Jequier (G.) , Histoire de la civilisation Egyptienne

Maspero (G.) , Histoire ancienne des Peuples de l'Orient classique (3 vol.)

— Causeries d'Egypte (1 vol.)

Meyer (E.) , Geschichte des Altertums.

Moret (A.) et G. Davy. Des clans aux Empires

Moret (A.) , Le Nil et la Civilisation Egyptienne (1 vol.)

— Au temps des Pharaons (1 vol.)

Morgan, (I. De) , Recherches sur les origines de l'Egypte

Petrie (F.) , A History of Egypt (3 vol.)

— Prehistoric Egypt

Smith (E.) , History of Mummification in Egypt

Steindorff (G.) , Die Blütezeit des Pharaonenreichs

— Geschichte Ägyptens

Weigal (A.) , The Life and Times of Akhnaton

— , The Treasury of Ancient Egypt

Wiedemann (A.) , Agyptische Geschichte (2 vol.)

II. Excavations.

Firth, Excavations at Saqqara

Junker (H) , Merimde, Benisaläme

Giza.

Lepssius (R.) , Denkmäler aus Ägypten und Aethiopien

Menghin (O.) , Mustafa Amer, The Excavations. of the Egyptian University in the Neolithic Site at Maadi

Reisner G.) , Mycerinus

Selim Hassan, The Excavations of the Egyptian University at Giza

III Documents.

Breasted (J. H.), Ancient Records of Egypt (5 vol.)
Gardiner (A.), Late Egyptian Stories
Selim Hassan, Inscription Sur un socle de Statuette
Sethe (K.), Untersuchungen zur Geschichte und altertumkunde Aegyptens.
— , Urkunden des alten Reiches
Steindorff (G.), Urkunden des Aegyptischen Altertums

IV Morale, Religion, Social Life.

Breasted (J. H.), Development of Religion and Thought in Ancient Egypt (1 vol.
— , Dawn of Conscience. The Origins of Civilisation
Budge (E. A. Wallis), The Book of the Dead. An English Translation (3 vol.)
— , The Gods of the Egyptians
— , Osiris and the Egyptian Resurrection
Erman (A.), Die Aegyptische Religion (1 vol.), translated into English by Griffith
— A Handbook of Egyptian Religion
Junker (H.), Die Stundenwachen in den Osirismysterien
— , Die Onurislegende
Maspero (G.), Etudes de mythologie et d'archeologie égyptiennes. (8 vol.)
Moret (A.), De caractère religieux de la royauté Pharaonique (1 vol.)
— , Mystères égyptiens (1 vol.)
— , Rois et Dieux d'Egypte (1 vol.)
Petrie (F.), Religion and Conscience in Ancient Egypt (1 vol.)
— , Social Life in Ancient Egypt (1 vol.)
— , Religious Life in Ancient Egypt (1 vol.)
Plutarque, Isis & Osiris translated by M. Meunier
Sayce (A. H.), The Religion of Ancient Egypt
Schäfer (H.), Die Religion und Kunst von El-Amarna.
Selim Hassan, Hymnes religieux du Moyen Empire.
Sethe (K.), Amun und die acht Urgötter von Hermopolis
— , Urgeschichte und Älteste Religion der Ägypter
Steindorff (G.), The Religion of the Ancient Egyptians, translated into Arabic by Prof. Selim Hassan Bey (1 vol.)
Wiedemann (A.), Religion of the Ancient Egyptians (1 vol.)
Wilkinson (I. G.), Manners and Customs of the Ancient Egyptians (3 vol.)

V Literature

Budge (E. A. Wallis) The Literature of the Ancient Egyptians
Erman (A.) Die Literatur des Aegypter (1 vol.) Translated into English by Blackmann
— The Literature of the Ancient Egyptians
Lange (H. O.), Das Weisheitsbuch des Amenemope
Maspero (G.), Contes populaires de l'Egypte ancienne (1 vol.)
Petrie (F.), Egyptian Tales translated from the Papyri (2 vol.)
Sami Gabra, Les Conseils de Fonctionnaires dans L'Egypte Pharaonique
Selim Hassan Le Poeme dit de Pentaour et le Rapport officiel sur la Bataille de Qadesh. (1 Vol.)
Wiedemann (A.) Popular Literature in Ancient. Egypt (1 vol.)

VI Archaeology, Fine Arts.

Bissing (Von), Denkmäler ägyptischer Sculptur (2 vol.)
Boreaux (C.), L'art egyptien (1 vol)
Capari (J.), Les origines de l'art et l'art égyptien (1 vol.)
—, Les débuts de l'art en Égypte (1 vol.)
Jéquier (J.), Manuel d'archeologie égyptienne
Maspero (G.), L'archeologie égyptienne (1 vol.)
—, Histoire Generale de l'art : Egypte (1 vol.)
—, Essai sur l'art égyptien (1 vol.)
Petrie (F.), The Arts and Crafts of Ancient Egypt (1 vol.)
Schäfer (H.), Von ägyptischer Kunst, besonders der Zeichenkunst (2 vol.)
Steindorff (G.) Die Kunst der Ägypter (1 vol.)
Wilkinson (J. G.), The Architecture of Ancient Egypt (2 vol.)

VII Periodical Publications.

Annals of Archaeology and Anthropology issued by the Institute of Archaeology, University of Liverpool.
Annals du Service des Antiquités de l'Egypte
Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale
The Journal of Egyptian Archaeology, published by the Egypt Exploration Society
Proceedings of the Society of Biblical Archaeology
Revue de l'Egypte ancienne
Revue égyptologique
Revue de l'histoire des religions
Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde.

شفيق فريد
ليسانس الآداب (قسم التاريخ) ومعهد الآثار المصرية

فهرست

٣ المقدمة

٦ مصر وماضيها : للاستاذ حسين مؤنس

٩ جيمز هنري برستد : للاستاذ مصطفى عامر

١٧ التراث العلمي لمصر القديمة : للدكتور حسن كمال

٢٩ رياضيات المصريين القدماء : للدكتور كاربنسكي : نقلها الاستاذ قدري حافظ طوقان

٣٧ تراث مصر اللغوي . للاستاذ الدكتور جورجي صبحي بك

٤٩ التراث القانوني لمصر القديمة : للدكتور زكي عبد المتعال

٦٥ القانون الدولي والاقتصاد السياسي عند قدماء المصريين : لجورجي نجيب الراهب

٧٧ تراث مصر الفني والمعماري : للاستاذ محرم كمال

٩٣ تراث مصر الفكري والفلسفي : للاستاذ سلامه موسى

١٠١ مظاهر الفكر عند قدماء المصريين : للاستاذ سامي جبره

١١١ كيف انتقلت حضارة مصر : للاستاذ عبد الهادي حماده

١٢٣ الادب المصري القديم : لجمال الدين الشيال

١٣٥ مراجع